الحب وحده لا يكفى

تأليف

أحمد فريد محمود

الناشـــر
دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــــاب : **الحب وحده لا يكفى**
المؤلـــــــف: أحمد فريد محمود
تـــاريخ النشــر : ٢٠٠٠

النـــاشــــر : **دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع**
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز ــ عمارة برج آمون
الدور الأول ــ شقة ٦
ت ، ف: ٢٤٧٤٠٣٨ ت: ٢٤٦٢٥٦٢
التـــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
المطـــابع : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧
رقـم الإيـــداع : ٩٩/١٥٠٣٠
الترقيم الدولى : ISBN
977 - 303 - 208 - 6

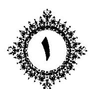
الحب وحده لا يكفى

إهـداء ...

إلى القلوب التى اكتشفت أن الحب وحده يكفى...

أحمد فريد





وقف الأتوبيس عند المكان المخصص له .. وبدأت الأجساد المتلاصقة فى صراع مع الصعود والهبوط .. ويمضى البعض فى محاولة يائسة من الباب الأمامى فتتجاذبهم الأيدى من الخلف وتدفعهم أيد أخرى من الأمام فيثبتون فى مكانهم على الدرج الأول لباب السيارة .. والسائق ينذر بالتحرك .. ويهم به فعلا .. ويستغيث طفل استطاع أن يتسلل إلى الخارج تاركا والدته للحاق به .. وتختلط الأصوات .. البعض يردد .. النظام .. النظام .. وآخرون يتبعونهم وهم يلوحون بأيديهم للمصطفين داخل الأتوبيس مرددين

- أفسحوا لغيركم .. يا لها من أنانية ..

فيهمهم الآخرون بالداخل.. وذلك أقصى ما يمكن أن يفعلوه.. فكل منهم يقف على نحو إذا تأملته عين بعيدة لخر صاحبها من الضحك والسخرية.. فمنهم من يقف على قدم واحدة والأخرى قد استكانت على قدم الآخر.. ومنهم من يقف بزاوية قائمة تضيف شكلا هندسيا جديدا يحتار فيه علماء الرياضيات .. وفى اللحظة التى نفذ صبر السائق فيها وقرر مواصلة السير .. كانت قدم عبير قد وطأت الأرض بصعوبة .. بعد أن وجدت نفسها بغير حاجة للمحاولة حيث تناوبتها الأيدى دافعة تارة .. وقارصة أخرى. منتصف النهار تماما.. حيث الشمس على الأفق.. وحبات العرق تطفو على بشرتها

القمحاوية .. وقد التصقت بضع خصلات مـــن شـــعرها الكســـتنائى الطويل على جبينها ...

ووقفت برهة تجول بعينها الواسعتين على أطراف ثوبها كأنــها تطمئن إلى أنها لازالت تملكه .. وأنه لم يصبه شيء ممـــا أصـــاب إصبع قدمها اليسرى أثناء محاولتها للنزول .. رحلة عذاب دأبت على القيام بها طوال عامين كاملين .. فمنذ تخرجها فى كليـــة التجـــارة. وهى فى انتظار قرار القوى العاملة.. وهى تغـــادر منزلـــها يوميـــا صباحا ولا تعود إليه إلا فى مثل ذلك الوقت .. تبحث عن عمـــل .. أى عمل يقيها الفقر الذى بدأ يطبق على أسرتها يوما بعد يوم .. بعـــد ما توفى والدها قبل تخرجها بعام واحد تاركا بيـــن يديـــها مســـئولية كاملة.. تركة مثقلة من المسئوليات المتعددة أقلـــها رعايـــة أشـــقائها الثلاثة الذين لم يتجاوز أكبرهم الثالثة عشرة بعد، كما ترك لـــها أمـــا مريضة بداء الربو استطاع بدوره أن يقضى على الجنيـــهات القليلـــة التى تبقت من معاشه.. من أجل هذا كان عليها أن تحافظ بكـــل مـــا تملك من حواس على فستانها الوحيد حتى تتمكن من مواصلة رحلـــة البحث.. وأن تعد نفسها لاختيار كلمات جديـــدة تبعـــث روح الأمـــل والطمأنينة فى والدتها التى اعتادت أن تنتظرها وعيناهـــا تموجـــان بالحيرة والاستفسار.. وكثيرا ما كانت تعلنها صريحة..

- ماذا عن اليوم يا ابنتى..

فتجيبها باقتضاب ..

- لا جديد يا أمى..

ولكن اليوم يختلف كثيرا عن الأيام السابقة ..

اليوم صباحا أخبرتها قبل أن تغادر المنزل بأن الحاجة سليمة جارتهم التى تقطن فوق السطح قد جاءت برغبة الأستاذ منصور مدرس اللغة العربية فى الزواج منها.. وعليها أن تفكر فى الأمر.. ولكن.. أى أمر هذا الذى تفكر فيه .. الأستاذ مرفوض مسبقا لا لعيب فيه.. أو لأطماع لها أخرى..

ولكن لأنها تأبى أن يكون منصور بالذات شريكا لحياتها.. فهو يعلم كل شىء عنهم.. عن شبح الفقر الذى يخيم عليهم.. وعن أنات الألم الذى يعتصر قلوبهم..

ولابد أيضا أنه يعلم أكثر من ذلك.

إنها تريد رغبة لا شفقة.. تريد حنانا لا عطفا.. كما أنها تريد حبا لا تقليدا اجتماعيا.. وما تريده خاضع هو الآخر لقرار القوى العاملة.. مدحت حمدى زميلها فى الكلية والتخرج الذى يعانى نفس ظروفها وإن اتخذت عنده شكلا آخر..

وبدأت تشق الطريق للاتجاه الآخر .. ودلفت إلى حارة جانبية تهاوت مبانيها الأولى التى تطل على الطريق الرئيسى مباشرة بتلاصق المبانى الأخرى على جانبيها .. وقد خط على أول حائط متماسك فى طريقها بقطعة من الطوب الأحمر.

(حارة النبقة) .. وتوالت الخطوط وكثرت العبارات.. شباب النبقة الرياضى يرحب بالضيوف.. النبقة ثلاثة.. وحارة السد صفر.. فريق النبقة يتحدى الحلمية كلها ...

وكان عليها أن تتفادى كل التوقعات فى خطاها.. كسرة فى الطريق إلى المرمى.. حجر من طفل ثائر على آخر.. ينبوع ماء يتدفق من باطن الأرض.. عطسة حمار مصاب بالشحار.. وغيرها مما تخبئه هذه الزنقة من مفاجآت.. حتى تصل إلى أول الحارة التى تقطن فى آخرها.. فتهدأ نفسها عندما يطل الأسطى فهيم الترزى برأسه من داخل حانوته محييا فى ود..

أو يتوقف المعلم عباس عن تسليته الوحيدة من شروق الشمس حتى غروبها وهى رش المنطقة أمامه بخرطومه المتهالك فيستقبلها ببشاشة وطيبة.. ولا مانع لديه من أن يسلط فوهة خرطومه على صبى فى طريقه لينحيه جانبا ويفسح لها الطريق.. ولا ينسى أن يتغاض عما يصيبه من سباب الطفل لتصرفه.. وكانت عبير تستقبلهم جميعا بوجهها البشوش وابتسامتها الرقيقة.. وكثيرا ما كانت تتجه نحوهم وتسبقهم فى عبارات الود والتآلف.. خاصة عم ربيع البقال الذى يعاملها كأنها ابنة حقيقية له.. بل كثيرا ما كان يعلنها قائلا..

– يا ابنة الغالى .. أنت عندى خير أولادى من الزوجتين..

فتتلقى كلماته بكل الحب والإعزاز..

فقد كان صديقا لوالدها قبل وفاته.. ومصدر رزق لمدحت حمدى الذى راح يعاونه فى حسابات دكانه مقابل بضعة جنيهات كل شهر.. ومضت دقائق قليلة.. قضتها عبير وهى تستقبل تحية من هنا وعبارة من هناك.. إلى أن وصلت لنهاية الحارة، وألقت بطرف عينيها نظرة خاطفة تجاه دكان البقال.. كأنها تخشى أن يراها أحد..

ولكنها لم تر شيئا.. زاغت نظرتها تحت تأثير ارتباكها.. واختفت داخل البوابة الخارجية للمنزل.. أربعة طوابق لكل واحد منها شقتان.. والحاجة سليمة تسيطر على مملكة السطح..

وما كادت تخطو خطواتها الأولى على الدرج الرخامى.. حتى ترامى إلى مسامعها وقع خطوات هابطة بغير انتظام.. وكان عليها أن تستقبل أشقاءها كالمعتاد الواحد تلو الآخر..

وأكثر ما كانت تحتاط له هو استقبال أصغرهم لها حيث اعتاد أن يلقى بنفسه عليها.. غير مبال بما فى يده من آثار طعام.. أو بقايا قطعة عجين كان يشكلها بيده .. ولهذا كانت تتحفز دائما لاستقباله.. تنهره تارة.. وتستسلم أخرى لعدم الخروج فى اليوم التالى حتى تجفف ثوبها بعد تنظيفه.. واستسلمت اليوم وحملته إلى صدرها.. وتجرأ الآخر فأمسك بذيل ثوبها واكتفى الثالث بالقفز أمامها فى حركات بهلوانية.

وعند الطابق الثالث وقفت الأم فى انتظارها.. دون أن تتفوه بكلمة.. مكتفية بابتسامة هادئة.. ونظرة مسالمة.. حائرة.. مترقبة.

ليست بالبدينة ولا بالنحيفة.. لا زالت تحتفظ بمسحة جمال هادئ على وجهها بعد رحلة عمر اقتربت من الخامسة والأربعين.. وقد عقدت عى رأسها وشاحا أبيض اللون.. كان آخر ما اشتراه لها زوجها.. واقتربت عبير وبادرتها لاهثة..

– كيف حالك اليوم يا أمى ..؟

ولم تدع لها فرصة للإجابة.. ولم تنتظرها.. كأنها تقطع عليها

أى حديث قد يشدها إلى استفسار آخر.. لا ترغبه.. أو تخشى تأثيره.. ولاحقتها قائلة..

– تحطمت ضلوعى من هذا الشقى..

وواصلت تقبله.. وتدلله .. وهى فى طريقها إلى الداخل.. وتبعها موكب الأسرة.. بما فيهم الأم.. ولكنها توقفت فى منتصف الردهة.. عندما همست الأم من خلفها..

– هل من جديد يا ابنتى..

فأنزلت شقيقها وهى تجاهد للاحتفاظ بابتسامتها الهادئة.. والتفتت إليها بعينين زائغتين.. وأجابت:

– الحقيقة يا أمى.. لا جديد.. ولكن..

ولكنها توقفت عن الحديث عندما لمحتها تدير وجهها عنها وتتخذ لنفسها مكانا فوق الأريكة العتيقة.. بما لها من مساند خشبية من بقايا صناديق المشروبات الغازية.. وقطعة حديد استعاروها من الشقيق الأكبر الذى دأب على هواية تصليح ما يمكن أن تصل إليه يد أصغرهم.. واستطاعوا عن طريقها أن يحتفظوا بتوازن الأريكة.. ثم رفعت رأسها إليها ورددت فى صوت حبيس..

– وبعد يا ابنتى.. لم نعد نملك شيئا نبيعه.. آخر جنية معى من ثمن مكتب أبيك الذى اشتراه المعلم حسونه.. استطعت أن أسد به ثغرات كثيرة.. وإننا اليوم..

فقاطعتها بهدوء وهى تقترب منها وهمت بالجلوس بجانبها..

- الله خير معين.. وغدا بإذن الله سيكون الفرج..

غدا..

رددت الأم وهى تهز رأسها فى استسلام وسكينة.

واستغلت عبير لحظة الصمت.. ونهضت من جانبها لتتوارى داخل حجرتها المطلة على الحارة.. وفى أعماقها صدى الكلمة.. غدا..

وماذا يمكن أن يحدث غدا..

لا عمل لدينا الآن..

يمكنك الحضور للاستفسار بعد أسبوع.. الوظيفة المطلوب شغلها.. بالأمس فقط لم تعد شاغرة..

نقبل على أساس الانتقال لفرع الشركة..

الطلب فى الإدارة..

يأس.. زحام.. خوف.. احتياج.. اضطراب..

نريد خبزا.. الدواء انتهى.. الحذاء فقد فى الطريق.. الإيجار تعاقب.. موعد الدراسة اقترب.. أين الأقلام..

صراخ.. الأخ الأصغر يعبث بدفاتر أخيه.. أريد غيره.. جائع.. نريد الذهاب للسينما كالآخرين.. الكرة مزقها الأسطى محمد بموسه الذى يصلح به الأحذية، عندما ارتطمت بزجاج محله.. نريد غيرها.. ماذا يمكن أن يجيء به الغد..

يا إلهى أين كان كل هذا.. ؟

واسترخت على المقعد المجاور للنافذة.. وبدأت صورة أبيها

تزداد وضوحا فى مخيلتها..

كل شىء كان على كاهله فى صمت..

الاستقرار.. الطمأنينة.. الهدوء.. السعادة.. الحب حتى فى لحظة غضبه وقلما كان يغضب..

الحى كله.. إن لم تكن الحلمية بأكملها.. كانت تعرفه وتكن له كل الحب.. والاحترام..

كان اسمه يتردد على كل لسان.. ومن لا يعرفه كان يسمع عن أخلاقه.. وطيبة قلبه..

الأستاذ محمود البندارى.. الموظف بهيئة المعاشات..

دعوات الآخرين من حوله فى الذهاب والإياب..

وما أصدق دعوات المحتاجين.

فلقد استطاع بخدماته لأهل الحى.. ومعاوناته لهم فى شئونهم.. وخاصة من لهم صلة بالمعاشات.. وغيرها عن طريق زملائه فى مصالح أخرى.. أن يكتسب حبهم.. ورضاهم.. واحترامهم..

كل شىء على كاهله فى صمت..

وفجأة.. كان كل شىء يتحفز لها.. وتصدعت كل الأساسات من حولها.. وطفح بركان الواقع أمامها..

وبدأت الحقيقة تظهر أمامهم جميعا.. ومع آخر نفس من أنفاسه..

وهى تذكر جيدا يوم التفت إليها وهو على فراش الموت.. وهمس بصوت متهالك..

- يا عبير.. عليك بمواصلة المسيرة..

ولا زالت تذكر كل شيء..

كيف واصلت الليل بالنهار.. والتهمت مقرراتها التهاما.. وكيف انقطعت عن كل الصداقات.. وكيف .. وكيف...

إلى أن حصلت على شهاداتها الجامعية.. ولم تنتظر تنسيق القوى العاملة.. لأنها لا تخضع لظروفها وحدها.. فهناك الكثيرون.

ودفعت النافذة برفق.. بالقدر الذى يسمح لها برؤية دكان عم ربيع بوضوح.. ورأته .. مدحت حمدى.. جالسا على المكتب الجديد.. الذى اشتراه له عم ربيع ليمارس عليه حساباته...

وكان دخول المكتب يومها فى موكب كالاحتفالات الرسمية.. حيث تجمهر صبية الحارة.. والمناطق المجاورة.. يزفون عربة الكارو وهى تحمله إلى مستقره داخل الدكان.

بنفس الوجه الهادئ.. وعلامات الإصرار تحدد أساريره.. والشعر الداكن الذى امتزجت به خصيلات كخيوط الفجر.. بالرغم من أنه لم يتجاوز الثلاثين بعد.

وبدأت ابتسامة مضطربة تزحف على شفتيها وهى تدقق النظر إليه.. كأنها تراه لأول مرة.. أو كأنها تمسك بقلم تحدد به معالمه على لوحة أمامها.. تحدد حاجبيه الكثيفين وهما يبدوان على وشك الاتصال.. وعينيه الواسعتين المصحوبتين بومضة من الذكاء والحدة.. لا يتخليان عنهما فى أى ظرف.. سواء فى ضحكه.. أو فى

ثورته.. وإلى قامته الفارعة ومنكبيه العريضين.. منغمس فى أوراقه.

بينما ينشغل عم ربيع عنه لتنفيذ رغبات الآخرين..

ما بين الجبن.. والزيتون.. والخبز.. وقد يطلب منه؛ الدفاتر.. والأقلام فهى بضاعة مستحدثة بالنسبة إليه.. اقترحها عليه مدحت.

واتسعت ابتسامتها أكثر.. واقتربت إلى الضحكة.. عندما لمحت الأسطى قاسم الحلاق وهو يخرج من محله المجاور لعم ربيع ويدخل إليه..

ولاحظت نظرة التحفز.. التى تطل من عين عم ربيع.. فهى تعلم ما يمكن أن يدور بينهما من أحاديث.. وتحديات.. فكثيرا ما قص مدحت عليها بعضها.

وتحقق ما توقعته.. حيث اشتبكا فى حديث غير مسموع إليها.. والأسطى قاسم يلوح بالمنشة التى فى يده يمنة ويسرة وهو ينتصب أمامه كالديك الثائر.. وعادة ما تنتهى المناقشة.. بنكتة ضاحكة.. أو سخرية مازحة.. أو توعد عند اجتماعهما فى المساء أمام محل أحدهم.. حيث يتجمع أرباب المحلات.. وبعض شباب المنطقة.. وموظفيها.. كل يوم ليقطعوا وقت فراغهم.. ولكن اليوم اختلف الأمر..

فوجئت بعم ربيع يهدد الأسطى قاسم بعمود من الحديد والآخر يهرول أمامه ضاحكا.. ولم تستطع أن تكتم ضحكتها ودفعت النافذة.. فالتقت عيناها بعينى مدحت.. الذى اعتاد عدم التدخل فى مثل تلك المشاحنات الأخوية.. حتى لا يتورط فى أية مناقشة.

وكان لقاء أعينهما يهز من كيانهما هزا محببا.. وهما يختلسان النظر.. كالأطفال المذنبين..

فالجميع يعلمون برغبتهما.. ولكن مجلس الحارة اتخــذ قــراره الحــازم بــدون علمــهما بــأن لا مقــابلات.. ولا ارتباطــات.. ولا مراسلات.. أو همسات.. قبل أن تحدد القوى العاملة مصير كل منهما.

تم القرار فى صمت.. وتمت موافقتهما أيضا فى صمت..

بلا حديث أو تلميحات.. فكل فريق نقل للآخر ما يريد.. بـدون مناقشات.. وانتبهت على صوت والدتها من الداخل..

- ألم تبدلى ملابسك يا عبير.. لقد أعددنا الغذاء..

ونهضت مرتبكة كأنها تقف فى مواجهتها.. وأسرعت بغلـــق النافذة من جديد..

والأمر ليس غريبا على مدحت.. وكثيرا ما أغلقــت النــافذة فــى وجهه.. حيث يدرك طبيعة المفاجآت التى تتعرض لها.. سواء مــن أحــد أشقائها.. أو من والدتها.. مكتفيا فى أغلب الأحيان بتلك النظرة المختلسة..

وأسرعت بتحرير أزرار فستانها.. وتخلصت منه مــن فــوق كتفيها ولحقت بأطرافه قبل أن يصل إلى الأرض ورفعت رأسها وهى فى انحنائتها البسيطة.. تتأمل نفسها فى مـــرآة دولابــها المقــابل.. ووضحت جليا آثار الرتق فى قميصها الداخلى.. وتحسست أماكنـــها كأنها فى محاولة لإخفائها.. ثم تناولت الفستان واتجهت نحو الســرير المنزوى فى أقصى الغرفة.. ورفعت المرتبة بيد وبـــالأخرى ألقــت

بالفستان فى هدوء.. ثم أسندت طرف المرتبة على كتفيها ولـــم تعــد ترى شيئا أسفلها.. وهى تتحسس تنظيـــم الفســتان علـــى الألـــواح الخشبية.. وأنزلتها مرة أخرى برفق وهى تطلق زفرة طويلة.. كأنـــها تخلصت من حمل ثقيل أرهق كاهلها.

وخرجت إليهم بعد أن ارتدت بيجامتـــــها الســماوية اللـــون.. والوحيدة أيضا.. وجدتهم قد التفوا حول المائدة.. وبعضهم قد بدأ فعلا فى تناول الطعام.. بينما تتابعهم الأم بنظرة حانية.. وابتسامه هادئـــــة مستقرة على شفتيها..

ولكن إحساسا غريبا جعلها تزوغ بعينيها بعيدا عن نظرتـــها.. وحاولت إخفاء ارتباكها بمداعبة الشقيق الأصغر قائلة..

- ألن تهدأ يا هشام وتطيع والدتك.

فالتفت الصغير الذى لم يتجاوز السادسة.. وهو يسلط عليـــــها نظرة أراد بها أن يعبر عن تحديه وأجاب..

- اعطنى قرشا وأطيعكم جميعا..

واشترك الجميع فى ضحكة مجلجلة.. أذابت إحساس التوتـــــر فى نفسها.. وما كادت تنتهى من طعامها حتى رددت بكلمات كأنـــــها تحدث نفسها..

- سأحاول الاسترخاء قليلا.

فلاحقتها الأم قائلة:

- أنا أيضا انتهيت من طعامى.. ولكن..

فالتفتت عبير إليها فى نظرة مستسلمة.. واستطردت والدتها..

– ولكن لى حديث معك يا ابنتى.

ولم تدع لها فرصة لأية إجابة.. وأردفت:

– هيا إلى حجرتك.. بعيدا عن هؤلاء الأشقياء.

واتجهت إلى غرفتها من جديد.. وعبير تتبعها وقد شل تفكيرها تماما.. إلا من زاوية واحدة.. فهى تعلم مسبقا أن لوالدتها حديثا لم يكتمل بعد.. ومن أجل ذلك حاولت أن تجد المبررات لعدم الخوض فيه.. ولكنها لم تكن تتوقع ذلك الإصرار.. فقيدتها المفاجأة عن التفكير..

وجلست الأم على حافة الفراش وهى تهمس:

– اجلسى يا عبير يا ابنتى.. وأرجو أن تكونى عند حسن ظنى كعادتك..

ونفذت عبير ما أرادت.. واستكانت صامتة.. وكل نبضة فى عروقها تنتفض اضطرابا كأنها ستتلقى نبأ خطيرا..

واصلت الأم قائلة..

– عبير يا ابنتى.. أنت فى عمر يسمح لك بالتفكير السليم.. كما أنك تدركين حقيقة ظروفنا تماما.. واليوم..

فأسقطت عبير نظرتها إلى لا شىء.. وبدأت دون أن تدرك تفرك أصابعها.

.. تجاهلت الأم تصرفاتها وأكملت..

– واليوم أخبرتك صباحا بموضوع الأستاذ منصور.. وهو

على أى حال له مركزه.. واحترامه بين أهـــالى الحـــى.. والحاجـــة سليمة ستعود فى المساء لتعرف ما توصلنا إليه..

مضت لحظة صمت.. أحسست بها عبير عنيفة قاســـية..ولـــم تســـتطع أن تتفـــوه بكلمـــة واحـــدة.. تريـــــد أن تــــزود عــــن مشاعرها..وحبها..تريد أن تعبر عن كيانها.. تصرخ.. تبكى..تعلنـــها جهرا..لا.. وألف لا..

ولكن الواقع يريد شيئا آخر.

ومنطق والدتها أقوى من إرادتها.. فبأى لسان تنطق.. وبـــأى سلاح تزود عن رغبتها.. فآثرت الصمت مقهورة.. كإحساس الغريب فى غربته.. بلا رفيق أو صديق.. كأنها القوى الجريح فـــى انتظـــار شفاء جراحه..

وكان من الطبيعى أن تسترسل الأم فى حديثـــها متخـــذة مـــن صمتها دربا قصيرا من دروب إقناعها.

– كان أبوك قلبا ينبض بالوفاء والتضحية.. وروحـــا تســـبح بأجنحة الكبرياء والفضيلة.. ولقد تركنا ورؤوســـنا جميعـــا عاليـــة.. واليوم يا ابنتى أصبحنا على وشك أن نمـــد أيدينـــا نطلـــب معونـــة الآخرين.. والفرصة فى يدك.. وقبل أن تجيبى انظرى برهـــة إلـــى أشقائك الثلاثة.. تأملى حالتى وبعدها لك ما تشائين.

وساد الصمت بينهما مرة أخرى.. والأم تركز عينيها عليـــها.. فى انتظار إجابتها..

أخذت عبير تتلفت حولها كأنها تبحث عن شىء تستنجد به أمام ذلك الواقع اللعين..

ثم أدارت وجهها إليها وهى تستجمع كل شجاعتها لمواجهة تلك الأعين الكليلة.. ونظرة الحزن المتهالكة.. وهمست..

– إذا كان ذلك قدرى ..فلا مفر.. ولكن يا أمى.. أنت تدركين كم أجاهد فى سبيل التوصل إلى أى عمل.. ولكن لى رجاء.. أرجو..

فقاطعتها بطيبة..

– لك ما تشائين كما ذكرت لك..

– أن ترجئ ذلك الأمر أسبوعا آخر.. ربما..

ولكنها توقفت عن الحديث.. عندما لاحظت الأم تهز رأسها فى استسلام.. واكتفت هى بتلك الموافقة الصامتة.. وقد يحدث الكثير فى ذلك الأسبوع.

ودوت فى هذه الآونة أصوات ضجيج عالية فى قلب الحارة.. وأسرعت الأم وتبعتها عبير إلى النافذة.. ليجدا جمهرة كبيرة.. اختلط فيها المعروف لديهم وغير المعروف.. وفى أقل من لحظة أدركا سبب ذلك التجمع والضجيج..

عبودة المشاكس.. فلا يمر يومان أو ثلاثة على الأكثر.. إلا ويترامى إلى مسامعهم ذلك الضجيج والشغب.. حتى اعتاد الجميع على ذلك.. وكثيرا ما يستنتجون هذا دون حاجة إلى استفسار.

ولكن اليوم يختلف عن سابقه..

عبودة يحاول التملص من قبضة شرطى فى تمنع وإصـــرار.. والآخر مصمم ألا يترك معصمه وصوت عبودة الأجش يجلجل بيـــن جدران المبانى..

– قلت لك سأذهب معك ولكن اترك يدى..

– سر فى صمت وهذا أفضل لك..

وتختلط الكلمات من حولهما.. البعض مستفسر.. والآخر شامت..

– ماذا فى الأمر.. أنصت لحديث الشرطى يا عبودة..

ويتدخل البعض..

– اذهب لترى ماذا يريدون منك..

فتبدر منه التفاتة عن عينين قاسيتين شرستين:

– لن أذهب.. ولن أتحرك خطوة واحدة إلا إذا ترك يدى..

فيجيبه الشرطى وهو فى محاولة للاحتفاظ بهدوئه:

– تحرك يا عبودة خيراً لك..

وتتوقف مجموعة أخرى حول الحشد..

– ماذا فى الأمر..

لا ندرى.. يريدون عبودة.. وهو يمتنع..

لست لصا..

ويتدخل عم ربيع..

– اذهب يا ابنى مادمت لم تفعل شيئا..

يتبعه الأسطى فهيم الترزى..

- انصت لحديث عمك ربيع..

وتجرأ الأسطى قاسم وتقدم خطوة إلى داخل الحلقة وهو يرعش المنشة فى يده.. وصاح به بصوت طمع منه أن يكون جهوريا..

- ذلك ليس من الأصول.. إننا لا نعرف للعمل سبيلا فى هذه الضوضاء..

فالتفت إليه مرة أخرى وقد احتقن وجهه..

- قلت لن أذهب معه إلا..

ولم يسمع الأسطى قاسم بقية كلماته.. حيث انكمش فى نفسه.. واضطربت نبضات قلبه.. وردد فى صمت.

- يا إلهى.. لقد أجاب على أنا بالذات.. سيعود ليدق عنقى.

وقرر أن يصلح من جريمته.. وتراجع خطوتين.. وبصعوبة بالغة استطاع أن يصل إلى ما يريد..

- اترك يده يا شاويش.. عبودة رجل ولن يهرب منك..

فرمقه الشرطى بنظرة خاطفة ولم يعره اهتماما..

وفى تلك اللحظة مد عبودة يده فى جيبه وأخرج نصف موسى باليا.. وبسرعة خاطفة أخذ يشرط وجهه فى كل اتجاه.. ثم ألقاه بعيدا وسط الزحام.. وبدأ فى الصراخ والعويل.. مرددا..

- ضربنى بالموس.. ضربنى..

وتحسس الدماء بيده وهو يزيد من صراخه..

- شوهنى.. ضربنى الشرطى.. ضربنى بالموس..

وقف الشرطى مشدوها أمامه من المفاجأة.. وهو يتلفت حولـــه ليتأكد مما إذا كان غيره يرى ما يراه أم لا...

وأفاق بعد برهة.. ليجد يده تقبض على الهواء..

أين عبودة.. عبودة ابتلعته الأرض..

كان مدحت فى هذه الأثناء قد انتهى من ضم دفـــاتره داخــل درج مكتبة.. ووقف برهة ينظم من هندامه.. وهو عادة لا يتدخل فـى مثل تلك الأمور.. ويعرف كغيره مسبقا أن عبودة سيذهب إلى القســم آجلا أو عاجلا.. وسيعود بعد أيام مصحوبا بضجيجه المعتاد..

واتجه خارج المحل.. ولم يفته أن يختلس نظرة سريعة إلى شـرفة عبير.. ورد طرفه سريعا بعدما لاحظ وجود والدتها بالقرب منها..

واستقبله عم ربيع وهو يبتسم فى تعجب.. وإشفاق..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. هذا الشيطان لن يهدأ أبدا..

ثم انتبه لخروج مدحت .. فأردف:

- إلى أين يا أستاذ مدحت..؟

- عندى موعد هام.. يجب أن ألحق به..

فرفع الرجل عينيه إلى حيث الشرفة.. ثم هز رأسه مطمئنا وكأنــة يتأكد من وجودها داخل المنزل.. أو يتأكد من أنهما لم يخلا بالاتفاق..

كانت الشمس قد بدأت تلملم ســـواعدها الذهبيـــة.. وملامــح الغروب تزحف على قرصها.. وهو يخطو بثبات كأنة لا يرى شـــيئا

سوى الهدف الذى يجول فى رأسه..

اليوم لديه مهمة أصعب من ذلك بكثير.. الشتاء اقترب موعده. وملابسه لو ارتداها بأجمعها مرة واحدة.. لن تمنحه القليل من الدفء.. خاصة وهو يقع تحت سيطرة رطوبة الحجرة الضيقة.. التى يقطن فيها فوق سطح الأسطى محمد الجزمجى.. أو سطح زوجته على الأصح..

وعليه اليوم بعد غيبة دامت أكثر من ثلاثة أشهر أن يلجأ إلى والده فى منزل زوجته.. أو إلى والدته فى منزل زوجها.. أو يذهب لكليهما.

ووقف برهة عند أول الحارة عند الطريق الرئيسى.. يحدد فيه بمن يبدأ.. فالأب يعيش مع زوجته فى منزل بالعباسية.. ووالدته تقطن مع زوجها فى منزل بحى الظاهر..

وانتهى إلى أن يبدأ بوالده.. وتحسس فى جيبه بعض القروش وهو متجه إلى موقف الأتوبيسات العامة..

ولم يطل انتظاره حيث توخى لنفسه مقعدا بجوار النافذة.. يطل منها على الطريق.. يقطع بها مسافة الرحلة..

المارة كل إلى حاله.. والمبانى الجديدة تنتصب فى عنفوان بين العتيقة والجديدة.. ونسمة الغروب تداعب أغصان الأشجار المتناثرة على مسافات متباعدة.. السيارات فى تتابع كأنها سلسلة لا نهاية لها..

تجمع كبير أمام إحدى دور العرض الشعبية.. حياة دائبة.. وأصوات متداخلة.. وطرق متعددة..

كأنه يطل بعينين من زجاج.. لا انعكاس عليها.. ولا حيـــاة.. فلم يعد يرى أو يسمع شيئا.. سوى طبول الماضى تدق فـــى رأســه فينبعث منها صدى ذكرياته مع الأحداث..

يالها من حياة.. ردد فى صمت..

كل شيء انقلب على عقبيه فجأة.. فهو يذكر جيدا أحداث تلــك الليلة.. والليالى التى سبقتها.. ومهدت إليها..

لا زالت كلمات أقرانه فى أذنيه..

- لا أحد مثلك يا مدحت.. فأنت وحيد والديك.. ولا عليــك إلا أن تتدلل فقط..

وجذب طرف فمه فى ابتسامة ساخرة.. وهمس فى أعماقــه .. كانوا لا يدركون..

وهو أيضا لم يستطع أن يبوح لرفقائه بما يحدث بين جـــدران منزلهم فى حى الحلمية قبل أن يتركوه..

خجلا كان أو تحفظا.. فى الحالتين كان يأبى أن يعلـــن عــن أسرار عائلته الصغيرة.. وبدأ يسترجع فى مخيلتـــه.. كيــف كــانت لياليهم لا تخلو من المشاحنات وتراشق الإهانات بين والدته وأبيه..

كل منهما له حياته الخاصة.. وهو ابن العشرين حائر بينهما.

الأم تمضى لياليها تنعى حظها العاثر الذى ألقى بذلك الرجـــل شريكا لحياتها.. وكيف اختل عقلها وقبلته زوجا..

والأب يهدد ويتوعد كل يوم..

- ستندمين يوما يا امرأة..

فتتلوى أمامه بحركات ساخرة.. أو ترمقه بنظرة مستحقرة.. وكثيرا ما كانت تعقبها بوابل من المهاترات..

- لقد عشت عيشة الندم من أول يوم ارتبطت بك..

أو تندب قدرها.. وهو جالس ساكنا أمامها..

- يا ليتنى ما أطعت أحدا.. يا ليتنى قضيت على عمرى.

ويدرك الزوج أن الشريط المسجل الذى اعتادت على تلاوته فى كل مشاحنة قد بدأ..

فيتململ قليلا.. ثم ينصرف مستكينا ..

كان الأوتوبيس قد وصل إلى ميدان العباسية.. وتدارك مدحت سريعا.. وأخذ يشق طريقه بين التزاحم الذى طرأ حتى تركها إلى الطريق العام..

وما كاد يقطعه إلى الاتجاه الآخر حتى دوى بجانبه صوت صاخب إثر توقف إحدى السيارات المارة فجأة.. كأنها صرخة من الأحشاء أعقبتها بعض الكلمات..

- انتبه أيها الأحمق.. ألن تكفوا ما تتعاطوه..

وواصل هو خطواته كأن الأمر لا يعنيه.. وأنه غير المقصود.. بل ارتسمت على شفتيه صورة باهتة اتخذت شكل الابتسامة..

عندئذ اقتحمت مخيلته بعض التراشقات التى جمعت بين والديه فى الماضى.. ويتناوب الاثنان فى قولهما..

.. لولا وجود مدحت.. لكان وكان..

.. مدحت هو الرباط الوحيد الذى بينى وبينك..

.. مسكين مدحت هكذا شاء قدره أن تكون والده..

.. سيدرك مدحت يوما كيف كانت أمه..

سأتحمل فى سبيل مدحت.. وأنا أيضا سأتحمل فى سبيل مدحت..

وكان التحمل الذى يعنيانه..

وكأن تحملهما قد تحدد بأول فرصه تطرق بابهما..

لم يكن يوما كغيره بالنسبة لحياتهما.. الهدوء يســـود المـــنزل وكل منهما يجلس فى غرفة منفردة..

عاد من مدرسته بعد اتفاق مع بعض رفاقـــه لقضــــاء الوقـــت عشية ذلك اليوم فى نزهة جماعية..

ويذكر كيف تردد برهة قبيل دخوله إلـــى مســـكنه.. يســـترق السمع عن طبيعة المشاجرة ولكنه لم يسمع.. لا صياح ولا لوم..

ودفع بالمفتاح فى الباب بجرأة ظنا منه أن أباه لم يعـــد.. وأن أمه فى مكان ما..

وفوجئ بالأمر.. يالها من أعجوبة..

الأب فى غرفته يسترخى على مقعد بجوار الفـــراش.. ينفـــث دخان سجائره بتركيز شديد وتوال ملحوظ..

والأم بمفردها تجلس فى الغرفة المخصصة لاستقبال الضيـــوف.. وقد تزينت بكامل زينتها.. قد تكون تلك هى الفترة التى أعقبت مشــــاحنة

كبيرة.. قد تكون لحظات صمت تضمر التأهب والتحفز..

قد يكون خصاما.. ولو أنه غير معتاد.. قد يكون..

ولكنه لم يحتر كثيرا.. فكل شىء كان أسرع مما يتوقع.. حيث ترامى إلى مسامعه صوت والده مناديا فى صوت هادئ ونبرة متزنة..

- فتحية.. يا فتحية..

ووقف يومها مشدوها لتصرف والدته.. التى استجابت للنداء لا تذمر أو ترديد بعض العبارات التى اعتادت أن تواليه بها فى مثل تلك الظروف..

واتجهت بخطواتها فى ثبات إلى داخل الغرفة التى يجلس فيها الأب واتخذت لنفسها مكانا مقابلا له.. وأجابت بصوت أكثر اتزانا.. وإن كان أقرب للإصرار والتحدى..

- هل ناديت..؟

فاقترب منهما بخطوات حثيثة.. بالقدر الذى يسمح برؤيتهما من خارج الغرفة..

ودس الأب بقايا سيجارته فى حاملة الأعقاب بعد أن أشعل منها أخرى.. وهمس..

- أعتقد يا فتحية أننا وصلنا إلى الحد الذى.. فقاطعته..

- ذلك أمر واضح..

فنهض من مكانه محاولا غلق باب الغرفة.. ولكنه لم يفلح.. ولم يستطع مدحت فى ذلك اليوم أن يحدد ذاك الفشل بأنه ارتباك.. أو

تعمد.. أم ماذا..

وبات لا يرى شيئا.. سوى بصيص خافت من ضوء الظهيرة.. وأصوات متسللة من الانفلاجة البسيطة..

- دعينى أولا أحدثك.. ولديك بعد ذلك متسع من الوقت..

- إنى مصغية.. ماذا تريد..؟

- كنت أقول بأن علاقتنا فى حكم القطيعة.. وذلك مالا ترضاه نفس أى إنسان.. ومرت لحظات صمت أردف بعدها..

- ولهذا أعتقد أن من صالحنا أن نحدد تلك العلاقة بوضوح.. وأنا أرى.. أن..

- لا داعى للاسترسال.. قل ما عندك وكفى..

- أنت طالق..

وتحجرت أوصاله فى تلك الآونة.. ما هذا الذى يتم بينهما.. لم يشعر بشىء فى تلك اللحظة.. لم يحزن.. لم ينتفض صدره.. لم تذرف عيناه..

كانت المفاجأة أكبر من كل شىء.. أكبر من حزنه.. وصراخه.. وجزعه.. تصلب فى مكانه دون حراك..

أحس برأسه لا تحمل إلا الفراغ.. شفتاه تباعدتا قليلا.. وعيناه ثبتتا على الباب.. فبدا كأنه صورة فوتوغرافية بالحجم الطبيعى.. لم يذكر يومها كم مضى على حاله.. ساعة.. ساعتان.. أكثر..

مناقشه هادئة جدا.. أصوات خفيضة متزنة..

وماذا عن مدحت..

ولم يذكر من منهما بدأ.. وماذا عن مدحت..

- هو لك إذا أردت يا فتحية..

- بل هو لك إذا أردت أنت..

.. وكان لأبيه..

أقام بضعة أشهر مع خالته.. ثم انتقل إلى العباسية..

كانت الشمس قد اختفت من الأفق تقريبا.. عندما وصل مدحت إلى أول شارع الأزهار.. فأرسل بصره بنظـــرة مســتقيمة.. كأنـــه يستكشف آخر بناء فيه وهو السكن المتجه إليه.. ورد طرفه مصحوبا بسلسلة أخرى من ذكريات ماضيه.. كانت سنى عمره فى ذلك الوقت كافيه لأن يحدد كل شيء على حقيقته..

زوجه أب.. وابنة لها تقاربه فى السن.. وخادمة تكبره ببضعة سنوات.. وصورة مخالفة تماما لأبيه الذى يعرفه..

الذى بات مرحا.. هادئا.. متزنـــا.. لا ســهر أو ســـهرات.. المنزل كله تحدده عقارب الساعة المرفوعة.. على الجدار..

- لا.. ليس أباه هذا..

ولكنه هو..

ليس أباه مع والدته.. ولكنه هو مع زوجته الجديدة..

وبدأ يعايش أمور لم يشفع تأدبه، وطاعته لها..

لا طعام بعد الساعة كذا.. لا صداقات أو زمالـــة.. وعيـــون

متربصة كلما مرت الخادمة أو صديقة لابنتها من أمامه..

همسات خافتة بين الآونة والأخرى..

- صفاء أصبحت شابة يا حمدى..

ويمضى يوما أو بضعة أيام على الأكثر.. وتصل إلى مسامعه

- ليس بصغير.. هو شاب.. وأنت تعلم خطورة هذا السن..

- كل الحقوق لك يا مدحت.. ولكن عليك أن تكون تحت المراقبة دائما..

وكأنه سجين تحت الاختبار..

ولم يجد بدا من أن يستجمع شجاعته يوما ويقترب من أبيه خلسة هامسا..

- هل تسمح يا والدى بالإقامة مع والدتى بعض الوقت..

وأدرك مدحت فى هذه اللحظة كم يعانى والده من بقائه.. وكأنه حمل ثقيل رفع فجأة من فوق كاهله.. واعتدل مجيبا..

- لك ما تريد يا ولدى الحبيب..

ما أجملها كلمات.. ولدى الحبيب.. لك ما تريد.. لك كل الحقوق.. ولا تغب عنا كثيرا.. إذا احتجت شيئا فلا تتوانى عن المجيء..

كلمات استطابها فى أذنه فى حينها.. وأدرك معانيها بعد ذلك..

وقف برهة عند البناء الكبير.. كأنه يستعيد واقعه.. ورفع قدمه اليمنى وحكها فى ظهر رجله اليسرى.. وأعاد الكرة مبدلا قدمه..

ثم انحنى يربت على سرواله من أسفل يزيل الأتربة من أثر

مسح حذائه عليه..

واعتدل فى وقفته يهندم قميصه الذى التصق بجسده دون حائل.. وبدأ يصعد الدرج واحدة تلو الأخرى.. وبإصبع مرتجفة ضغط على دائرة صغيرة بيضاء أصدرت من الداخل لحنا رقيقا.. وعيناه تضمان لوحة معدنية صفراء مرفوعة على الباب من الخارج كأنه يتأكد من أمرها.. وكتب عليها.. حمدى سليمان مهندس معمارى.. ثم انتبه على انفلاج الباب أمامه وأطلت رأس الخادمة التى سرعان ما أفسحت الطريق أمامه قائلة..

– أستاذ مدحت تفضل..

وقف هو لحظة يضغط على قدميه تارة ويزحزحها أخرى.. وتساءل فى ارتباك واضح..

– والدى موجود..

وارتفع صوتها بعض الشىء ..

– أجل تفضل.. هو بالداخل..

وما كاد يخطو خطواته الأولى حتى أعادها كما كانت.. عندما لاحظ ظهور والده من خلف الخادمة التى انتحت جانبا..

شىء ما جعله يتراجع دون إرادة.. أحسه متصلا بأعماق أبيه هو الآخر..

لم يعد مرتبكا.. ولا مترددا.. ولم يكن هناك ما يدعو للخجل..

ولكنه إحساس غريب جعله يتراجع مع تراجع ابتسامة أبيه

التى توارت فور رؤياه أمامه..

وكأنه بات عسيرا على كليهما.. أن يعيد ابتسامته..

أو يبدأ هو فى خطواته

لم يستغرقا أكثر من لحظات خاطفة.. ولكنها شملت كـــل مـــا يجول فى أعماقهما من مشاعر وأحاسيس..

نجح الأب فى ابتسامه أكثر اتساعا وردد..

- مدحت.. مرحبا بك.. تفضل يا ولدى الحبيب..

ودخل.. وعند أقرب مقعد جلس.. فى حين تقـــدم والـــده تجـــاه الأريكة المواجهة له وهو يعقد حزام الروب وجلس فى تؤدة.. ثم تلفـت حوله مناديا بصوت هادئ كأنه يخشى من انهيار الجدار الذى خلفه..

- يا هانم.. يا هانم..

وظهرت الخادمة من جديد

- أعدى فنجانا من القهوة سريعا..

ودق رنين التليفون فتناول سماعته.. واسترسل فى حديث ما.

وكأن الفرصة قد لاحت لمدحت وتلفت يتطلـــع بعينيـــه.. ولا يدرى كيف اقتحمت العبارة القديمة مخيلته..

.. لك كل الحقوق يا ولدى الحبيب..

ثم أخذ يتفحصه كأنه شخص غريب.. إنه هو بـــلا شـــك.. لا شىء جديد سوى هذا اللون الوردى الذى بات يفضله لملابسه..

انخفاض صوته ليس تغيرا على كل حال.. قد تكون أسـاريـر الكآبة أثر مرض لازمه بعض الوقت.. قد يكون انكساره هذا نتيجة إرهاق فى العمل.. قد تكون كثرة التفاتاته تعبيرا عن توتر عصبى لبعض الوقت.. قد يكون..

ولكنه انتبه على صوت من الداخل.. كان صوتها يناديه.. فهو يذكره جيدا..

– حمدى .. يا حمدى..

وهاله فزع أبيه منتفضا.. مستأذنا محدثه للحظات.. واتجه إلى الغرفة المجاورة.. مضى بها بضع دقائق.. لم يتبين منها سوى همسات مبهمة غير مفهومة.. ورمقه وهو يعود أدراجه مستكملا حديثه التليفونى.. قد يكون ماذا إذن.. ولكنه هو بلا شك.

وأسقط عينيه بعيدا عنه عندما التفت أبوه ولم تكن هناك فرصة لاختلاس نظرة أخرى.. حيث انتهى من مكالمته.. وتوجه إليه قائلا:

– اعذرنى يا ولدى.. كانت مكالمة هامة.

فابتسم له ابتسامة كانت أسرع من تفكيره.. دون أن يتفوه بكلمة.. فاستطرد والدة:

– كيف حالك يا مدحت.. ألم يصبك الدور ما زال فى القوى العاملة.

– ليس بعد يا والدى.. وفى الحقيقة.

ولكنه أمسك عن الحديث.. عندما تقدمت الخادمة منه ووضعت أمامه فنجان القهوة.. وتذكر قول زوجة أبيه عندما التفت للطاولة الصفراء التى وضعت عليها القهوة..

الضيف المهذب يجب ألا تستغرق جلسته للقهوة أكثر من عشر دقائق.. أو نصف ساعة على الأكثر.

فرفع عينه إلى ساعة الحائط وهمس فى صمت..

إذن لا يزال أمامى سبع دقائق..

وقطع أبوه عليه حديثه الصامت مستفسرا..

- هيه.. ماذا كنت تقول يا مدحت..

- كنت أقول.. فى الحقيقة يا أبى الشتاء.. أقصد أننى فى حاجه لبعض المال.. حتى أتمكن من تسديد إيجار الغرفة.. وشراء سترة شتوية.. و..

وماذا..

عليك بالصمت الآن.. قلت ما عندك وهذا يكفى..

وانتظر فى ترقب.. وطال انتظاره لدقيقتين غاب فيهما والده مع نظرة تأمل للأرض..

وتململ قليلا على الأريكة كأن شيئا ما قد وخزه.. ثم قال بصوت خفيض...

- ألم ترى والدتك..

أشار بالنفى برأسه.

فلاحقه قائلا:

– فى الحقيقة يا ولدى.. أنت أعلم بالظروف الآن.. ولكن ..ثم ازدرد ريقه وأردف..

– ولكنى كنت أظن أنك تؤدى عملا مؤقتا..

فأومأ برأسه موافقا وردد:

– أجل.. فأنا أزاول عملا مؤقتا.. ولكن..

فقاطعه..

– على أية حال.. أعدك فى المرة القادمة أن أوفر لك بعض ما تريد..

ثم نهض من مكانه كأنه يبلغه بانتهاء المقابلة.. أو هذا ما يريده فعلا.. فوقف على أثره مستديرا إلى الباب الخارجى.. وقلبه ينتفض بقوة كأنه وصل لتوه من رحلة طويلة قطعها لاهثا على قدميه.. وما كاد يصل إلى نهاية الردهة.. حتى استوقفه بقوله:

– انتظر يا مدحت .. انتظر يا ولدى الحبيب..

وغاب دقائق عن نظره... ارتفع فيها الهمس من الداخل بعض الشىء.. ولكنه أيضا غير واضح.. ثم عاد وهو ممسك بورقة نقدية بيده وناوله إياها قائلا..

– إليك بهذه الجنيهات..

ثم ابتسم ابتسامة بلهاء وأردف:

– للمواصلات فقط..

ولكم تمنى مدحت عندئذ.. أن يرفضها.. يمزقها تحت قدميــه.. أن يصرخ فى وجهه.. أن يحطم كل ما حوله..

أن تبتلعه الأرض وأن..

ولكنه تناولها واحتفظ بها بين أنامله منصرفــا فــى انكســار مقهور..

كل الحقوق لك يا مدحت..

رددها وهو يهبط درجات السلم.. وعيناه تتحديان كــل قطــرة دخيلة بين جفنيه..

إلى أين ...

إلى منزل فتحى دياب .. زوج أمه..

الليل سيطر تماما على الوجود.. ولسعات الخريف بدأت تغـزو جسده النحيف.. وهو يخطو على الطريق حاملا بين ضلوعه روحــا أنهكتها الأحداث من حوله.. وفى رأسه دوامات متداخلــة مــا بيــن ذكرياته ومواقفه.

.. ماذا يمكن أن يقدم دياب.. وماذا يمكن أن تقدمه أمى إلى..

الابتسامة المرتجفة.. والهمسات الخفية المضطربة.. وقد يعقب تلك الزيارة مشاحنات لا طاقة لأمه بها.

لقد توارت الحقيقة عن عينيه تماما.. لم يعد يدرك من منـــهما كان سببا فى ذلك..

أبوه يراه تعيسا بالرغم من كل المظاهر التى حوله.. كفاه سلبا

وامتهانا لوجوده.

يرى فى ابتسامته إذلالا... وفى التفاتاته جبنا.. وفى ضحكه عبوسا.. وأمه التى باتت تتحمل ما تتذمر منه فتاة صغيرة؛ لازالت فى بداية حياتها.. تتحمل الكثير من أجل هذا الرجل الجديد.. الذى يراه مسيطرا متجبرا.. لصورة أبيه معها..

يا إلهى.. أى شيطان هذا الذى يحرك تلك النفوس كالدمى..

أب يثور ويعربد.. يحطم ويسخر.. لا يرحم المشيب فى رأسه.. ولا يأباه لمجتمع حوله.. من أجل أن يتخلص من واقعه.

ويتقدم طواعية.. مسلوبا.. يضع بين كفى امرأة أخرى مقاليد أموره.. وأمور من يتبعه فى مذلة.. هادئا فى انكسار..

بات لا يفكر فى شىء.. حتى فى نفسه.. لأنه لم يعد يملكها.. ولكنه لا يزال يردد.. يا ولدى.

وأم.. ثارت ولعنت.. جعلت من أنفاسها تمردا ومن نبضاتها تذمرا.. ومن أحاديثها تسلطا.

من أجل حياة غير حياتها... ورجل غير رجلها

تسعى إلى ما كانت تأنفه.. وترضى بأكبر مما كانت ترتضيه فصمتت عن خوف.. وهدأت فى ضجر.. واقتربت والنفور فى حلقها.

ولكنها أيضا لازالت تردد.. يا ولدى..

إلى أين يا مدحت..

الحنان لا تلده الوصايا.. والانتماء لا تصله المعاشرة.. والحب

لا يمليه واقع.. وملء البطون ليس مرآة للرعاية..

الحنان شيء آخر.. يهبه الله مع روحنا.. يكلل به مشاعرنا الإنسانية.. والانتماء رابطة لا سلطان عليها.. ولا للغربة والاغتراب حق النيل منها.. وكم من بطون جائعة أشبعتها أحاسيس عطف صادقة.

وأحس فى تلك الآونة بأن كل نبضة فى كيانه ترفض أن يعيد الكرة مع أمه.. لا يريد أن يرى الخوف فى عينها.. لا يريد أن يمزق أذنه بتلك الهمسات التى اعتاد عليها كلما اتجه إلى أحدهما.. لا يريد شيئا..

انتبه إلى الوريقات التى بيده ليجدها باتت قطعا صغيرة ممزقة غير صالحة للاستعمال.

فأطلقها من بين يديه بعضها يهوى على الأرض وقطع أخرى منها حملتها نسمة الخريف كأنه بذلك اشترى بها رضى أعماقه..

واتجه مباشرة إلى موقف الأتوبيس الذى سيقله إلى حيث جماعته الذين اتسعت صدورهم لكيانه..

وأحس بالطمأنينة تزحف إلى صدره بمجرد أن وصل إلى أول الحارة الضيقة.. وتمهل فى خطواته كأنه يستمتع بنباح الكلاب الضالة من حوله.. ويستنشق نسمات رائحة مخلفات الأطعمة الملقاة أمام الأبواب الخارجية للمنازل فيستشعرها عطر نرجس هادئ...

لم يكن فى حاجة لأن ينظف حذائه.. أو يهندم ملابسه.. أو يشد من قامته..

كان طبيعيا.. لأنه يدخل إلى داره.. ويسير تحت سمائه.. وبين

أركان منازله.. وسيلتقى بأهله...

ومد نظرة إلى نهاية الطريق.. ليجد مصباح حانوت عم ربيـــع مضيئا كعادته فى كل مساء.

تجلس تحت دائرة الضوء مجموعة أشباح.. أدركـــهم دون أن يقترب منهم وأهم أقطاب تلك المجموعة الأسطى قاســـم.. والمعلـــم عباس.. والأسطى فهيم.. والباقى لابد أنه يعرفهم..

ولكنه آثر أن يصعد إلى حجرته ليستريح.. وسيجد غدا العـــذر المناسب ليتليه أمام عم ربيع.

ولم يتمهل واندلف داخل البوابة.. وبدأ يصعد درجـــات الســـلم فى حذر حتى لا يقلق غيره..

ولكنه ما لبث أن توقف على صراخ منبعث من شقة الأســـطى محمد.. فارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه.. وتحرك من جديـــــد صاعدا دون حذر.

فلقد اعتاد ذلك دائما.. بل قد يحدث أكثر منه بعد منتصف الليـــل كعادتهما.. وصدى خطواته على الدرج لا يضيف للضوضاء شيئا..

واخترقت أذنه أسوأ عبارات السباب المتبادل بينهما وهو فـــى طريقه للطابق الأخير..

- يا ملعونة.. يا عاهرة .. سيأتى يوم وأقتلك..

لقد حذرتك مائة مرة بألا تطيلى الوقوف عند عباس...

فيجلجل صوتها برنة ساخرة..

– يا لك من شهم مغوار.. ما هذه الرجولة التى هبطت عليــك من السماء.. أنسيت أفضاله عليك يا شحاذ.

فيعربد بدوره ثائرا معتمدا على صوته.

-سترين يا فاجرة.. سأهشم رأسك يوما وسألحقك به..

وفى النهاية وصل إلى سطح المنزل وهو يلهث.

ودخل حجرته الصغيرة.. وألقى بنفسه علــى فراشــه دون أن يبدل ملابسه.. وصدى المشاحنة.. يصل إليه دون وضوح...

فاستعان بوسادته وضغطها فوق أذنه فــى محاولــة للرقــاد.. ولكنه لم يفعل.. أغلق النافذة.. وباء بالفشل.. فكأن أصواتهما تــذوب مع الهواء خصيصا فتتسرب إليه من حيث لا يدرى.

ولم يجد بدا غير الانتظار إلى أن تنتهى تلك المعركة..

ولم يمكث طويلا حتى وصلته جلجلة ضحكة المـــرأة.. دوت فى الأركان.

واتبعتها بأخرى .. وثالثة .. أدرك بعدها أن الأسطى محمد قد تجاوز ثورته .. وهدأت نخوته...

وأعاد الوسادة إلى مكانها واستلقى مرة أخرى.. فــى انتظــار صباح جديد.. يبدأ به رحلته مع الأيام...





كانت بصمات الفجر قد بدأت تفرض وجودها علـــى وشـــاح الليل...

وفتحت عبير عينيها وهى لا تدرى إن كانت تستعد للرقـــاد أم أنها استيقظت لتوها.. وأحست بلسعة برد متسللة.. صاحبـــها ضـــوء خافت اختلط مع عناد ضلفة النافذة غير المحكمة فراحت ترتطم تـــارة بالجدار وأخرى بالضلفة الثانية..

تلفتت فى تثاقل ثم ركزت بصرها تجاه النافذة تستطلع شـــيئا من بصيص الضوء فأتاها معتزا من خلال بعض السحب الملبدة فـــى بطن السماء...

فالتحفت بغطاء السرير.. ونهضت فى قفـــزات إلـــى النـــافذة وأحكمت إغلاقها.. ثم عادت واندست تحت الغطاء مـــن جديـــد فـــى محاولة لمتابعة النوم.. وهى تثنى ركبتيها وتقوس رقبتها لتتخلص من القشعريرة التى زحفت إلى جسدها أثناء اقترابها من النافذة.. ولكنـــها اكتشفت أنها أتت بما تؤتيه النعامة عند اضطرابها...

حيث وجدت نفسها منتبهة لكل شىء حولها..

صوت بائع الحليب الذى يقطع الحارة بدراجته وهـــو ينـــادى على بضاعته بنبرات منغمة وإيقاع رتيب ..

وهمهمة الرجال وهم عائدون من صلاة الفجر..



وأبواب المحلات الحديدية وهى تزأر كلما دفعت إلى أعلـــى، فتبدأ بالمعلم عباس الجزار.. وتنتهى بالأسطى قاسم الحلاق..

وأخيرا فقدت الأمل تماما فى تحقيق رغبتها بعد ما ترامى إلـى مسامعها صوت وقع أقدام فى الردهة الخارجية..

لابد أنها لشقيق من أشقائها يتأهب للذهاب إلى المدرسة..

لا داعى للمحاولة إذن...

وفتحت عينيها من جديد.. وأزاحت الغطاء عنها.. ونـــهضت إلى خارج غرفتها لتتابع أمورها المعتادة فى كل صباح.. من إعــداد للفطور.. وتولى ملابس أشقائها الواحد تلو الآخر.. باستثناء أصغرهم الذى لا يترك غرفته إلا مع والدته.

وما هى إلا ساعة.. حتى دبت الحياة كاملـــة فـــى الحـــارة.. وانصرف شقيقيها إلى مدرستيهما.. وبدأت تعد نفسها هـــى الأخـــرى للخروج كعادتها بحثا عن تحقيق أمنيتها فى العمل.. وتأهبت بعــد أن ارتدت فستانها إياه.. وجلست تنتظر حتى يستيقظ باقى من فى المنزل لتتناول فطورها معهم.. ولم يفتها أن تترقب وصول مدحت إلى دكان عم ربيع.. متى اطمأنت إلى ذلك ورأته.. وهو يشمر عن ســـاعده.. متعبا فى إباء متحديا هجمات الريح القارص فـــى ثبـــات.. إلـــى أن استقر داخله.

وأحست بالدفء فى كيانها إثر نظـــرة خاطفـــة التقـــت فيـــها عيونهما.

واسترخت على الأريكة تعبث بها الآمال.. وتعبث هى بخواطرها وهى تخطط لمستقبلها.

وما كادت ترحل بعيدا مع أفكارها حتى انتفضت فزعة لصيحات شقيقها الأصغر.. وهرولت إلى غرفة والدتها.. فوجدته منكبا على صدرها فى صرخات متتالية.

– أمى .. أمى..

واقتربت مسرعة وكل شريان فى جسدها ينتفض.

وهتفت وهى تنحى الصغير بعيدا بعض الشىء.

– أمى.. ماذا بك.. أمى..

وكانت الأخرى فى غيبوبة تامة.. وقد تصلبت أطرافها.. وانتفخت عروق رقبتها.. وعيناها لا توحيان بالرؤية..

وقد تراخى طرف فمها الأيسر طافحا رذاذا من لعابها.. وصدرها يعلو وينخفض فى حشرجة مسموعة.

ومن بين طرفى فمها.. همست الأم بصعوبة بالغة..

– أختنق..

وأشارت بتثاقل كبير إلى لا شىء.. أسرعت على أثرها عبير وتناولت صندوقا صغيرا من الكرتون.. أخذت منه زجاجة بطرف مدبب استقرت وحدها بداخل الصندوق.. وأسرعت بشطفها من أعلى.. ووضعت الطرف الآخر بين أنف الأم وفمها.. لحظات قليلة.. بدأت الأم بعدها تسترخى شيئا فشيئا..

وسكن كل شيء في الغرفة فجأة.. الصغير كف عن الصيـــاح وعبير وقفت مشدوهة في انتظار النتيجة.. بينما بدأت الوالدة تحـــرك رأسها ببطيء.. واتكأت على المسند الخلفي للفراش بمساعدة عبـــير وأخيها.. ونظرت إليها بنظرة زائغة كأنها تحدث نفسها..

- كدت أختنق.. الحمد لله أنك وجدت زجاجة الدواء...

- الحمد لله يا أمي.. الحمد لله .. و..

ولكنها توقفت عندما سقطت عيناها على الصندوق الفـــارغ.. ورددت في صمت..

الدواء.. إنها الزجاجة الأخيرة.. قد تعاودهـــا الأزمـــة مـــرة ثانية.. بعد قليل..

الآن..

قد تحتاجها فورا.. تختنق.. قد..

وكأن خاطراً مزعجا اقتحم تساؤلاتها.. فارتفع صوتها قليـــلا لا.. لا..

ونهضت مسرعة إلى الخارج.. وصوت أمها يتابعها..

- إلى أين يا ابنتي..

فأجابتها دون توقف..

- سأعود فورا.. سأعود يا أمي..

وأسرعت تقفز الدرج في قفزات كـــادت تـــؤدي إلـــى كســـر ضلوعها وانطلقت تجري وسط الحارة.. مما استرعى انتباه الجميـــع..

ترك مدحت ما بيده وأسرع خلفها.. بينما وقف عـــم ربيـــع يرقــب الموقف فى دهشة كبيرة... مرددا فى طيبة..

- اللهم رحمتك..

وألقى الأسطى قاسم بالموسى من يده.. تاركا زبونـــه حـــائرا على مقعده لا يستطيع للحراك سبيلا.

وأطل برأسه يتابع هو الآخر ما يحدث..

وكأن الكون انقلب رأسا على عقب..

وسرى النبأ الغامض بين المحال جميعا..

ولم تشعر عبير بما يدور حولها من استفسارات حتى أنها لم تنتبـه لاستفسار عبودة المشاكس الذى اعترض طريقها مصادفة.. حيث قضـــى ليلته ضيفا فى قسم الحلمية.. وعاد يستعرض وجوده فى الحارة..

- ماذا فى الأمر يا آنسة عبير..

ولكنها واصلت هرولتها دون توقف.. غير ملتفتة إليه..

لا شىء فى مخيلتها سوى صورة أمها وهى فى صراع مــــع الموت..

وعند نهاية الحارة.. توقفت فجأة.. كأنها اصطدمـــت بحقيقــة ما.. أعادتها إلى رشدها.. وانتبهت هامسة فى صمت.

إلى أين يا عبير.. ومن أين النقود..

ولحق بها مدحت.. فاستوقفها قائلا..

- عبير .. ماذا حدث..

والتفتت إليه بعينين تلمعان ببريق دمعة تائهة بين جفنيها..

وبادرته بارتجافة واضحة على شفتيها..

- مدحت.. أمي يا مدحت.. فرغ دواؤها.. وهـــى معرضـــة لأزمة كالتى عاودتها الآن..

فتناول معصمها بثبات وهمس بصوت هادئ...

- اهدأى الآن.. اهدأى قليلا.. وأخبرينى أين كنت ذاهبة.. لقـد أفزعت الحارة بأكملها..

فسحبت يدها ببطىء من كفه.. وتلفتت حولها فى ارتباك.

- لست أدرى.. وجدت نفســـى أهــرول خــارج المــنزل.. المفروض أن..

ثم صمتت برهة كأنها تذكرت شيئا وأردفت..

- يجب أن أحصل على عمل.. أى عمل يا مدحت.. يجـب أن أحصل على دواء أمى.. أنا..

فقاطعها برفق وهو يربت على كتفها قائلا:

- انتظرى لحظة واحدة..

ولم يدع لها فرصة التفكير حتى للانتظار.. أطلق ساقيه عــائدا أدراجه.. وتوقفت تتبعه بعينيها مشدوهة لتصرفه المفاجئ.. لاحظتـــه يغيب داخل حانوت عم ربيع.. ثم ظهر من جديد.. واتجه لاهثا وقـــد انتكش شعره.. وانتثرت بعض قطرات عرق على جبينه.. ومد إليـــها بورقة نقدية فى إصرار..

- إليك بهذا الآن.. ودبرى الدواء سريعا..

وتناولت عبير النقود.. ثم رفعت عينها إليه مستفسرة..

- خمسة جنيهات.. لا أفهم أقصد كيف..

- أعطانى عم ربيع نصف مرتبى الآن..

ومضت لحظات بينهما.. فلم يجد ما يزيده من كلام.. ولم تجد هى ما تقوله فى تلك اللحظات..

تعانقت عيونهما فى أروع حديث للصمت.. ثم زحفت ابتسامة رقيقة على شفتيه وهمس..

- لا تخشى شيئا يا عبير.. ستكون والدتك بصحة جيدة..

ثم تلفت فى ارتباك وأردف..

- الآن هيا أسرعى لشراء الدواء.. سأنصرف حتى لا يغضب عم ربيع..

وتحرك فى الاتجاه الآخر.. ولم يكد يبدأ العودة من جديد حتى توقف فجأة.. واستدار إليها.. ليجدها ساكنة.. وعيناها ترمقانه بنظرة ملؤها الحنان والحيرة.. فازداد ارتباكا بالرغم من محاولته إخفاء ذلك.. وصاح بها سائلا:

- اليوم موعدنا..

فأومأت بالموافقة.. وقد سطعت ابتسامة هادئة على شفتيها.. وكررت إيماءتها مؤكدة.. على حين انطلق مدحت كأنه لا يزال فى ريعان الصبا.. ومضت هى تقطع الطريق الرئيسى للاتجاه الآخر..

ودخلت الصيدلية.. ولكنها لم تجد طلبها.. وقررت أن تسـعى إلـى الصيدلية الأخرى التى تقع بالقرب من الميدان نفسه..

كان فكرها مشغولا.. مضطربا.. تسترجع فى خطواتها كل ما حدث..

كأن ما كان لإنسانة أخرى وليس لها.. كأنها شاهدة عيان على حالة مشابهة لحالتها.

كيف حدث هذا ؟..

إنها المرة الأولى على الإطلاق التى تمد يدها لإنسان..

لم تستطع أن ترفض.. لم تقو على أن تقول لا.. ولكـن.. لا.. لمن.. لمدحت حمدى.

إنه غير كل إنسان.. إنه هى.. بعواطفها.. وأحاسيسها.. إنـه كل كيانها.. وأحست بالرضى لذلك الخاطر..

إنه الوحيد الذى له الحق فى ذلك.. إنه الوحيد الذى لا سـبيل للرفض أو الخجل معه..

فهو يعلم كل شيء.. ولكنه ليس كالأستاذ منصور..

الآخر يراها من خارج نطاقها.. يدرك عنها كل ما يمكـن أن يدركه غيره.. ولكن مدحت.. يعايشها.. يعيش فرحتـها وحزنـها.. يعيش فى قلبها.

فما حدث كان أمرا طبيعيا.. ولو كان مدحت قد..

ولكنها انتبهت لوصولها إلى الصيدليـة.. ودلفـت داخلـها..

واشترت الدواء الذى تريده..

وطوت ما تبقى من نقود فى يدهـا الأخـرى.. وبـدأت فـى عودتها.. وهى تخطط لكل الحلول.. ستحتفظ بالباقى.. وستعيد المبلـغ إليه مرة أخرى عندما يحين موعد قبض معاش أبيها.

ستشترى القلم الذى طلبه أخوها.. ستشترى للصغـير بعـض الحلوى.. ستقول لأمها إنها اقترضت المبلغ من الحاجة سليمة.. ولكن قد تسألها.

ستقول إنها اقترضته من زوجة عم ربيع الأولى.. أو الثانية..

ستعطيها الدواء وتعود للبحث عن العمل.. ستقبل أى عمل.

ليس أمامها سوى خردواتى النجمة.. قد يغضب مدحت.. لأنـه نهاها عن ذلك من قبل.. فالخردواتى غير أمين.. ستحاول إقناعه..

الظروف تضطر الإنسان لأن يفعل أشياء قد يرفضـها وهـو غير محتاج.. أما هى فمحتاجة.. ستأتى بحذاء جديد لشقيقها الآخـر.. النقود لا تكفى الآن.. سترجئ الحذاء إذن.

.. و.. ووصلت إلى أول الطريق الرئيسى.. وهمت أن تقطعـه للاتجاه الآخر.. ولكنها توقفت على صوت يناديها بتكرار..

- عبير .. عبير..

فتلفتت حولها ولكنها لم تجد أحدا معروفا لديها ولـم تسـتطع حينها أن تحدد مصدر الصوت.. فسكتت برهة.. حتى أتاها من جديـد الصوت المنادى.

وسقطت عيناها على سيارة صغيرة تقف بالجانب الآخر.. وقد قبعت بداخلها فتاة لم تتبين منها سوى شعرها الأحمر..

ونظارة سوداء عريضة تخفى عينيها.. وكادت تعرض عنـها.. إلا أنها لاحظتها وهى تلوح لها بيدها.. فتحركت بسرعة إليها بعدمـا ازدادت الضوضاء من خلف السيارة.. تطالبها بـالتحرك.. لإفسـاح الطريق.. فاقتربت من النافذة الأخرى.. على حين مدت الفتاة يدهـا.. ورفعت مقبض باب السيارة وهى تردد..

– اركبى سريعا.. هيا..

واستقلت السيارة.. وهى تدقق النظر فى الفتاة.. التى سـارت بضعة أمتار، ثم انتحت جانبا بالسيارة.. متجاهلة بعـض التعليقـات التى انصبت عليها من سائقى السيارات الأخرى.. ثم التفتـت إليـها ضاحكة..

– عبير.. ألا تذكريننى..

فابتسمت ابتسامة وضحت فيها معالم المجاملة.. وأجابت..

– فى الحقيقة.. أنت لست غريبة عنى..

فرفعت الأخرى النظارة من فوق عينيـها.. وأردفـت وهـى تواصل ضحكها..

– إذن فأنت لا تعرفيننى أيتها الغادرة..

وهنا أطلقت عبير شهقة حبيسة.. وقد امتلأت عيناها بالدهشة.

– مستحيل.. سهير..

فلاحقتها..

- أجل سهير يا ناكرة الأصدقاء..

والتقيا فى عناق.. وقبلات.. واختلطت مساحيق الفتـاة بوجـه عبير.. وسط ضحكاتها التى تبدو بغير سبب واضح.

واستغرقتا فى حديث طويل عن ذكرياتهما فى الكلية..

عن تنقلاتهما ورحلاتهما.. وعلاقات الآخرين..

تحدثتا عن كل شيء..

ولم يتركا حتى بعض التعليقات التى كثيرا ما كـانت تـتردد بينهما..

وسردت الأخرى كل ما تعرفه عن الأخريات.. هذه فشلت فـى حبها وتزوجت بآخر.. وتلك هاجرت مع والدها.. والثالثة مشـتركة معها فى نفس النادى..

والأخرى انتقلت إلى منزلها الجديد بمصر الجديدة.. وغيرها.. ولم تتوقف عن الحديث ولا عن ضحكتها إلا بعد أن أفرغت كل مـا فى جعبتها من معلومات.. وعبير ترمقها فى صمت..

كان يثيرها كل شيء فيـها.. الشـعر الأحمـر.. والمسـاحيق المختلفة.. وبذلتها الرمادية.. وحركتها المثيرة.. فهى تكاد تقفز مع كـل كلمة تقولها.. كأنها تدغدغ الحروف من حلقها..

ثم انتبهت على سؤالها فجأة..

- وأنت.. أين ديارك الآن.. هل تزوجت.. أم انـك تعيشـين

حبا.. ما شكله.. ما اسمه.. هل أنجبت..

ثم رمقتها بنظرة فاحصة.. وأردفت..

- لا.. لا يبدو عليك الإنجاب.. أنت ترفضين أم هو..

أين تعملين.. أخبرينى بكل شىء..

ثم سكتت فجأة..

وارتبكت عبير لهذا الصمت المفاجئ.. فكأنـــها تصـــورت أن الأخرى لن تكف عن الحديث أبدا أو إنها ســـتجيب عـــن تســـاؤلاتها بنفسها.. على حين تراجعت الأخرى برأسها قليـــلا.. وهـــى تضـــم شفتيها بشكل ملحوظ كأنها تحاول أن تسجن الكلمات فى فمها..

ولم تجد عبير بدا من الإجابة فبدأت قائلة:

- أنا أنتظر القوى العاملة.. أعتقد أنك أيضا..

فقاطعتها بضحكة مجلجلة..

- قوى ماذا.. أنا يا حبيبتى لا أنتظر شيئا مطلقـــا.. كـــل مـــا أريده أناله بيدى..

فابتسمت عبير ابتسامة لا معنى لها.. وواصلت الأخرى:

- بالرغم من أن خالى عرض على أن أعمل فى شركته..

ألا أننى فضلت العمل فى شركة مصطفى بك الكيلانـــى.. ألا تعرفينه؟..

فأجابت بسرعة كمن لدغت:

- أنا .. لا..

- إنه أستاذنا فى الجامعة.. ولكنه كان فـــى كليـــة الحقــوق وتركها بعد وفاة أبيه ليستلم الشركة.. تذكرينه..؟

- لا ..

- لقد كان ملازما لى طوال الوقت.. ألم ترينا..

- لا..

- كانت لديه سيارة بيجو حمراء...

فأشارت برأسها ..

- لا

- على كل حال سأعرفك عليه فيما بعد.. والآن أين تقطنيـــن وكيف الاتصال بك...

فازدردت ريقها.. وهى تتلفت حولها.. كأنها تبحث عن مخرج لذلك السؤال، ثم استجمعت شجاعتها وهى تضغط على علبة الـــدواء فى يدها.. وأشارت برأسها إلى الخلف تجاه أول الحارة..

- هنا.. فى هذه المنطقة..

فأدارت الصديقة رأسها للخلف وكررت..

- هنا..

فأومأت برأسها.. وأردفت الأخرى:

- ولكن كيف اتصل بك..؟

ثم دست يدها فى جيب سترتها.. وتنـــاولت بطاقـــة صغـــيرة بيضاء وأعطتها إياها قائلة..

- هذا عنوانى ورقم تليفونى... فى الحقيقة أنا مضطرة للذهاب الآن.. فلدى موعد هام سأخبرك به فيما بعد..

سأنتظر منك مكالمة اليوم أو غدا...

وتعانقتا من جديد.. وهمت عبير بترك السيارة.. إلا أنها استوقفتها مرة أخرى قائلة..

- عبير.. ما رأيك لو عملت فى شركة خالى.. سيعطيك راتبا جيدا.. على الأقل أربعون جنيها فى الشهر...

فسكتت دون أية حركة وهى بقدم تطأ الأرض، وأخرى داخل السيارة.. فلاحقتها سهير:

- هه.. ماذا قلت.. محاسب الشركة طلب انتقاله لفرع الإسكندرية.. وسأطلب من خالى تعيينك فورا.. هه ماذا قلت.. ؟

فأعادت عبير قدمها إلى داخل السيارة.. واعتدلت فى جلستها بجوارها.. وهمهمت قائلة:

- ماذا تقولين.. أهذا حق.. فى استطاعتك أن تجدى لى عملا عند خالك.. هل..

فقاطعتها مرة أخرى بضحكة أكثر ميوعة..

- ما هذا السخف الذى تنطقين به.. طبعا فى استطاعتى.. إذن اتفقنا.. سأنتظر منك اليوم مكالمة فى الخامسة مساء لتخبرينى بالموافقة..

والآن سأنصرف لأنى تأخرت...

ثم نظرت إلى ساعة يدها واستطردت..

- عندى ساعة تأخير.. ولكنه سينتظر..

وتركت عبير السيارة.. وظلت فى مكانها تتابعها وهى تنطلق بسرعة.. حتى توارت عن عينيها.

تلفتت حولها لتتأكد من أنها تعيش واقعا حقيقيا..

المارة.. والسيارات.. الباعة.. كل شىء تسقط عيناها عليه يزيدها اطمئنانا إلى أن ما حدث ليس من أحلام اليقظة..

.. أخيرا سيكون لها ما أرادت.. ستتمكن من تحقيق أمانيها لنفسها وللآخرين..

ودخلت الحارة وابتسامة خفيفة تترقرق على شفتيها.. أحست برغبة شديدة فى أن تدخل كل محل فى طريقها.. تريد أن تداعب صغار الحى.. تجرى وراءهم.. تشاركهم لهوهم.. كانت تبحث بعينيها عن كل من تعرفه.. أو لا تعرفه.. لتخبره بما حدث..

حدث كبير.. سيحول واقعا إلى آخر..

ستهدأ من خلال مشاعر مضطربة.. وستخفف مدامع أسقمتها الليالى.. ستفسح الطريق للآمال..

تريد أن تحتضن عم ربيع.. وتعانق الحاجة.. تريد أن تتوسط دائرة كبيرة.. محيطها الأسطى محمد.. والمعلم عباس.. والأسطى فهيم.. حتى عبودة المشاكس أرادت فى حينها أن تحادثه.. أن تقص عليه كل شىء..

وبدأت خطواتها تتسع.. وباتت أقرب إلى العدو.. كل شىء



انتفض فجأة من فوق كاهلها.. كأنها لم تبك يوما.. ولم تشعر باليـــأس يمزق صدرها.. وكأنها لم تعان أبدا من أعماقها...

ولدت من جديد.. كلمات مقتضبة حولتها من حال إلى حـــال.. سيكون لأمها كل الخير.. ولأشقائها كل الأمان.. سيكون لها ولمدحت كل المستقبل.. و..

وانتبهت على خاطر ملح.. اقتحم رحلتها مع الأمانى..

وطفا على سطح نشوتها.. مدحت حمدى.. ترى ماذا ســـيكون مصيره.. كيف سيتقبل النبأ.. سيسعد قطعا.. سيحملها بيـــن ذراعيـــه فرحا.. سيقبلها..

وتكاسلت فى خطواتها مرة أخرى..

ولكن ألا يراوده إحساس آخر.. قد تزداد حسرته.. ويجتر ألمه فى صمت..

هذا الموقف قد يجعله يستشعر العجز أكثر من ذى قبل.. إنـــه ينتظر دوره فى القوى العاملة بفارغ الصبر.. وكثيرا ما قال..

– سأجعلك فاتنة الحلمية.. بل الدنيا كلها.. سنســـتأجر مســـكنا صغيرا.. أنيقا.. نمضى فيه أحلى ليالى عمرنا...

سأفعل.. وأفعل..

والآن ماذا سيقول..

وداهمتها الحيرة.. وسيطر عليها القلق.. وكانت قد اقـــتربت مـــن منزلها.. واختلست نظرتها المعتادة إلى مدحت.. ولكنـــها ســـرعان مـــا

عاودت الالتفات إليه مرة ثانية.. حيث لم تجد عم ربيع بجانبه كعادته...

كان مدحت بمفرده.. منشغلا ببضعة أوراق أمامه..

وكأنها تملأ عينيها منه.. لتؤنسها حتى يحين موعد لقائهما..

وما كادت تصعد الدرج حتى سقط قلبها هلعا.. وارتجفت أوصالها.. وسكتت مذهولة وعيناها مسلطتان إلى أعلى.. هناك شيء غير عادى.. أصوات متشابكة.. ضوضاء.. رجال.. ونساء.. وكأن المنزل بأكمله قد فتحت أبواب مساكنه..

وهتفت فى أعماقها.. أمى..

وبخطوات مضطربة.. بدأت تصعد الدرج.. ونبضات قلبها تنتفض حتى خيل إليها أنه ينبض بجانبها.. فيحجب عنها سماع أى شيء آخر..

فبدت وكأنها لص يتسلل فى الخفاء، يحتاط لكى لا يراه أحد..

ثم تبدل الخوف إلى دهشة.. والحيرة إلى رغبة شديدة للضحك.. عندما ترامى إلى مسامعها عند نهاية الدرج.. ضحكة مجلجلة.. عرفت مصدرها دون أن تراه.. كانت للأسطى قاسم الحلاق..

ودخلت على أثرها لتجد المكان قد اختنقت بداخله أكداس من اللحم البشرى نساء ورجال.. وأطفال.. كل الغرف ممتلئة.. البعض فى أحاديث هامة.. والآخر منشغل فى سرد النكات والتعبيرات الضاحكة...

ودلفت إلى حجرة والدتها.. لتجدها على فراشها.. وأحست بأن كل ساكنى الحارة فى تلك اللحظة يكتظون داخل الغرفة..

الحاجة سليمة المرأة العجوز قبعت علـــى الأرض مســتعينة بوسادة صغيرة.. وعم ربيع والأسطى قاسم وبينهما المعلــم عبــاس متخذين جانبا على الأريكة.. وجلس الأستاذ منصور على مقعد منفرد تقابله سيدة أخرى تقطن فى المنزل المجـــاور.. وبجانبـــها طفـــلان صغيران يقطعان وقتهما بالتشاجر.. وفى الزاوية الأخـــرى انشـــغل عبودة المشاكس فى حديث مع الأسطى فـــهيم يقــص عليـــه ســـبب استدعاء الشرطة له...

وما كادت أن يراها الجميع حتى تعددت العبارات..

ها قد وصلت زهرة الحلمية.. مرحبا بنوارة النبقة.. إنـــها والله خير فتيات الحى.. ووقفت عبير حائرة والابتســـامة علـــى شـــفتيها تستقبل.. نظرة فاحصة تزفها إليها الحاجة سليمة.. وأخـــرى أكـــثر جرأة من الجارة.. وقد اعتدل الأستاذ منصـــور فـــى جلســـته فـــور وصولها.. وأصابه الارتباك فراح يعبث برابطة العنق التى تأنق بـــها تحت سترته.. ولم يطل الأمر كثيرا.. فقد أشارت لها الأم بأن تجلـــس بجانبها.. فأسرعت وهى تضع الدواء علـــى الطاولـــة الصغـــيرة.. والتفتت الأم إلى عم ربيع كأنها تواصل حديثا قطعته عبير...

– هل أجابك الأسطى قاسم على سؤالك يا عم ربيع..

فالتفت عم ربيع إليها ثم أدار وجهه تجاه الأسطى قاسم...

– أقسم لك يا أم عبير أنه لا يهتم إلا بمقصه أو موساه..

فازدادت ارتعاشة المنشة فى يد قاسم وهو يرفع حاجبيه بشـــىء من التحدى وأدار وجهه للاتجاه الآخر متجاهلا عم ربيـــع.. فتدخـــل

الأستاذ منصور وهو يضغط على نظارته الطبية.. كأنه يريد أن يعلن وجوده أمام من يهم الأمر..

- لم أنتبه لسؤالك يا عم ربيع.. هل لك أن تعيده..

واختلس نظرة سريعة إلى عبير.. التى صدمت بدورها بتربيت خفيفا على فخذيها من الحاجة سليمة.. كما لو كانت تطلب منها أن تصغى..

فلاحقه الأسطى قاسم قائلا فى تحذلق..

- فى الحقيقة يا أستاذ منصور من الصعب على الإنسان أن يتفاهم مع الإنسان غير المثقف.. وضج المكان بالضحكات.. وتميز صوت عبودة عنهم جميعا... ثم أردف..

- يقول أن حساباته منظمة.. ولديه دفتر أستاذ.. وأنت تعلم أن الأخ مدحت يعمل طرفه..

ثم التفت إلى ربيع مواصلا حديثه..

- ويسألنى عن معنى دفتر أستاذ..

وأعاد وجهه تجاه الأستاذ منصور.. وهو يعبث بالمنشة فى تهكم واستعلاء..

- تصور.. يسألنى.. عم ربيع يسألنى أنا..

وارتفع صوته قليلا..

- أنا قاسم فتح الله.. الذى يقطع أغلب الليل فى القراءة والتثقيف..

وترددت الهمسات من حوله..

نريد أن نسمع إجابتك.. إذن قل له حتى تعرفه مكانتك..

لا تدعه يسخر منك مرة ثانية.. افحمه بقولك يا أسطى قاسم.

وتدلل الأسطى قاسم بعض الشيء.. وزمجر كثـيرا.. وانتفخـت أوداجه.. ولكنه سرعان ما انكمش مرة ثانية عندما سقطت عينـاه علـى عبودة المشاكس الذى وقف بدوره يتابع الحديث باهتمام.. ثم بدأ قائلا..

– أكثر من مرة أفهمته.. أن كل خريج من الجامعة يسـلمونه دفترا للدراسة.. واستمر الحال هكذا.. حتى أصبح اسم هـذا الدفـتر دفتر أستاذ..

– أفهمت الآن معنى دفتر أستاذ.. يا.. عم ربيع..

ومرة أخرى ارتفعت الصيحـات.. وجلجلـت الضحكـات.. باستثناء واحد.. واحد فقط هو الذى بدت على وجهه ملامح الغضـب والنفور.. وبدأ يضغط على فكيه بقسوة.. وهو الأسطى محمد عندمـا دخلت زوجته وهى تتلفح بملاءة سوداء وقد أسقط طرفها من علـى كتفيها.. فبدا شعرها المعكوف كأنه يتحدى كل من له ساعد قـوى.. وعيناها الواسعتان تحددهما بعض المساحيق الرخيصة.. حتى خـال لعبير أن ملامح هذه المرأة لا تختلف كثيرا عـن ملامـح سـهير.. وقدمت الزوجة التحية وهى تسير بخطوات كأنها تتلوى من مغـص مفاجئ.. فتململ على مقعده.. ثم تأهب للنهوض وهو يحاول الاحتفاظ باتزانه قائلا..

– هيا بنا نحن يا رجال حتى تتمكن النساء من الحديـث.. و..

فتدخل عباس الذى ظهرت على وجهه علامات الرضى وهو يعبث بطرف شاربه..

- هل أعجبك اللحم الذى أخذتيه بالأمس..

فهمهم الأسطى فهيم..

- لحم القطط..

فرفع المعلم عباس يده مداعبا كأنه يهم بضربه..

على حين هم الأسطى محمد بالنهوض.. وتبعه الآخرون واحد تلو الآخر.. وتلكأ الأستاذ منصور قليلا.. حتى تحين الفرصة التى التقت فيها عينا عبير بعينيه.. فأومأ برأسه محييا فى تأدب وهو يضغط مرة أخرى على نظارته منصرفا.. فاستقبلت الإيماء بابتسامة هادئة واحتفظت بها على شفتيها تودع من خلالها باقى الزائرين..

فهى تعلم ما يجول بخاطره.. بل وتوقعت أن يكون هناك أمر جديد قد طرأ فى تلك الزيارة.. فربما أعادت الحاجة سليمة المحاولة.. وربما أعلنها هو مباشرة..

وفى نهاية الردهة لاحظت وقوف عم ربيع وهو يصافح الآخرين شأنه شأن عائل المنزل.. فسكتت فى مكانها ترقبه بنظرة حانية.. وأحست بالاطمئنان..

ولم يثر ذلك التصرف أحدا.. فالجميع يدرك مكانته لهذا المكان.. وكلهم يعلمون بحقيقة الرابطة التى تربطه بهم.. حيث نصبته الظروف أن يكون فى هذه المكانة..

وتوقعت أن يطلبها لأمر ما.. أن يسألها حاجتها.. أن يعرض عليها المساعدة بطريقته الخاصة.. أو يطلب منها أن تلجأ إليه إذا ما احتاجت.. ولكنه لم يفعل.. بل تصرف كغيره بشكل طبيعي.. وصافحها وهو يطمئنها على والدتها.. منصرفا في هدوء وعيناه تضمانها بحنان صادق.. فتبعته إلى الخارج حتى توارى عن نظرها.. وأكثر من تساؤل يجول بفكرها..

لماذا لم يفعل..

فهو عندما أعطى مدحت الجنيهات الخمسة كان يدرك تماما بأنها لها.. وأنه أكثر يقينا من غيره بحاجتها لذلك السؤال..

فلماذا لم يفعل..

ولم تدرك عبير إنه كاد أن يهم بذلك فعلا.. ولكنه أحجم.. لا بخلا.. ولا تواكلا.. ولكن عن إحساس ينبض بالصدق.. والتزاما بالوفاء.. فهو لا يريدها أن تستشعر قسوة الاحتياج.. حتى ولو كانت تحياه فعلا.. ولا يريدها أن تخضع عن انكسار وقهر.. بل يريدها شامخة قوية.. يكلل الكبرياء خطاها كما أراد لها والدها.

... من أجل هذا لم يفعل...

وانتبهت على صوت أمها تناديها من الداخل.. فأسرعت إليها وأسارير الفرحة واضحة على وجهها.. وبادرتها..

– عندي مفاجأة لك يا أمي.. و..

فلاحقتها مقاطعة..

- اقتربى يا عبير.. حدث أمر أريد أن أخبرك به..

وسرعان ما اقتحمت صورة منصور والحاجة سليمة مخيلتها.. وتأهبت لسماع عرضهما من جديد.. وبدت كأنها تعد فى رأسها الـرد الذى ترفض به مرة أخرى.. فدنت بخطوة منها وهمسـت بصـوت يضمه الاستياء..

- الحاجة سليمة مرة أخرى..

فرفعت رأسها إليها وهى تحاول الاعتدال فى رقدتها..

- ألهذا الحد.. يضايقك الأمر..

فارتبكت خوفا من إثارتها.. وجلست على حافة الفـراش فـى مواجهتها وهى تهز رأسها مشيرة بالنفى.. وأجابت..

- ليس كذلك يا أمى ولكن..

فقاطعتها..

- على كل حال هذا شيء آخر.. ولكنـى أردت أن أخـبرك بأمر أطلعنى عليه عم ربيع..

فاقتحمتها قشعريرة مفاجأة..

إذن فلقد أخبرها بأمر مدحت..

وشحب وجهها وهى تسأل فى تردد..

- أى أمر..

- أعطانى عم ربيع هذا المظروف.. وأخبرنى بأنه قسط مـن دين عليه لأبيك..

وأفرغته فوجدت به عشرين جنيها.. وفى الحقيقة يا ابنتى لم تكن هناك فرصة لمناقشته فى هذا الموضوع.. حيث توافد علينا الجميع كما رأيت.. و..

- مضى على وفاة أبى أكثر من عامين.. ثم..

ثم إنه لم يخبرنا بشيء كهذا من قبل..

فهزت الأم رأسها وهى تتمتم كأنها تريد أن تنتقل إلى حديث آخر..

- على كل حال سأرسل فى طلبه بعد ذلك لأستطلع حقيقة الأمر.. ولنعد الآن لموضوع الأستاذ منصور.. فهو..

ولكنها توقفت عندما.. نهضت عبير من مكانها.. ونجحت فى أن تضع ابتسامة على شفتيها وأصدرت صوتا أقرب إلى السعال المكتوم قبل أن تبدأ حديثها قائلة..

- ولكنك لم تستمعى بعد للمفاجأة يا أمى.. أتدرين ما..

فقاطعتها بشيء من الحدة..

- عبير..

سلطت عينيها نحوها.. وبدأت ملامح الغضب تزحف على وجهها الشاحب.. ثم أشارت إليها بالجلوس.. وأردفت..

- أنت تتصرفين وكأنك تعيشين ظروفا طبيعية..

تتصرفين كالأخريات.. تمنحين نفسك حق القبول والرفض.. و..

وانتابتها نوبة سعال.. ازداد تدريجيا.. وراح صدرها يعلو وينخفض فى حشرجة مسموعة..

فأسرعت عبير إلى صندوق الدواء.. وأعادت الكرة بالنسبة للزجاجة.. متناولتها من يدها وهى تقاوم السعال المتتالية.. وبدأت تستنشق بصعوبة.. حتى هدأت قليلا.. فأردفت..

– كأنك نسيت وصية أبيك.. أو أنساك صمتى حقيقة ما نحن فيه..

ثم صمتت برهة ألقت فيها نظرة سريعة إلى المظروف واستطردت..

– اليوم عم ربيع يفعل هذا.. وغدا يتبعه الأسطى قاسم.. ثم يأتى الدور على كل رجال الحارة.. كل منهم يخبرنى بمستحقات أبيك لديهم.. أيرضيك هذا .. ثم المنزل فى حاجة إلى رجل.. رجل يرعاك ويرعى أشقاءك.. أليس لهم الحق فى تلك الرعاية أم أنك.. فقاطعتها برفق...

– هناك أمر يجب أن تعرفيه أولا يا أمى.. سأحصل على عمل قريبا.. لقد التقيت بصديقة لى.. وأخبرتنى إنها..

فأشارت بيدها مقاطعة لحديثها.. وأدارت وجهها فى إصرار وهى تضغط بأناملها على الوسادة.. وقالت..

– لا أريد أن أسمع شيئا من هذا القبيل.. وعلى كل حال الأستاذ منصور سيسافر إلى بلدته.. وسيعود بعد أسبوعين وأنا أعطيت رأيى بالموافقة للحاجة سليمة..

ولم تستطع أن تتبين شيئا حولها.. ولا تدرى كيف أسرعت من أمامها مهرولة إلى غرفتها وقد اغرورقت عيناها بالدموع.. وكل شريان فى جسدها ينتفض.. وأحست بأعماقها تئن تحت طائلة

مشاعرها الثائرة...

كل مشاعرها ثارت فجأة.. كأنها تطحن بعضها البعض..

وتجمعت فى جمرة تغوص فى صدرها.. خوف.. وحسـرة.. وتمزق.. ووقفت فى منتصف الغرفة تستطلع نفسها أمام المرآة.. وقد انسابت قطرات دمعها فى يأس على وجنتيها.. وشفتاها تنتفضان فـى رجفة شديدة..

أتبكين يا عبير..

وما هذا الذى لا يستدعى البكاء..

الحرمان الذى يقبع فى صدورهم.. أم المرض اللعيـن الـذى يقتص من نبضات أمها يوما بعد يوم.. الفقر المدقع الذى يحيط بـهم.. أم اليأس الذى ينهش آمالهم فى كل حين، واستدارت لتجلـس علـى الأريكة المجاورة للنافذة.. وهى تمسح عن عينيـها مـا تبقـى مـن قطرات.. وأدارت رأسها كأنها تبحث عن لا شىء..

الفتيات فى عمرها ينشغلن بأمور لم تعهدها منذ وفاة أبيـها.. كل شىء فقد مذاقه.. إلا الحرمان.. حتى هبة الله فى قلبها أحاط بـها الخوف والتردد.. ذلك الحب الذى يجعل مشاعر الآخرين سابحة فـى واقع غير الواقع.. تتراقص نبضاته على همسات الأمـل والتمنـى.. بات بالنسبة لها مصدراً آخر من مصادر القلق.. كأنها مخلوق غـير المخلوقات.. لا سبيل لها إلا الصبر والترقب.

قد يبكى الإنسان إذا ما افتقد عزيزا لديه.. أو فقد غاليا.. وهـى

لا تملك شيئا تفقده.. حتى مشاعرها باتت تحت قبضة الواقع.. فـلأى شىء تبكى...

قد يكون عقابا.. لأنها أتاحت لمشاعرها فرصة الانطلاق لتفكـر فى أمرها.. أو لأنها توقعت ما يمكن أن يحق لغيرها.

قد يكون عقابا.. لأنها أرادت أن تغير من وجودها. وأن تـزود عن مشاعرها.. عن قلبها وكيانها..

قد يكون من أجل أى شىء آخر.. إلا أن يكون تذمرا...

.. و.. انتبهت على دخول أكبر أشقائها.. إلى غرفتها، ثم تبعه الآخر.. والثالث.. والجميع يطلبون الطعام..

وأعدت ما أعدت.. ثم جلست بينهم.. وبيـن الحيـن والآخـر تصطدم بنظرة خاطفة مع الأم..

وبدأ التوتر يخف تدريجيا مع ثرثرة الأشقاء.. وعنادهم.. وتعـددت أحاديثهم.. كل منهم يقص على الآخر أحداث يومه.. حتى أطلـق أحدهـم دعابة اشترك الجميع فى الضحك من أجلها.. بما فيهم الأم..

وأحست عبير بالهدوء يحيط بهم مرة أخرى.. ممـا شـجعها على مبادرتها بالحديث..

- أرأيت يا أمى كم أنت غالية عند الجميع..

فابتسمت وهى تنظر إلى سقف الردهة.. كأنها تتذكر شيئا.

- إنها سنون طويلة.. أمضيناها بينهم.. هم كالأهل تماما.. فرفعـت عبير رأسها إلى الساعة المرفوعة على الجدار..

الخامسة إلا الربع..

إذن لقد حان موعد سهير.. وكذلك مدحت..

فتظاهرت بأنها اكتفت بما تناولته.. ودلفــــت إلـــى حجرتـــها.. ووقفت أمام المرآة من جديد.. وألقت نظرة على جسدها بدأتـــــها مـــن أخمص قدميها إلى رأسها.. ثم استدارت يمنة ويسرة وهــــى تسـتطلع قوامها.. ولتتأكد من تنسيق فستانها...

وما كادت تستدير حتى توقفت قليلا.. كما لو كـــانت تذكــرت شيئا هاما.. ورفعت يدها إلى شعرها المقعـــوص وبــدأت تحــرره ببطىء.. حتى استرخى على ظـــهرها فـــى دلال.. وعبثـت قليـــلا بخصيلاته.. أسقطت على وجهها ما أسقطت ورفعت بعضــــها فـــى اتجاهات مختلفة.. ثم عادت أدراجها.. وقبلت رأس أمها وهى تتمتم:

– سأعود بعد قليل يا أمى..

وانصرفت وهى تتحسس فى جيبها البطاقـــة الصغـيرة.. ثـم انتظمت فى خطواتها عندما اطمأنت لوجودها.

واتخذت كعادتها فى كل موعد مع مدحت طريقا آخـــر غـــير الطريق الذى يمر بها أمام دكان عم ربيع..

ولم تجد بدا من أن تلجأ لخردوات النجمة باعتباره الوحيد فـــى الحى الذى به تليفونا.. واستأذنت صاحبه الذى ما فتئ يـــردد عليـــها عبارات غزل ما كانت تتحملها فى ظروف أخرى. وتلقــــت ســـهير مكالمتها.. ودار الحديث بينهما طويلا.. مـــا بيـــن كلمـــات رقيقـــة

للمجاملة.. وضحكات صاخبة، ارتبكت لها عبـــير.. واســتمتع بـــها صاحب المحل، توقف تقريبا عن التعامل مــــع الآخريـــن.. وتفــرغ للإنصات تارة.. ومواصلة الغزل الثقيل تارة أخـــرى.. ولــم يفـت الصديقة أن تسترسل فى أمور أخرى تذكرتها لدى عودتها صباحـــا.. فهناك من طالبت زوجها بالانفصال.. والآخر على علاقة بزميلـــة.. وثانية فى شجار مستمر مع والدة زوجها.. وأخرى رافقـت والدهـا للعمرة.. ووقفت عبير حائرة.. مضطربة.. ما بين ثرثرتها واقتحـــام الآخر بنظراته الفاضحة وهو بين الآونة والأخرى، يضغط بكفه على رأسه ليرتب خصلة من خصيلات شعره الكث.. ثم تحولت الأخـــرى عن الحديث فجأة وبادرتها..

– هه ومتى ستأتى غدا..

وأعادت سؤالها ثانية.. عندما لم تتلق جوابا من عبـــير التـــى ترددت برهة.. ثم همست.. :

– قد يأتيك ابن خالتى بديلا..

فاصطدمت أذنها بضحكة عاليه.. أحست بها تزلزل الســـماعة فى يدها.. وأتبعتها قائلة.. :

–هو إذن .. لم أتمكن فى الصباح من معرفة كل شىء عنك.. سأنتظرك أو أنتظره فأحدكما سيان الآن؟

ثم واصلت ضحكتها دون مبالاة.. وترددت عبير قليـــلا.. ثـم أبدت لها امتنانها.. وتبادلا الكلمات الأولى مرة أخرى.. واتفقا علــى

أن يتقابلا فى أقرب وقت..

وأعادت السماعة من جديد.. وكأنها تعيد حملا ثقيـــلا أنــهك كاهلها.. حتى تخلصت من نظرات ذلك السفيه..

وتمنع فى بادئ الأمر من أن يأخذ شيئا.. مما دفعها لأن تلقـــى ببعض القطع المعدنية على الطاولة الأمامية.. وتنصرف..

وقطعت الطريق مسرعة.. لقد تأخرت كثيرا عن موعدها..

ثم اتجهت ناحية الحديقة العامة التى تتوسط الميدان.. وخطــت داخلها.. وهى تتلفت فى كل اتجاه..

كانت الشمس قد بدأت تعلن عن رحيلها.. والأطفال يعـــودون جماعات وفرادى.. وفرغت الحديقة من زوارها تقريبـــا.. باســتثناء بعض الباعة المتجولين.. وآخرين ممن لهم نفس ظروفها.

وبدأ القلق يزحف إلى صدرها عندما اقتربت من نهايتها..

كان يجب ألا أتأخر..

تراه انصرف. هل جاء إلى هنا.. لابد وأن أراه اليوم.. كيــف سيحدث هذا...

لن يتسنى إلا الأسبوع القادم..

لن يتركه عم ربيع.. قد يغضب إذا حاول..

ليتنى ما.. ولكنها التفتت إلى الوراء مسرعة على صوته..

- عبير..

استدارت إليه.. تواجهه وقلبها يـــتراقص فرحـــا .. وســكتت



تراقبه برهة تتأمله وكأنها تراه لأول مرة..

.. فكلاهما يستسلم لتلك اللحظة الصامتة فى كل لقاء.. كأنـــهما يقصان كل ما حدث لهما.. ومن بين ابتسامته الهادئة.. استطرد:

– قلقت عليك كثيرا.. فأنت لم تعتادى التـــأخير.. كــدت أجــن.. أقصد.. فبادرته.. وعيناها تلمعان ببريق الشوق.. والحب..

– أنت.. كيف حالك؟..

فأطلق زفرة طويلة من صدره.. أحستها تمزق أعماقها..

وتناول يدها وهو يومئ برأسه إيماءات خفيفة.. متخذا وإياهـــا مكانا على الأريكة الرخامية التى انتصبت على مقربـــة منـــها.. ثـــم التفت إليها.. ولكنه أمسك عن الحديث عندما ظهر أمامـــهما فجـــأة.. أحد باعة الزهور.. وكأن الأرض قد لفظته مرة واحدة وراح يردد:

– فل.. وياسمين..

فأشاح بوجهه عنه.. بينما انتقلت هى بنظرة بعيـــدة.. فتململـــل الرجل فى مكانه.. وهو ينتظر فى بلادة.. اعتاد عليها.. وتقدم خطــوة ثم أعادها مرة أخرى.. وبدا كأنه يصر على أمـــر يـــدرك نهايتـــه.. وكرر بصوت منغم..

– معى الفل والياسمين..

وأدار وجهه للاتجاه الآخر.. وكرر ما يقوله.. وكأنـــه بتلـــك الالتفاتة قد ابتعد عنهما.. ولم يفته أن يعترض اثنان فى طريقـــهما.. وهو يلوح بالزهور حتى كاد أن يلمس وجههما.. ولكنه لم يتبعهما..

وأدرك مدحت أن لا مناص من الشراء.. وإلا أمضيا وقتهما في التمنع بلا فائدة..

وما كاد يدس يده في جيبه.. حتى رمقته عبير بنظرة أرادت منها أن تثنيه عن ذلك.. ولكنه أصر مستسلما.. ومد يده ببضعة قروش.. وتناول منه العقدين.. واختفى الرجل كما ظهر فجأة.. وكأن الأرض أعادته إلى بطنها من جديد.. بينما زحفت ابتسامة عريضة على شفتيه وهو يلتفت إليها هامسا...

– لا داعي للسجائر اليوم..

واشتركا في ضحكة من الأعماق..

ومضت ساعة.. وأو كادت..

لم تترك أمرا يخصها إلا وذكرته.. طرحت عليه كل الأحداث السابقة منذ آخر لقاء بينهما.. ما كان من الحاجة سليمة.. وموقف والدتها في بادئ الأمر..

والأستاذ منصور وإلحاحه الأخير.. وصدى ذلك على أمها بعد ما ضاقت بهم الظروف.. وأمر الأسبوعين.. وموقف عم ربيع النبيل...

وأخيرا ما تم بينها وبين سهير.. ذكرت له كل شيء.. باستثناء حديث التليفون.. وأخفت عنه ما كان من أمر الوظيفة.. وأفهمته بأن المكان الشاغر لا يصلح إلا له.. ثم تناولت البطاقة ومدتها إليه.. وقد وضحت ارتجافة خفيفة بيدها.. لم تستطع أن تحدد في حينها مصدرها.. فنسمات الخريف قد بدأت تشتد.. أم لأنها تتخذ قرارا

طالما طال انتظارها له.. أحاسيس الحب شملت كل شيء التفاتاتــها.. وحركات يديها.. ونظرات عينيها.. تحدثت كثيرا.. تطرق موضوعــا ثم تأتى بالآخر.. وما تلبث أن تعود إلى الموضوع الأول من جديــد.. فى الوقت الذى فقد هو فيه كل اتزان.. وراح يقبل جبهتها.. ويديــها.. غير مبال بما حوله..

لم يعد يرى سوى وجهها المضـــيء.. وعيناهـــا الجميلتيـــن.. وشعرها الطويل وهو سابح مع نسمة الغروب.. كأن الكـــون هـــى.. وكأنها هى الحياة.

حياته الباحث عنها.. لا مكان فيها للخوف أو الانكسار.. وبـدأت كلماته تسبق أنفاسه.. وانطلق يعلن عما يجيش فى صدره.. ويســتنهض ما فى أعماقه.. من آمال وأحلام.

سيمضى بها بعيدا عن كل العيون.. سيجعل من حبهما أسـطورة تتوارثها كل القلوب ولكنها وضعت أصابعها على فمه.. وهـــى تضـــم جفنيها.. كما لو كانت تحول كلماته إلى واقع فى خيالها.. وهمست

– كفى.. كفى يا مدحت كدت أنسى واقعنا من كلماتك..

فأبعد كفها برفق وواصل قائلا:

– إنها الحقيقة يا عبير.. ذلك هو واقعنا.. كنت فى الماضى لا أحاول أن أحلق بعيدا مع أمانينا.. ولكن اليوم يختلف الأمـــر.. ومـــا كان من قبل ليس واقعنا..

كان نتاجا لأحداث ليس لنا يد فيها..

فتراجعت برأسها قليلا..

– أنا لا أفهمك..

فضحك متمتما..

– إن لهذا شأن سيطول شرحه..

ثم تناول يدها وهو ينهض.. واستجابت فى هدوء.. متخذيـــن طريق العودة.. واستيقظ الصمت مرة أخرى فـــى خطواتـــها.. كـــل منهما يفكر فى أموره.. كأنهما قد حطا الآن على الأرض بعد رحلـــة بعيدة مع الخيال.

وبدأت تدنو من مخيلتهما صورة الواقع.. لتسدل ستار الحقيقـــة على شطحات الحب..

ماذا ستقول لأمها عن الجنيهات.. لم يعـــد مقبـــولا أن تذكـــر إحدى زوجات عم ربيع.. خاصة بعد تصرفه.. فقـــررت أن تكـــون مصدرها زميلتها سهير.. وليكن ما يكون.

فبينما هو غارق فى تفكيره.. ماذا بشأن الغد.. سيظل مستيقظا طوال الليل ليرتب الكلمات التى سيواجه بها مدير الشركة..

سيرتدى القميص الذى ذهب به إلى والده.. ووصلا إلى نهايـــة الطريق.. وكان عليهما أن يفترقا..

فمدت يدها إليه.. أحس بها حروف همسات تسرى فى كيانـــه.. فضغط بكفه برفق.. وسكن يراقبها حتى تـــوارت داخـــل الطريـــق الجانبى المؤدى للحارة.

أمور عديدة يقرها الإنسان فى لحظة ما.. قد تكون فى أخرى غير مقبول حتى مجرد التفكير فيها.. دوافع خفية تعبث بإرادتنا فتجعلنا نتحرك كالدمى.. أو تكشف حقيقة نأبى الاعتراف بها.. وهى أننا لا نملك حق الاختيار.. لا نملك أكثر من تعليل واقعنا.. نعلله حسب رغباتنا.. نقترح له الحقوق لأنفسنا.. وقد نرفضها لغيرنا.. وفى كلا الأمرين السبيل هو ما يجود به الخيال.. ولكن الواقع حقيقة أخرى.

وانتظرت طويلا.. وتغلبت على أنات الحرمان.. كانت تخطط فى مخيلتها صورة الغد.. وبأنها ستفعل الكثير.. بل الكثير جدا...

واليوم عندما اقتربت من أمنيتها التى قدمت من أجلها قرابين القلق.. والعذاب.. وجدت نفسها تذهب بها طائعة.. راضية.. لتضعها بين كفى إنسان آخر.. وهى حقيقة من حياتنا.. فما يملكه مدحت لأجلها يفوق ما تملكه هى لنفسها.. وهى تدرك إنه سيفعل ما أقدمت عليه إذا ما كان الأمر له.. لأنه الحب..

وفى منزلها وجدت ما توقعته من استفسارات والدتها.. فأخبرتها بما سبق أن قررت.. لاحقتها باللوم.. عنفتها..

ما كان يجب أن تقدمى على هذا.. منذ متى وأنت تعرفين سهير..

كيف سمحت لنفسك أن تقترضى منها..

عليك بأن تعيدى المبلغ غدا.. وفورا..



كانت تصلها كلمات أمها.. بينما هى تبدل ملابسها فى حجرتها وتقبلت كل شىء.. دون أن تحاول إقناعها بتصرفها..

ليس عن استياء أو تمرد.. ولكن لأنها كانت تواجه أمرا أكـثر إلحاحا فى أعماقها.. الحيرة..

إنها تبحث عن الدافع المباشر الذى جعلها تقبل على ما أقبلت..

أهو الخوف من إصرار أمها بشأن منصور..

بأن البيت فى حاجة إلى رجل..

إذن فليكن هذا الرجل هو مدحت.. لأنه لا رجل غيره فى حياتها..

أم إنه الحب.. أم الضعف.. أم ماذا..

واسترخت على فراشها.. مستسلمة للنوم كأنها تبحث عن واقع آخر ينتشلها من حيرتها..

فاستكانت بعد لحظات فى سبات عميق.. علـى حيـن قـرر مدحت العودة بعد ما أرهقه السير بلا اتجاه محدد..

البرد قارص.. والليل حل.. عليه أن يتأهب للغد..

فأسرع من خطواته وهو يدس كفيه فى جيوب بنطلونه.. ودلـف إلى الحارة وقد سكنت الحركة فيها.. وغاصت فى ظـلام دامـس.. لا بريق فيها إلا ما ينبعث من عيون القطط الضالة أو بقايا قطعة معدنيـة أدركها ضوء القمر.. التيار الكهربائى مقطوع.. ورفع رأسه إلى أعلـى ليلحظ أضواء خافتة تتراقص من خلف النوافذ الخشبية ذات التقسـيمات المتساوية.. وتناول علبة الكبريت من جيبه وأشعل منها عـودا وبـدأ يهتدى على ضوئه فى خطواته.. إلى أن وصل المـنزل.. ومـا كـاد يشعل عودا آخر حتى اصطدم بجموع محتشدة داخل البوابة الرئيسـية

للمنزل.. وأصوات مرتفعة تأتيه من أعلى..

ما هذا.. ماذا فى الأمر...

فتطوع أحدهم مجيبا.. زوجة الأسطى محمد تضربه..

ثم أتبعها ببعض التعليقات الساخرة.. وانقسم البعض بين رافض ومؤيد.

يستحق والله فهو يضربها كل يوم.. ذلك آخر ما يمكن أن يكون.. النساء تضرب أزواجهن.. الرجل مسكين يا جماعة.. يقولون إنه حاول ضربها..

فتدخل آخر..

– سمعت إنه يعاقبها على إنها نسيت إغلاق باب شقتها حتى اصطدم بأحد اللصوص.. على الدرج ولم يتبين شكله فى الظلام..

فجاء الصوت الثالث متهكما.. كأنه يعرف أمرا ويخفيه..

– وأى لص هذا الذى يطمع فى الأسطى محمد..

– ربما أراد أن يترك له شيئاً ما..

وبدأ الجميع ينسحب على التوالى.. فى الوقت الذى كان مدحت يشق الطريق إلى الدرج صاعدا.. وبين اللحظة والأخرى.. يصطدم بأحدهم وهو منصرف.. إلى أن وصل للطابق الذى يقطن فيه الأسطى محمد.. حيث اشتد الصراخ.. وتدخلت الأصوات:

– لن أتركها قبل أن أدق عنقها..

– لا داعى لهذا يا أسطى محمد.. لا تجعل الشيطان يسيطر عليك...

– لو اقتربت منى سأمزق وجهك يا شحات.. يا عاطل...

لا داعى لهذا يا امرأة.. إنه زوجك.. وعليك احترامه..

فيستشيط غضبا ويهم بضربها.. على حين يحتجزه البعض..

– سأريك يا ملعونة.. قسما بشرفى سوف..

ولكنه توقف فجأة عن الصياح.. حيث أضيئت الأنوار من حولهم.. وسكن الجميع فى صمت تام.. لا صوت إلا حشرجة الأنفاس المتعبة.. كأن الضوء قد كشف أمرا أخفاه الظلام فبدت الزوجة وهى تقف فى الزاوية البعيدة للردهة.. وحولها بعض النسوة.. ورجال الخير.. كل شىء فيها يعلن عن شراستها.. وقد تدلى منديل رأسها بالخصيلات الأخيرة من شعرها.. وجسدها يهتز تحت قميص أحمر فى لون الدم.. وله بريق ساطع يخطف الأبصار.. واختلطت المساحيق على وجهها.. وانساب بعضها على وجنتيها.. وعيناها تضمان نظرة أكثر شراسة وتحفزاً أسفل حاجبين اتخذا شكلا هرميا.. وهى تتحسس آثار جرح بسيط من آثار أظافره على رقبتها.. والعيون من حولها تهتز مع جسدها.. خاصة الذين كانوا على مقربة منها.. حيث وقفوا فى ثبات كالأصنام الصخرية.. مشدوهين فى بلاهة.. لا يصدقون إنهم منذ لحظات قليلة كانت أيديهم تلمس ذلك الجسد الغض... و...

وقد بدت الحسرة فى عيون بعضهم كأنهم يرغبون فى انقطاع الضوء مرة أخرى.. ليكونوا رجال خير..

وقف الأسطى محمد يلهث وسط جمع آخر..

وقطع مدحت عليهم الصمت..

– ماذا فى الأمر.. فتلفت الجميع كل للآخر.. كأنهم يتساءلون أيضا..

وكرر السؤال.. وأعاده آخر.. وثالث..

فتمتم الأسطى محمد.. وهو يهندم ملابسه.. ويطأطئ رأسه ويرفعها..

لقد حذرتها أكثر من مرة بألا تنسى إغلاق الباب.. وها قد حدث ما كنت أخشاه.

اصطدمت بأحد اللصوص وهو يلهث على الدرج عندما انتبه لقدومى... و...

وأطلقت ضحكة مجلجلة.. سقطت معها قلوبهم جميعا.. واهتزت أبدانهم طربا على أنغامها.. ثم قالت فى نهايتها..

– لص .. من كثرة خزائنك يا فالح..

وانتبهت النسوة لعيون أزواجهن.. فبدأن الواحدة تلو الأخرى فى سحب من يهمها إلى الخارج.. فتتابع الآخرون تصحبهم همساتهم.. وجميعهم من ساكنى المنزل.. كانوا قد توافدوا.. باستثناء واحد.. لم يكن ملحوظا بين الحشد.. وهو المعلم عباس.. هو الآخر من ساكنى المنزل.. فى الطابق الأول.

ولكن يبدو إنه كان منشغلا بأمر آخر.. أو كان فى زيارة لإحدى زوجاته.. حيث جعل لكل منهن سكنا مستقلا.. ولنفسه أيضا.. وسرعان ما اقتحمت عبارات الأسطى محمد التى رددها فى المشاجرة الأولى ذهن مدحت وهو يصعد الدرج حيث يقيم.. وتذكر ما ردده عن عباس..

فاستقرت ابتسامة باهتة على جانب فمه متمتما...

– مسكين الأسطى محمد...



اليوم صحو.. الساعة تشير إلى الثامنة والنصـــف صباحــا.. أدركها بنظرة خاطفة إلى ساعة الميدان التى زينت عقاربها بفصـــائل من الورود الزاهية..

الحركة دائبة فى كل اتجاه..

السيارات تندفع على الطرقات فى اتجاهات متضادة.. ومتوازية..

عربات الترام تزأر على قضبانها فى عناد..

ومدحت يسير وسط الجمـــوع علـــى الكوبـــرى المخصـــص للمارة.. كل إلى طريقه..

أمضى ليلته هادئا.. مطمئنا.. واستمتع برقاد طويل على غــير توقعه.. فلقد كان للنبأ تأثير سحرى على مشاعره فأراحها على كفـــى الاطمئنان والسكينة.. يتأبط بعض المسوغات الخاصة به..

والزهو يملأ صدره.. كل شريان فى رأسه مستيقظ تماما لمـــا حوله.. أحاسيس جديدة تنبض فى أعماقه.. قد يكون خطى على هـــذا الطريق مرارا من قبل.. لكنه اليوم لا يستشعر غرابــــة نفســـه بيـــن الجموع.. إنه مثلهم يسير إلى هدف..

وهزته النشوة فأخذ يقفز الدرجات مسرعا.. كأنه يخشى موعدا هاما مثله مثل بعض الآخرين بجانبه..

وانتهى إلى الطريق فى الاتجاه الآخر.. سار بضعة خطـــوات استوقف بعدها أحدهم.. مستفسرا عن مكان هدفه..

ولكنه لم يتلق ما أراد.. فأكمل مسيرته بعض الوقت.. حتى وصـــل إلى تقاطع الطريق.. وقد ازدادت الحركة من حوله.. فاســـتوقف آخــر.. فأشار إليه تجاه الجانب المقابل.. فانتقل مســـرعا متفاديـــا ســـيارة مارقـــة بسرعة.. وعيناه تستطلعان اللافتات العديدة التى رفعـــت علـــى واجـــهات المبانى.. ثم توقف فجأة أمام مبنى ضخـــم.. وتنـــاول البطاقـــة الصغـــيرة وتبادل بينه وبين إحدى اللافتات نظره سريعة.. ثم دلف إلى داخله..

واستقل المصعد الكهربائى.. والتقت عيناه بصورته فى المـــرآة الداخلية.. فاستغلها للحظات تأكد من تنسيق ملابسه فيـــها.. وســـرت رجفة خفيفة فى يده وهو يضغط على الأوراق..

غادره فى الطابق الرابع.. وبمجرد دخوله إلـــــى أول الممـــر المؤدى لمكاتب الشركة.. أحس بازدياد الرجفة التى شملت كيانـــــه.. صمت تام.. لم يسمع صدى كعب حذائه كما كان فى السابق بعـــد أن عهد به للأسطى محمد فأولاه قطعة معدنية لحمايته ولضمان تحملـــه.. أحس بقدميه تغوصان فى كل خطوة على البســـاط العريـــض الـــذى افترش الأرض تلفت حوله يستطلع الستائر.. والثريـــا المـــدلاة فـــى منتصف الردهة.. والمقاعد الوثيرة التى استكانت فى الأركان..

وبدأ يترامى إلى مسامعه.. أصوات كالهمس.. وحشرجة خفيفة أدرك بعدها أنها تنبعث من أجهزة التكييف المنتشرة فى الحجرات..

أين هذا من منضدة عم ربيع.. أو ..

ولكن الهمس احتبس فى صدره عندما تقدم نحوه أحد العــاملين وبدا كأنه تواجد فعلا لاستقباله..

وبابتسامة هادئة بادره قائلا:

– هل من خدمة..

فمد إليه بالبطاقة.. دون أن يتفوه بحرف واحد..

ولم تظهر على وجهه أية أسارير توحى بأى شيء.. بل ســكن صامتا.. كأنه أحس بالندم على فعلته السابقة..

وما كان يجب أن ينتشى بهذه الصورة.. أو يأخذه الزهو بعيدا..

فتطلع الرجل إلى البطاقة.. وأردف محتفظا بابتسامته..

– مكتب الآنسة سهير فى هذا الاتجاه..

وأشار بيده إلى غرفه مقابلة.. ثم استطرد..

– ولكن..

رفع مدحت رأسه.. كأنه أفاق لتوه من غيبوبة مفاجئة..

– الآنسة سهير لم تصل بعد.. على كل حال تفضل لانتظارها..

فتناول البطاقة من جديد.. وقد استجاب أخيرا لابتسامته..

وتبعه إلى مكتبها.. وما كاد يدخل حتى توقف مرة أخـــرى.. عندما لاحظ وجود بعض زملاء وزميلات لـــها.. جالســين خلــف مكاتبهم.. ثلاثة مكاتب.. والرابع لا أحد خلفه.. لابد أنه لسهير..

تقدم مترددا.. وابتسامة تائهة تعلو شفتيه.. وأتـــى بعــدة إشـــارات برأسه.. أراد بها أن يقدم التحية وكانت عيناه شبه مغلقتين من شدة ارتباكه..

فلم ير سوى المقعد الصغير الذى يقابل مكتبها.. فجلس وهـــو يعبث بالأوراق فى يده.. مسقطا رأسه فى تأدب جاعلا كل حواســـه تصب فى أذنيه..

الوقت يزحف ببطء ثقيل.. ثم بات مملا.. وأخيرا مقلقا.. ساعتان..

أناس كثيرون.. موظفون .. وزائرون.. عمـــلاء ورؤســـاء.. يدخلون المكتب ويغادرونه.. وهو قابع فى مكانه بلا حراك.. وبيـــن الآونة والأخرى.. يتلقى استفسارا أو عرضا لأية خدمات..

ولا يكون منه إلا أن يهز رأسه فى ارتبـــاك.. نافيـــا تـــارة.. ومبتسما أخرى..

وبدأت التعليقات الهامسة تظهر على سطح مناقشاتهم..

يبدو أنه لا يعرفها.. قد يكون قريبا.. أو..

فتدخلت الزميلة مقاطعة..

لا.. ليس هذا النوع..

يطرقون موضوعات متعددة.. وما يلبثون أن يعيدوا الـــــهمس كلما مضى الوقت..

قد يكون وسيطا..

ولم لا.. هل من معترض..

مالنا والمشاكل.. اللهم احفظ لنا وظائفنا..

ولم يستطع مدحت الاحتفاظ بهدوئه أكثر من ذلـــك.. عندمـــا ضج المكان بضحكات متتالية..

فالتفت إلى محرضهم بنظرة قاسية.. أسكتتهم فى وقت واحد.. بينما ارتبك الآخر وطأطأ رأسه إلى المكتب وهو يبعث بالشعيرات القليلة التى تناثرت عليها.. كأنه انهمك فجأة فى تفكير عميق..

فازداد غضبه لتلك التصرفات الصبيانية.. وهم بالوقوف ليثأر لكرامته.. ولكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة.. حيث دخلت عليهم زميلتهم..

إذن هى سهير...

ردد فى صمت.. تذكرها الآن فقط.. ومن لا يعرف سهير فى الكلية.. استقبلها الجميع بالابتسامات.. بل تجاوز أحدهم فى ترحيبه.. فنهض من وراء مكتبه.. ملقيا بعض عبارات التحية..

بينما اتخذت خطواتها تجاه مكتبها..

إنها هى..

نفس أسلوبها القديم.. بشعرها الأحمر وقد انتكش عن تعمد محيطا بوجهها الصغير.. مرتدية قميصا بلون شعرها.. وسروالا أبيض يكاد يحدد معالم جسدها بدقة.. ممسكة بحقيبة صغيرة.. على شكل صندوق.. وفى يدها الأخرى تدلى طرف نظارتها وهى تلوح بها مع خطواتها...

على حين سكن الزميل الثانى يرقب خطاها واحدة إثر الأخرى حتى استقرت على المقعد.. فبدت الحيرة واضحة فى عينيها عند اقترابها منه.. والتفتت إليه وهمست بصوت لا يتناسب مع مظهرها المثير.. فى ثورة تبدو على نفسها...

– أهلا.. هل من شيء أقدمه..

فوقف على أثرها.. وهو يمد إليها بالبطاقة

– أنا مدحت حمدى.. من طرف الآنسة عبير..

فرفعت رأسها إليه.. ورمقته بنظرة فاحصة.. أحس بها تجرده من كل شيء.. وقد اتسعت ابتسامة رقيقة على شفتيها..

– أجل.. أقصد تفضل..

وأشارت إليه بالجلوس.. ففعل..

– أرجو ألا يكون قد طال انتظارك..

فأجابها مبتسما وهو يلقى نظرة سريعة شملت كل من حوله..

– أبدا ولكن يبدو أننى جئت مبكرا..

لم تعلق.. وانشغلت بالأوراق التى أمامها.. أو تظاهرت بذلك..

ثم أدارت قرص التليفون.. واستغرقت فى حديث..

فتطلع إلى وجهها فى نظرة سريعة.. وكررها كلما أتاحت الفرصة.. وتقدم منه العامل بإشارة منها..

الآن أحسست بوجودى.. ساعتان ولم يأبه..

قدم إليه كوبا من العصير.. وعاد ليتلكأ على الباب من جديد..

إذن هى سهير.. عرفها كما يعرفها الجميع.. رفيقة للأثرياء الأثرياء فقط.. التحقت بالكلية لمجرد قطع الوقت.. أو بحثا عن الصيد السهل والثمين.. تنطق السبعة والثلاثون عاما من عمرها بكل ما أتت به البدع من خلاعة واستهتار.. عبثت فطغى عبثها على كل

طيش.. كيف وصلت لهذه المكانة.

لمن يدفع أكثر.. ولابد أن مصطفى بك الكيلانى فاق الجميع.

انتهت المكالمة.. ونهضت وهى تشير إليه بأن يتبعها.. لم يستطع أن يتلفت حوله.. أحس بنظراتها تخترق كيانه.. ولو كان راودهم شك منذ برهة فالآن بات الشك يقينا.

وانطلقت السيارة بهما فقطعت ميدان التحرير إلى كوبرى الزمالك، ثم اتجهت يسارا متخذة طريق الجيزة.. حدثته عن ذكرياتها فى الكلية، وعلاقتها بعبير، ونبذة سريعة عن ظروفها إلى أن انتهت لما هى عليه فى الشركة.. الكلمات تصله من طرف أنفها، يومئ برأسه موافقا على كل شيء.. ولم يتوان عن إبداء بعض علامات الدهشة إذا ما احتاج الأمر، زادها ذلك اطمئنانا للاسترسال فاختلطت معانى حديثها.. بالجو والظروف.. والحياة ومشاغلها.. واستيائها من الزحام وأنها لا تطيق الجو.. ثم تناولت علبة السجائر من حقيبتها ومدت إليه باثنتين.. فأشعلهما مستسلما وأعاد إليها واحدة.. وهى مسترسلة بلا تكلف أو عناء.. وهو يجد الفرصة مواتية ليملأ عينيه من كل ما فيها..

ستة عشر عاما قطعتهم من عمرى للدراسة، أدت بى إلى عم ربيع واليوم إلى أين ستؤدى بى تلك السويعات..

- ولكن.. أحقا أنت ابن خالتها..

فارتبك قليلا وهو ينفث دخان سيجارته التى أوشكت على الانتهاء..

- فى الحقيقة لا.. ولكننا أكثر من ذلك..

أترتبك أيها الأحمق.. هذا الانصياع والتـــأدب، يخفـــى وراءه نفسا لئيمة تتحين فرصتها..

وتلك الكاذبة.. العاهرة فى تستر.. كم من فجور يحـــدث فـــى الخفاء وراء وجوهكم البريئة..

- خطيبها..

فابتسم وهو يزدرد ريقه مجيبا بالنفى.. فالتفتت إليــــه بنظـــرة مركزة فبدت عينيها وكأنهما من زجاج..

- حبيبها..

اتسعت ابتسامته أكثر.. وقد زاغت عيناه بعيدا.

- فى الحقيقة نحن متفقان على كل شىء.. وسوف..

ولكنه توقف عندما أدارت وجهها عنــــه تســـتطلع الطريـــق. وعندما لم يجد ما يكمل به حديثه.

اتفقتما على أى شىء.. الالتزام بالتقـــاليد والاســـتهتار بـــها، يفصلهما هذا الاتفاق السرى.. أما العار والخطأ فهو ما يكون علنـــا أو يكتشفه الآخرون.. غير ذلك هو الشرف والعفة وتوقفت السيارة عنـــد إشارة الميدان.. تناولت سيجارتين وأشعلتهما ثم مدت إليـــــه بواحـــدة تناولها وهو يلتفت إلى السيارة التى بجانبه ليرى قائدها قد استكان فى نظره إليها وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء باردة.. وشعر بحبات العـــــرق تقفز من مسامه وكأنه يقف تحت سماء ممطرة..

ثم أعاد عينيه إليها مارا بصدرها المكتنز فى جرأة.. وما لبث أن أدارهما بعيدا، كأنه يبتعد عن خاطر قد فاجأه بإلحاح..

وانتبه على صوتها وهى تتحرك بالسيارة من جديد..

- أتحبك...

فضم شفتيه، يحجب ابتسامة.. وأمال رأسه قليلا فبدا كأنه يجهل الأمر.. قد يكون أو لا يكون.. هكذا أوحت إشارته..

مغرور.. بل نذل.. منحتك حبها وثقتها، وتركت لك فرصتها فى العمل وقد تكون هى أحوج إليه منك.. ولكنكم سواء..

تأخذون فقط.. تريدون كل شىء.. ولا تعرفون معنى للعطاء.. تريدون الحياة لكم.. والمتعة لكم، والسلطة لكم، وما نحن إلا وسيلة لمتعتكم، مشاعركم فى بطونكم وفيما تحت البطون.. و..

وقطع عليها حديثها الصامت وراودته بعض الجرأة بعد سؤالها وهمس مستفسرا..

- وأنت..

فأخذت نفسا عميقا، ثم أطلقته زفرة طويلة.. أحس بها تلفحه بلسعة كان مصدرها جوف يتأجج حمما.. وكررت..

- أنا..

ثم هزت رأسها طربا مع أنغام الموسيقى الصادرة من ريكوردر السيارة وأردفت..

- سلنى أولا.. هل صادفت أحدا يعرف معناه.. أقصد معنى

الحب.. أتدرى.. سوف أقول لك أمرا يدهشك..

وهى تربت على فخذه الأيسر بجانبها..

- تركت الكلية.. سئمت منها.. أتعلم أنى كنت متزوجة..

فأشار برأسه..

- لا..

- انفصلت قبل التحاقى بالكلية بعام واحد.. أنجبت طفلة.. المهم.. تركت الدراسة.. وسافرت إلى إنجلترا.. أبحث عن حياة جديدة.. أمضيت عاما.. تنقلت فى أعمال مختلفة.. لم أجد جديدا.. عدت، تزوجت بآخر.. وعرفت من عرفت، على شرط ألا يمسنى أحدا.. دائرة كبيرة.. لم أجد أحد.. أتعرف أن..

ولكنها انفجرت فى ضحكات طويلة متتالية.. حتى أنها لم تعد تتحكم فى عجلة القيادة فاتخذت جانبا على الطريق وأوقفت المحرك وهى تواصل ضحكاتها.. وتهز فى رأسها منتشية كأنها ترقص إحدى الرقصات الهستيرية.. ثم التفتت إليه مرة أخرى.. قائلة:

- نظرت إلى بنظرة أضحكتنى.. رأيتك ساهما شاردا كأنك تسمع عجبا..

فانتبه وهو يمسح عرقه بكفه متمتما..

- أبدا.. ولكنى معجب بصراحتك..

- معجب.. أم.

وغمزت بطرف عينها.. فأردف..

- حقا.. إنها أول مرة فى حياتى أصادف إنسانة..

فقاطعته وهى تكتم ضحكتها..

- فى الحقيقة فوجئت بنظرتك.. أرجو أن تقبل اعتذارى..

ثم فتحت باب السيارة وأدارت رأسها إليه..

- هيا.. المسافة قريبة يمكن قطعها على أقدامنا..

وسارا جنبا إلى جنب، وهى تواصل ثرثرتها.. وبدا واضحا فارق الطول بينهما، وأحس كفه يذوب بين أصابعها بعد أن جذبته لتقطع الطريق إلى الاتجاه الآخر.. لم يعد يسمع شيئا مما تقوله، كل فكره بات مشغولا بالعيون التى تترصدهما من كل جانب، كانت تارة تقفز بجانبه فى خطواتها كأنها لم تتجاوز السابعة بعد، وأخرى تعترض طريقه لتكمل جملة لا يعرف أساسها، وقد استقرت ابتسامة باهتة على شفتيه والارتباك يسيطر على كل حواسه، كلما التفت إلى اتجاه يصطدم بوجه جديد.. والنظرة واحدة، تمتم فى محاولة لتهدئة تلك المخلوقة الغريبة عليه.. ولكنه لم يفلح، فاستسلم لتصرفها دون أن يلتفت إلى أى اتجاه.. ثم تأبطت ذراعه وهمست...

- أيضايقك هذا..

- بالطبع لا..

- إذن هيا..

وجذبته مرة أخرى إلى داخل بناء كبير، وهى تسبقه بخطوة أو خطوتين..

فصعدت به درجات السلم.. ثم وقفت فجأة وقالت بأنفاس لاهثة..

- فى الدور الأول.. سيكون مقر عملك الجديد..

فتخلص من يدها، وقد بدا عليه الوجوم فجأة.. وأحست به مضطربا..

- ماذا بك؟

- الأوراق..

- أى أوراق..

- الأوراق الخاصة بى.. نسيتها على مكتبك..

فأطلقت ضحكة مجلجلة.. وهى تضغط بأصابعها على خده، وهمست مبتسمة..

- هذا أول عيب أكتشفه فيك، الإهمال..

وواصلت السير وهى تجذبه من جديد.. واستطردت..

- هذه أمور ليست هامة على كل حال..

تبعها فى استسلام، مندهشا أو مبهورا.. سلبته إرادته فى التفكير دون أن يدرى.. إنها تتصرف معه كما لو كانت على معرفة قديمة به، إنها لا تجد حرجا فى اقتحام حياته الخاصة بأسئلتها الجريئة، غير مكترثة بأية حدود..

دخلت معه المكتب، وطلبت منه الانتظار قليلا.. وغابت عنه بضع دقائق.. أتاه بعدها من يطلبه لمقابلة المدير، أو خالها كما قالت له، وتقدمه الرجل بضع خطوات متجها إلى نهاية الردهة، ثم توقف أمام إحدى الغرف حتى لحق به، وطرق بابها طرقة خفيفة وأشار

إليه بالدخول، وبدا أمامه بالداخل مكتب فاخر يتخذ جانبا فى الغرفة الواسعة التى استرخت على جدرانها ستائر لها لون السماء، وتناثرت بعض المقاعد الوثيرة حول مائدة متوسطة الطول، وعلى أحد المقاعد المواجهة للمكتب كانت سهير جالسة وهى تضع ساقا على أخرى تنفث من سيجارتها وعيناها مسلطتان عليه، فى حين قبع المدير وراء مكتبه تخفى معالم وجهه زوبعة الضباب السابح من غليونه، بدا بدينا بعض الشيء بوجه مستدير يحمله لغد يلامس نهاية عنقه، عيناه ضيقتان غير واضحتين وراء نظارته الذهبية، فتقدم إليه مصافحا، مبتسما فى هدوء كبير..

– مرحبا بك فى الشركة..

ونظر تجاهها مستطردا..

– حدثتنى سهير هانم عنك كثيرا، وأرجو أن يروق لك الحال عندنا، تفضل.

وأشار إليه بالجلوس، فاتخذ مكانه أمام المكتب فى مقابلتها، واستمر الحديث فى موضوعات عامة لا دخل لها بالوظيفة، أو المؤهلات وما يجب أن يثار فى مثل تلك الظروف.. يتابعهما فى صمت لا يتدخل ولا يحاول ذلك، لاهيا بما يجيش به صدره من انفعالات غامضة.

ستجلس قريبا على مكتب مشابه، لن تسمع بعد اليوم زمجرة عجلات الكارو الخشبية ولن تصل لأنفك رائحة الروث والمياه المتراكمة أمام الدكان.. ستتعامل لأول مرة فى حدود مستواك..

سكرتيرة حسناء كالتى تجلس فى المكتب المجاور، بدلا من وجه الأسطى فهمى الذى تراكمت الأتربة على نتوءاته، سينقلك النقاش بين الزملاء من عالم الجبن والزيتون، واللحم البتلو والتسعيرة، ومشكلة المجارى، واستعراض عبودة المشاكس إلى واقع آخر، وأنتبه على صوت الرجل وهو يفرك عينيه من تحت نظارته.

– لى مدة طويلة لم أرك يا سوسو هانم.

تحولت إليه، ومدت يدها تعبث ببعض الأوراق أمامه..

– مشاغل..

– أكرهها.. أكرهها بعنف..

فتوقفت عن إشعال سيجارتها فى التفاتة مندهشة..

– ما الذى تكرهه يا صدقى بك.

كل مشاغلك التى تبعدك عنا..

وانفجر فى ضحكة غير متزنة وهو يرفع نظارته من فوق عينيه ليكشف بوجهه الأملس عن ملامح أنثوية، ثم التفت إلى مدحت قائلا وجسده لا يزال يهتز فوق مقعده.

– لا تندهش يا أستاذ مدحت، فسوسو غالية عندى كثيرا، تربطنا صداقة قديمة.. و..

فقاطعته كأنها تداركت أمرا أرادت أن تتجنبه، وأبدت التفاتة إلى مدحت مرة أخرى قائلة وهى ترمق صدقى بك بنظرة سريعة..

– صدقى بك اعتبره بمثابة خالى..

فلاحقها الرجل وهو يربت على جانبه الأيسر، وقد اتسعت عيناه المجردتان من الأهداب فبدتا كأنهما ثقبان فى رأس دمية منتفخة.

- أجل خالى.. أقسم لك أنه خالى.

واشتركا فى قهقهات عالية، وتجاوب مدحت بابتسامة باردة استقرت على طرف فمه فى هدوء.

سعيد هذا الأبله.. لابد أنه اتفق على وجبة شهية تشبع ذلك الجسد المترهل..

وأتاه وعد بالمقابل..

وأنا المقابل..

البعض يدفع النقود، أو يبالغ فى هداياه.. وآخرون يبتدعون وسائل أكثر ذكاء، وأكثر خبرة ولكنك اليوم أصبحت مقابلا جديدا..

أسلوب مبتدع..

أنت مقابل ما تمنحه هى له، قد لا يريدك.. ولكنه بلا شك يريد دعوتها، ويريد ما تجود به عليه من متعة، وإلا ما كان ارتضى بك.

وما الذى يدفعها لذلك.. إنسانيتها.. أو حبا فى تقديم المعونة لأمثالى.. من كان فى ظروفها لا يتعامل بمشاعره، إنها تموت فى أعماقهم للحد الذى يتجردون منها تماما.. فكيف تقبل بالثمن البخس..

فى إمكانها أن تأخذ أكثر مما تعطى.. وقد تأخذ دون أن تمنح، وكثيرا ما يحدث هذا..

- شعبة محاسبة.. أليس كذلك يا أستاذ مدحت..

فاجأه الرجل بسؤاله.

- أجل.. مضى عامان على تخرجى..

فتدخلت سهير وهى تقرصه فى فخذ دون أن يراه الآخر مبتسمة ابتسامة أدرك معناها.

- مدحت نابغة فى الحسابات، ومعروف عنه الدقة وعدم الإهمال.

إلى هذا الحد تجاهد فى سبيلى.. علاقتها بعبير ليست بالعلاقة الوطيدة التى تدفع بها لذلك الحماس..

إنه الاعتذار للمجتمع.. لا مبرر غير ذلك..

ورفع عينيه تجاه الرجل التائه فى عينيها وصدرها.. منشغلا تماما بحديثها المتقلب مع حركات وجهها.. فتمتم محدثا نفسه..

ولكنك أنت المقابل..

فأسقط عينيه مرة أخرى..

ولو...



السماء تمطر بغزارة، والغيوم يقبع فى الأفق بالرغم مـــن أن النهار لم ينتصف بعد، الحارة خلت من الأطفال وألعابـــهم "إلا مـــن بعض المارة المهرولين فى كل اتجاه متخذين جدار الشرفات البـــارزة من المبانى ستارا يحميهم من الحبات الكثيفة المتساقطة، متفادين مـــا يمكن أن تخلفه عجلات سيارة مارة وسط المياه التـــى ســـرعان مـــا تتراكم فى شكل مستنقعات متباعدة خاصة أمام دكان الأسطى قاســـم الذى ابتلى ببالوعة تشذ دائما عن أخرياتها فى نفس الحارة، فتـأبى أن تجعل المياه تمر من خلالها وكثيرا ما اتهم جيرانــــه عـــم ربيـــع أو الأسطى فهيم الترزى بأنهم السبب فى ذلك عن طريق مخلفاتـــهم، وإذا ما عجز فى حجته صاح متمتما..

– إنها على كل حال مخلفات رؤوسكم وما تحمله من أســـلاك لا يمكن ثنيها.

وقد ظهر المعلم عباس وهو يدير العـــامود الحديـــدى ليســـدل المظلة القماشية محتميا بها ووقف الأسطى محمد يدفع بالمياه الجارية على الأرض فى اتجاهات متفرقة بعيدا عن دكانه مســـتغلا اختفـــاء الجميع داخل محلاتهم. حيث لا يجرؤ أن يقدم على ذلك فى وجودهم، بل كثيرا ما تقبل ما يزف إليه من كل جانب بعد توقـــف الأمطـــار، وفى الجانب الآخر انكمش بائع البرتقال داخل صندوق عربـــة اليـــد

الخشبية تاركا بضاعته بدون غطاء حتى يزيل من عليها الأتربة فتبدو طازجة، وهى لم تسلم من يد عبودة المشاكس وهو يعدو باحثا عن مأوى داخل أحد المبانى أو إلى مكان آخر فلم يره، وحتى لو رآه فلا يملك سوى الصمت.. فهو خير له.

وقفت عبير وراء الضلفة الزجاجية لنافذتها، ترقب ما يحدث خارجها، عيناها تجولان فى كل اتجاه تضمان السحب الملبدة فى بطن السماء، وتمسحان الطريق من بدايته إلى نهايته ثم ما لبثتا أن استقرتا على دكان عم ربيع، الذى بات بمفرده منذ انقطاع مدحت عنه أسبوع كامل وهى لا تعرف عنه شيئا.

لم يأت فى موعده السابق كالمعتاد، وهى لا تذكر رقم تليفون سهير لكى تتصل بها، لم تجد وسيلة يمكن عن طريقها الاطمئنان عليه، ظنت فى نفسها الشجاعة لتبادر عم ربيع بمسائلته عندما استدعته والدتها لتعيد إليه المظروف، ولكنها لم تقو على مفاتحته فى شأنها، وحتى هو لم يحاول أن يبدى أى ملاحظة تهدئ من قلقها، ولكنه الآخر لم يتطرق لما تنتظره منه..

واليوم الموعد الثانى.. تراه سيأتى.

لو أنه جاء ليخبرها بما حدث.. هل قبلوه أم لا.. لابد أنه حدث له مكروه، ولكن كيف لا يعلم عم ربيع.. ولماذا يخبرها.. وما شأنها..

لم تغادر المنزل منذ آخر لقاء.. أحست بأن دورها قد أوشك على الانتهاء وما عليها إلا الانتظار.. ولكن طال الانتظار..

واستحسنت والدتها ذلك التصرف واعتبرته موافقة ضمنية

على كل رغباتها.. أسبوع آخر وسيأتى الأستاذ منصور لتعلن خطبتها.. أو لتزف إليه. ستحدث أمور كثيرة.. ستسطع الشمس من الغرب، وقد لا تسطع أبدا.. ستقلب الأحوال كلها.. وتظلم النفوس. وتحترق الأعماق.. ستذبل الزهور وتموت الابتسامات.. ستنهار الآمال وتزف الأحلام قرابين لليأس.. ستنشق القلوب حسرة وترحل الطيور بعيدا.. وتتباعد الأحياء.. و.. أين أنت يا مدحت..

اغرورقت عيناها حتى كادتا تحجبان عنها الرؤية. انسابت الدموع على وجنتيها أحست بوهجها كجمرات خمدت ألسنتها فجأة فباتت أشد قسوة وأقوى تأثيرا.

نحن نحتمل البكاء.. بل كثيرا ما نسعى إليه، يفرج عن نفوسنا، يحنو على مشاعرنا ويرفق بها من شتى ألوان الضغوط. نحتمله فى آلامنا ونستعيره فى أحيان كثيرة لأفراحنا. ولكننا لا نحتمله مع المجهول.. بكاء الخوف، الذى يطوى توقعات قد نطرحها لغيرنا بقسوة لا نستشعرها، ونرفضها فى أعماقنا إذا ما أتت بها الظروف..

وهى خائفة...

التفتت صوب باب غرفتها، حيث ترامى إلى أذنيها صدى لسعال متصل، فأسرعت إلى الردهة ولكنها لم تتبين أمرا غير عادى، الأم تقطع الحجرات، تمارس شئونها، على حين التفت أشقاؤها قابعين على الأرض فى نصف دائرة غائبين فى لعبة مشتركة بادلوها نظرة سريعة يستفسرون عن تصرفها المفاجئ.. فانشغلت عنهم فى ترتيب ما أفسدوه كعادتهم حتى ساقتها خطواتها إلى الغرفة الثانية والتقت

عيناها بوجه أمها الذى استسلم للشحوب والهزال.

- كيف حالك يا أمى اليوم؟

- بخير يا ابنتى.. ولكن..

وانقطعت برهة لسعلة طارئة ثم أردفت:

- ولكن هؤلاء الأشقياء لا يكفون عن المشاجرة.. أخوك لم يذهب اليوم إلى مدرسته..

أطلقت شهقة وهى تهز رأسها كأنها تذكرت شيئا..

- ما كان يحدث هذا لو أطال الله فى عمر أبيك..

فربتت على كتفيها فى محاولة لتهدأتها.

- أنت هكذا دائما.. تثورين لضوضائهم، وتفزعين إذا ما صمتوا إنهم يملأون علينا المنزل بمشاجراتهم الكثيرة..

فابتسمت ابتسامة راضية وهى تستدير إليها:

- وأنت أيضا يا عبير. لست أدرى كيف سأقضى أيامى بدونك بعد أن تنتقلى إلى حيث يكون زوجك..

يالها من بشرى..

لم تعلق ووقفت أمام المرآة تمشط شعرها، كأن الأمر لا يعنيها ثم همست وهى ترمقها من خلال المرآة..

- غدا موعد استلام معاش أبى و.. وسأذهب الآن أحاول الاتصال بزميلتى اتفق معها على موعد لأعيد لها ما اقترضته.

- إذن انتظرى غدا..

- قد لا أجدها غدا.. ولن أتأخر كثيرا..

تركتها تتصرف غير راضية، ولكنها آثرت أن تصمت في سبيل الحفاظ على ذلك الجو الهادئ الذى ما لبث أن استكان أخيرا بعد آخر نقاش بينهما.. هى لا تريد لها مغادرة المنزل في تلك الفترة، تحس بإحساس الأم بأن ثمة أمرا قد يؤثر على موافقتها، تخشى عليها العناد من جديد. ولكن لن تتأخر..

انطلقت إلى الطريق تستقبل الرخات الأخيرة من المطر.. والشمس تبدو وتغيب حتى استقر أمرها فى الأفق من جديد..

لم تتزين كعادتها فى كل لقاء معه، تشق الطريق بعكس الريح فى عناد وهى تضم فتحة الفستان على صدرها تارة وأخرى تلحق بتلابيبه المتطايرة، فبدت يائسة بؤس الزهور المغلفة بأوراق السيلوفان، لم تأبه لكونها تجملت أم لا، قدر ما ارتضت بموافقة أمها للخروج، لم يعد الأمر فى حاجة للانتظار..

دخلت الحديقة بخطى متمهلة تستطلع كل ما حولها وهى لا ترى شيئا، الأمور طبيعية المارة والمتسكعون والعائدون من أعمالهم يقطعون الطريق اختصار للاتجاه الآخر ولكنها لا ترى شيئا، فما تريده لا تراه.. أحست أنها تسير فى فراغ لا يملؤه.. إلا انقباضة صدرها واضطراب نبضاتها، لابد أن يأتى وإلا..

- عبير.. عبير..

فالتفتت لتجد مالا يمكن أن يخطر على بالها.. وفى تلك اللحظة بعينها..

كانت سهير تعدو لاتجاهها فى قفزات صبيانية، وقــد أتقنـت على رأسها شعرا مستعارا ذيلت جدائله بضفائر بنية بلون بذلتها..

تصيح بها ملوحة بيدها.. واقتربت لاهثة..

- أرهقتنى بالعدو ورائك.. كدت لا ألحق بك..

لم تستطع عبير أن تعلق على كلماتها، الذهول سيطر عليـــها، وابتسمت ابتسامة متشككة باردة، على حين استطردت الأخرى:

- ما هذا.. تبدين كأنك لم تسعدى بلقائى.

فتداركت وألف سؤال فى عينيها..

- بالطبع لا .. فأنا سعيدة جدا.. بل بحثت عن عنوانك ولكنـى تذكرت أنى أعطيته لمدحت..

أقصد

فقاطعتها بعد أن استردت أنفاسها..

- ومن أجله أتيت.. ولأراك أيضا.

وأمالت رأسها قليلا وأردفت:

- ألم نتفق على أن نلتقى دائما..

يا إلهى ماذا يحدث..

- وماذا بشأن مدحت.. لماذا لم..

فلاحقتها..

- فى الحقيقة لقد توسل إلى لكى أنقل إليك اعتذاره، لأنه كما تعلمين لا يزال جديدا فى الشركة، وليس فى صالحه الانقطاع بعض الوقت.

- إنها أمور تحدث دائما للموظفين الجدد.

ثم رفعت يدها إلى جبهتها واستطردت مرة أخرى:

- أوه.. حقا أنا غبية، كدت أنسى أن أخبرك بشىء هام. لقد حدثت مصطفى عنك وأبدى استعداده لتلتحقى بالعمل فى الشركة.

ثم صرخت صرخة ممسوخة أرادت بها دلالا ومداعبة..

- الأمطار بدأت من جديد.. هيا نسرع إلى السيارة.. هيا..

وجذبتها من يدها وهى تسبقها بخطوات قليلة، على حين استسلمت عبير لتصرفاتها تماما وهى تحاول مجاراتها فى العدو ودون ابتذال، لا تدرى ماذا يحدث حولها. تاركة يدها كأنها ترى بعينى سهير..

الاعتذار غير مقبول.. غير منطقى.. ألم يفكر فى أمرى.. يعلم كل شىء ويتجاهله بالاعتذار، لم يأت فى موعده السابق، واليوم يرسل من تنوب عنه.. الموعد ثابت.. متفقان عليه. إذن لن يأتى أبدا كيف؟ ودخلتا السيارة وزميلتها لا زالت تأتى بحركاتها العابثة، والتفتت إليها وقد بدا السواد هلاليا أسفل عينيها بعد أن أزيلت المساحيق من على وجهها، ولو كانت تدرى أن الأمطار سوف تفضح أمرها ما هبطت أبدا من السيارة..

- أخيرا وصلنا.. أحب الشتاء وأمطاره.. أطيب أوقاتى كنت أقضيها وراء النافذة والأمطار تهطل بغزارة وأنا فى إنجلترا .. و..

- ألم يقل لك شيئا..



أدارت محرك السيارة وتحركت بها.

- لا.. عن ماذا..

- أقصد .. عن موعد آخر.

قالت باقتضاب شديد:

- لا..

وانتبهت عبير للسيارة وهى تخترق حارة السد المؤدية لحارة النبقة..

.. كان دقيقا فى وصفه، استطاع أن يصف لها الحارة بإتقـــان ولم يستطع أن يقدر ما يمكن أن يحدث لى..

- ذكاؤك واضح يا سهير.. لقد استطعت تحديد المكان بـــالرغم من أنك لم تأتيه من قبل.

فأطلقت ضحكة غير متوقعة وأجابت:

- لو كان الأمر كذلك.. لكنت أنت الآن تهيمين فـــى شـــوارع الزمالك أو جاردن سيتى..

ابتسمت مجاملة..

- لا أفهمك..

- لقد أتيت أنا وهو بالأمس إلى هنا.. وأشار إلى منزلك.

جاء يحمل حقائبه من منزله..

صمتت برهة ثم أردفت:

- قال إن مسكنه بعيد عن مقر عمله.. سيستقر هذه الفترة عنـد أحد أصدقائه القريبين من الشركة.

- وأشارت بسبابتها قائلة:

- هكذا قال.

وقفت السيارة أمام منزلها، وبدت وكأنها كتلة بشرية تنطلق على الأرض، خاصة بعدما تسلق عليها الأطفال جماعات وراء أخرى.. البعض للهو والآخر لرؤية ابنة حارتهم التى جاءت بسيارة خاصة.

تبادلتا قبلات خاطفة، وناولتها بطاقة أخرى مؤكدة عليها بضرورة الحضور إلى الشركة، وبدأت عودتها وسط جمهرة الأطفال من حولها وأمامها.. لم تحاول عبير أن تسعى لاستفسار آخر، مكتفية بما نقل إليها من أنباء.. كأن الأمر لا يعنيها كثيرا..

وكأن عينيها لم تدمعا من أجله منذ فترة وجيزة.. ولم تحلق مع الآمال سنوات طويلة لحياة حالمة تضمهما فى رحاب الحب والسعادة.

إحساس الغريب الذى يعود فلا يجد من يستقبله، والمريض الذى يئس من شفائه فيعتاد عليه.. لم يضطرب لها نبض أو تهتز لها أشجان، فقط أحست بالسأم المصحوب بالضياع وكأن ما يمكن أن يحدث غدا يكون أكثر سوءا أو أعظم أمرا..

وما كادت تصعد درجات السلم حتى آتاها من يستوقفها.

- آنسة عبير.. انتظرى يا ابنتى..

فالتفتت بعينين جامدتين، لتجد الرجل الطيب ربيع وقد بدا ودودا..

- كيف حال الوالدة اليوم..

- بخير..

وهمت بالصعود ألا أنه استوقفها من جديد..

– أتعرفينها.

أبدت دهشتها لسؤاله بنظرة صامته، فأردف..

هذه التى أتت بك الآن..

– أجل .. ماذا بشأنها يا عم ربيع..

– كنت أريد أن أسأل عن الأستاذ مدحت، فلقد رأيتـــه معـــها بالأمس وعلمت أنه أخذ حقائبه وانصرف..

وتمتم ببضع كلمات لم تتبينها واستطرد

– لم يفكر حتى فى المرور على.. ألم نكن يوما ضمن معارفه.

وأتى بابتسامة طيبة على شفتيه..

– أنا لا أطالبه بشىء على كل حال، وغدا سيأتى مـــن يقــوم مقامه لحساباتى، ولكن الواجب يا ابنتى.. إنى أتحدث عن الواجب يـــا ابنتى أم أنك ترى غير ذلك.

تعلم يا عم ربيع ما أجهله.. لابد أنكم جميعا تعلمـــون أشـــياء أجهلها.. أنا وحدى التى لا أعلم شيئا..

– فى الحقيقة يا عم ربيع أنا لا أعرف عنه شيئا.. كـــل مـــا أعلمه أنه أصبح يعمل فى إحدى الشركات.. و..

– المهم أنت يا ابنتى.. لا تقطعى أخبارك عنا.. أم ســـتفعلين فعلته بعد زواجك بإذن الله.

– زواجى..

فطأطأ رأسه متلعثما..

- لقد أخبرتنا الحاجة سليمة.. و..

عليها اللعنة تلك الثرثارة.

- كل شيء بأمر الله يا عم ربيع..

وصعدت الدرج مسرعة قاطعة عليه استرساله، وسكن الرجل في مكانه يلاحقها بدعواته.. لم يكن فى حاجة لأن يسمع منها جديد، أو يستوضح أمرا، فهو يعلم أكثر مما تتوقع هى، كل رجال الحارة يعلمون أكثر مما تعلم هى، وما أتاها ليحدثها إلا نيابة عنهم جميعا.

تصرف مدحت لم يكن طعنة تفردت فى قلبها، بل شملت صدورهم جميعا التى ضمت خيبة الأمل الكبير الذى طالما كان يراودهم فى مجالسهم.

ألا أن ربيع اختلف عنهم كثيرا فى تقبل ذلك التصرف الجاحد، بالرغم من أنه أكثرهم قسطا لرعايته وأقربهم إدراكا لاحتياجاته، ولكنه كان يأبى أن يظهر أسارير الحزن العميق قد يكون خشية من تهكمات بعضهم خاصة الأسطى قاسم الذى دأب على تحذيره من ذلك الإسراف فى رعايته وقد يكون عنادا مع نفسه ومعهم.. وعنادا مع أمر آخر يرفض أن يؤول لتلك النتيجة.. فلديه ابن مغترب سنوات ثلاث بعيدا فى بلاد الغربة ليكمل تعليمه.. ابنه الوحيد.. من أجله تهون عليه كل الأمور.. ومن أجله سخر كل إمكانياته.. من أجل أن يكون له ابن تزوج للمرة الثانية.. ورزق به بعد أن قضى خمسة عشر عاما مع زوجته الأولى أنجبت خلالها خمس بنات.. وكانت

فرحة أعادت لقلبه شبابا لم يألفه فى عمر الثلاثين يـوم أنجبـت لـه الثانية ولده..

فمنذ ذلك اليوم وهو يسخر نفسه وزوجاته وبناتـه وإمكانياتـه له.. لم يرفض له طلبا ولم يحجب عنه رغبة.. أراد الاغتراب فوافـق وقلبه يئن هلعا وحنينا.. ولكنه وافق.. منحه من الحب والحنان حتـى تصور أنه استقطب كل مشاعر الحب فى الدنيا وأحاطه بها.. ثـلاث سنوات يعيشها فى حروف رسائله التى ترد إليه، ومن أجلـه أيضـا كانت رغبته القوية لمساعدة مدحت..

قد يكون ولدى فى حاجة لمن يمد له يد المعونة..

فأسرف فى رعايته ومنحه من حنانه ما افتقده فى والديه كمـا أخبره.. كان يتابعه ويحول بينه وبين كل منغصات الحيـاة.. يـروح عنه إذا اكتأب.. وييسر نفسه إذا ما اهتم.. وكثيرا ما كان يأنس فـى حديثه معه عن ولده..

– إنى أخالك كابنى صفوت يا أستاذ مدحت.. سيعود مهندسا كبيرا..

ويبتسم فى طيبة..

– ستصبحون خير رفقاء...

كان يتأمله فى لحظات سكونه فيخيل لعينيه أن ملامح ولده قـد استقرت على وجهه فيقترب منه ويربت عليه فى حنان، كأنه يتحسس ذلك الجسد البعيد، ويتلمس أنفاسه ليطمئن عليه..

فكيف يقدم على ذلك التصرف..

أتراه يفعل مثله..

من أجل هذا كان يرفض ما حدث إلا لكونه أمرا طارئا، وستعود الأمور كما كانت وتطوى الأيام ما حدث..

ويعود كل شيء إلى مقره.. فيعود مدحت. بل ويعود ولده سالما حنونا بارا.

من أجل هذا أنكر على نفسه حقيقة ما يستشعره، وأنكر عليهم حقيقة ما سمعه منها ورآه.. فما كاد يستقر فى دكانه حتى تتابع عليه جيرانه الواحد تلو الآخر كل منهم يتكئ على وسيلة ليخوض فى ذلك الشأن وكأن لم يعد فى شئونهم إلا هذا الموضوع فاقترب الأسطى فهيم من أذنه هامسا..

– ماذا قالت..

فرفع عينيه إليهم جميعا وأجاب بصوت مسموع كأنه يريد أن يحيطهم بإجابة واحدة.. وكفى ..

– قالت أنهما متفقان على ذلك..

فضحك الأسطى قاسم وهو يرفع حاجبيه كأنه يخفى أمرا خطيرا

– وماذا عن الأستاذ منصور.. ألم..

فقاطعه ربيع متظاهرا بالغضب..

– وما شأنى فى ذلك.. قد يكونا متفقين عليه أيضا.

فتفرقوا من أمامه، كل إلى شأنه..

تركوه غارقا فى تساؤلاته.. ومخاوفه.. وهو يعلم أنهم غير

مقتنعين، فهم لا يختلفون عنه فى شىء.. وقد يكون كل منهم لديه أمـــر يخفيه كأمر ولده.. وكل منهم يرفض أن تتشـــابه أمورهـــم مـــع تلـــك النتيجة، فيجاهد ما استطاع حتى لا يتطرق للموضوع كثيرا أمامـــــهم.. واشتركوا معه فى محاولته، وبدا الأمر طبيعيا بالرغم من كل ما جـــد عليهم من تغير أساليبهم. سواء فى مناقاشتهم أو ضحكاتهم الســـــامرة.. يترقبون فى صمت شيئا هاما لا يتطرقون إليه.. يستغلون الأيام وكـــل منهم يحمل توقعات تتناسب مع هواه.. وقد وصل بـــه الرفـــض فـــى النهاية حتى بات يغيب كثيرا عن دكانه تاركا أمره للموظـــف الجديـــد الذى أتى به أحد معارفه، كأنه يهرب من واقع طارئ يأبى الاعـــتراف به، رافضا ما يمكن أن يأتى به ذلك الواقع من أحداث يمقتها فى نفسه.

ولم تكن عبير بطبيعة الحال أقل منه رفضا وأكثر منه تحملا.. فلقد كان جرحها أكبر من أن تزرف عليه الدمـــع، وأعظـــم مـــن أن تبحث عن وسيلة لالتئامه.. لأنه جرح لا يدمى.. والجـــرح الـــذى لا يدمى من المحال أن يلتئم أبدا إلا بجرح أو حدث أعظم.. وهى تنتظر الحدث الأعظم..

تنتظره دون إرادة..لا تعرف ما الذى تنتظره.. ولكنـــه نـــوع اختيارى من الاستسلام شأنها فى ذلك شأن كل إنسان يســـتيأس فـــى قلبه كل محاولة للتمرد على واقع لا يريده.. وهى لا تريـــد واقعـــا.. تعيش فيه طالما كانت غير مستقرة إليه، وتكون مؤمنة بأنه واقعـــها الحقيقى! كل هذا كان يتأجج تحت سطح الصمت الذى التزمت بـــه.. مختفيا وراء أسارير الـــهدوء والرضـــى.. تعيـــش لحظـــة ترقـــب

المجهول.. وهى نفس اللحظة التى تنشق فيها رقعة من الأرض تحت قبضة لهيب البراكين لتندفع فى طريقها حيث تتساوى جميع الأشـــياء وهى نفس اللحظة التى يجد فيها الطير وسيلة للهروب من قضبانــــه غير آبه لما يعترضه من شظية قاتلة تطلقها قذيفة صياد..

لحظة التمرد.. التى يجدها الإنسان فى ظروف ذاتيـــة.. إنـــها منتهى أمله، حيث يعلن عن رفضه لما لا يريده علانية، ولا يعنيــه إن كان سيحقق ما يريـــده أم لا.. المـــهم أن يجـــد الطريـــق والوقـــت المناسب.. وقد أتتها اللحظة من حيث لا تتوقع فكانت كالمنحدر الـذى يفاجئ مياه مسالمة فتلبث شلالا جارفة تعلن عن طوفان ساحق.

ففى ظهيرة نفس اليوم الذى استوقفها فيه عم ربيــــع وجـــدت الحاجة سليمة تجلس مع والدتها وهما فى حديث جذاب.. وما أكـــثر الأحاديث الجذابة التى تشمل أحوال الآخرين.

فجالستهما بعد أن تقدمت إليهما ببعض عبـــارات الـــترحيب، وكلمات الرجل لا زالت تتردد فى ذهنها كأنها تطاردها فى إلحـــاح.. وكم ودت فى تلك الآونة أن تطلب منها الاكتفاء بمـــا ادعتـــه علـــى الجميع، بل ودت أن تنال منها بكل ما يمكن أن يقـــال مـــن توبيـــخ ورفض لوجودها.. ولكن ما توده شىء وما يمكـــن أن تأتيـــه شـــىء آخر.. واكتفت بتحفظها عن أى تعليق وإمساكها عن مشاركتها فــــى الحديث إلا إنها وجدت نفسها مضطرة للخوض معها عندما اقتحمـــت العجوز حديثها مع الصمت قائلة..

- أتدرين يا عروستنا أن حظك من السماء.. وافـــق الأســـتاذ



منصور أن يقيم معكم فى البيت.. و..

التفتت الأم التفاتة سريعة وأردفت كأنها تؤكد على ذلك الحظ الذى يتدلى من السماء:

-حدثته من قبل عن أكثر من فتاة.. ولكنه رفضهن جميعا واختارك أنت.. قال إنك فتاة طيبة منكسرة.. أقصد فتاة ابنة ناس طيبين.. وسيقيم معكم.. بشرط.. فحدقتها عبير بنظرة صامتة وتبعتها الأم بنفس النظرة المتسائلة (فاعتدلت المرأة فى جلستها على الوسادة القابعة على الأرض استطردت:

– بشرط أن تسعى جديا فى الالتحاق بأى عمل.. فأنت تعلمين أن الظروف لا تسمح بتحمل أعبائك وأعبائهم معك بمفرده.

وكانت المرة الأولى فى حياة عبير التى تستشعر نفسها عبئا على الآخرين.. على من؟.. على إنسان لم يقترن بها بعد.. إنسان يشكو من أمرها قبل الالتزام بها.. يشترط أمرا لو تحقق لها لما راودتها مجرد فكرة الاقتران به.. وهى أخطأت مرة ولا تريد أن تواصل درب التضحيات الذى لا يؤدى بنتائج ترضاها.

ستحقق الشرط.. ولكن ليس من أجله.. ستحققه من أجل ألا تضع نفسها فى تلك الصورة.. لكى لا تكون عبئا فقد يكون ذلك هو إحساس الجميع نحوها..

قد يكون إحساس أمها أيضا.. من أجل ذلك صممت أن تحقق هذا الشرط لنفسها لا للآخرين.. ومنحها ذلك الإحساس الشجاعة لتواجه أمرها من خلال منطق مشاعرها وليس من خلال منطق

الظروف المحيطة بها..ذلك الإحساس الـذى جعلـها تتخطـى كـل التوقعات المحتملة، يوم استوقفت الأستاذ منصور بعد عودته بساعات قليلة من بلدته وكان لقاء مصادفة بعد حديثها مع المرأة العجوز كأنها كانت تضمر تلك الرغبة طوال الفترة السابقة لتتحين الفرصـة التـى تهيئ لها ما تريد، فبدا الأمر مصادفة. وهى الوحيدة التى تـدرك إن كانت كذلك أم لا.. اعترضت طريقـه بكيفيـة بـدت كأنـه الـذى اعترضها، ووقفت فى ثبات دون أن يبدو عليها أى ارتباك واسـتغرق أكثر من دقيقة ليستجمع فيها توازنه لتلك المفاجـأة.. فكـانت المـرة الأولى التى يقف فيها أمامها.. منفرديـن.. بعيـدا عـن النظـرات المختلسة.. أو التوسطات المتعددة.. يقف معها فى الحقيقـة وليـس أحلام اليقظة..

– أستاذ منصور.. هل تسمح لى ببضع كلمـات.. علـى أن يكون الأمر بيننا فقط..

همهم دون أن يجيب عليها واكتفى بابتسامة عريضة كشـفت عن أسنان متباعدة ومتباينة الأحجام..

– أريد أن أحدثك عن أمر الحاجة سليمة الذى أتت به إلينا..

فبدأت الابتسامة تنكمش على شفتيه حتى تلاشت، وسكن ينتظر أنباء المرأة فى برود، كأنه فوجئ بشىء غير متوقـع لذلـك اللقـاء الأول.. تصور أن تعبر له عن مشاعرها السعيدة أو فخرها بذلـك الاقتران السامى.. أن تختلس قبلة بعيدا عن أنظـار الآخريـن.. أن تطلب أى شىء.. إلا أن تبدأ حديثها عن الحاجة سليمة.. وأردفت..

– ولولا تأكدى بأنك إنسان واع ومثقف ما جازفت بالحديث معك فى هذا الشأن.. وباختصار أرجو أن تصرف نظرا عن ذلك الأمر الذى أرسلت من أجله الحاجة سليمة..

فتلفت حوله كأنه يبحث عن إنسان آخر قد يكون المقصود بكلماتها.. والتفت إليها عندما اكتشف بأنه صاحب الشأن.. وما كاد يتفوه حتى لاحقته وهى لا زالت محتفظة بهدوئها المثير..

– إنها ظروف خاصة بى .. و..

ولكنه قاطعها بغتة كأنه أفاق من غيبوبة لتوه..

– ولكن.. أقصد هل أسأت إليك فى شيء.. هل أخطأت هناك آخر...

فأشارت برأسها تنفى الأمر، مما شجعه لمواصلة الحديث:

– إذن لماذا ترفضين.. ثم..

– أرجوك يا أستاذ منصور.. اجعلنى أشعر بأننى أكتسب صديقا وأخا ولا تدفعنى لأن أخسر إنسانا نبيلا مثلك..

وتركته دون أن تنتظر منه إجابة أو محاولة قد تدفع بها للخضوع تحت تأثير أية ظروف تحيط بها، بينما سكن هو فى مكانه مشدوها لجرأتها وليس لطلبها، فلم يكن يتوقع أن يكون وراء تلك الفتاة إنسانة أخرى لديها ذلك القدر من الصلابة والإصرار الذى وضح فى عينيها أثناء حديثها معه.. على حين أحست هى بأنها تعيش لحظة عظيمة فى حياتها.. لحظة عبرت فيها عن إرادتها.. قد تكون مجازفة.. أو مخطئة.. ولكنها اللحظة التى يشعر بها الإنسان

تعبر عن كيانه، وتمنحه إحساسا بالحرية التى قد يفتقدها فـــى أمـــور كثيرة، اللحظة التى تتساوى فيها النتائج بالنسبة إليه..

فإذا فشلت فى إقناعه فلن يضيرها الاقتران به لأنه لن يقـــوى على أن يقبر حب مدحت من قلبها.

وإذا نجحت فلها الغد وما يأتيها به من أحداث جديدة..

وهاهى اليوم تلجأ إلى فرصتها الأخيرة.. أو قد تكون متعمـــدة أن تجعل منها كل الفرص معتمدة على إحساس المرأة الـــذى يجعـــل منها دائما أبدا تلك الخطوط السيريالية التى لا يدرك مقصدها الحقيقى إلا من خططها، فكانت سهير هى ورقتها الثمينة، فسعت إليها وهـــى نفسها لا تدرى أيهما أقرب إلى رغبتها.. الوصول إلـــى مدحـــت أم الحصول على العمل

تخطت الطريق المؤدى إلى الشركة التى تعمل بها سهير ومـــا كادت تصعد درجات السلم المؤدى إلى المصعـــد الكـــهربائى حتـــى تمهلت قليلا عندما لاحظت شخص فى انتظاره هو الآخر، وتقدمـــت ببطء فى الوقت الذى وصل فيه المصعد، فأفسح لها الطريق بتأدب ثم تبعها وأغلق بابه دونهما.. وأبدى إشارة بعينيه فـــى تـــردد منتظـــرا إشارتها للدور الذى ترغبه.. فهمست..

- الرابع..

ولكنها ما لبثت أن رمقته بنظرة سريعة ثم ابتعدت بها للاتجـــاه الآخر فاصطدمت بالمرآة التى تعكس صورته أمامها..

ما هذا؟

أحست إنها تعرفه جيدا.. ملامحه اقتربت بسرعة مذهلة إلـــى ذاكرتها.. إنها نفس الملامح التى اصطدمت بها كثيرا..

ولكن أين.. العينان الصارمتان الهادئتان اللتان تعـــبران عـــن شخصية قوية.. وجذابة أيضا.. وهذا الشعر الداكن الذى تبرق سوالفه ببريق فضى يضيف إلى وجهه المستطيل وقـــارا واتزانـــا.. القـــوام المعتدل .. و الأناقة الزائدة.. وتجاهله المتعمد أو غير المتعمد.. كـــل هذا أحست به تجاهه كأنها كانت معه فى لقاء بالأمس القريب.. إنـــها تعرفه.. ولكن كيف ومتى وأين.. هذا ما التبس عليها..و.

وصلا إلى الطابق الرابع، فانتحى جانبا كما فعل فى البدايـــة، واتجهت إلى نفس الممر الذى خطا عليه يوما مدحت، ولـــم تلتفـت بالرغم من إنها شعرت بوقع قدميه خلفها.

اخترقت الردهة دون أن يستقبلها أحد، ثم دلفت إلى أول غرفـة صادفتها لتجد نفس المجموعة السابقة.. أو عين الحال الـــذى وجـده عليه مدحت عند قدومه فى المرة الأولى.. وكأنها صورة فوتوغرافية لهؤلاء الأشخاص..

عفاف إسماعيل موظفة الحسابات وأقدمـــهن فـــى الشـــركة، عاصرت كافة موظفيها سواء الذين استمروا أو الذين تواروا بعيـــدا لأسباب لا يعلمها أحد سواها وصاحب الشركة.. سمراء البشرة، لـــها عينا قط الغابة.. وشفتان زنجيتان عريضتان وشعر قصير لا يتناسـب مع طولها الفارع، وان كانت تمتـــاز بقـــوام يحسـدها عليـــه أكـــثر

زميلاتها، باستثناء سهير.. التى استطاعت أن تخضعـــها لسـلطانها بالرغم من حداثة تعيينها فى الشركة.. فاستســلمت لـــهذا الخضـــوع بسلاح لم يستطع أحد قهره حتى ولا هى.. لسانها الحاد السليط وقـــد انحصر طرفه فبدا كأنه سوط صغير يتحـــرك داخــل فــراغ فكـــها الكبير.. وعلى مقربة منها يجلس أحمد دياب.. مندوب المشتريات..

له بشرة غريبة اللون تضرب للصفرة تحت الشمس وللســمرة فى أى مكان آخر، ويبدو من أول وهلة أن كل شـــىء فيـــه دائـــرى الهيكل.. عيناه كالحلقتين.. ووجهه المستدير يستقر على جسد يـــترنح على قدمين مقوستين إثر مرض فى صغره.. له شارب غير منســـق البتة عريض تدلى طرفاه على شفتين ضخمتيـــن.. يحســن مجاملـــة عفاف فى كل هواياتها خاصة الأمور التـــى تشـــمل الآخريـــن فـــى حياتهم.. استقر فى ذهنه أن احترام المرأة يتحتـــم عليـــه أن يكـــون واضحا، خاصة بعد أن وقع فى يده يوما كتـــاب لأحـــد المغـــامرين لأعماق المرأة مشيرا فيه إلى إنها تعجب بالإطراء وصاحبـــه فـــدأب على احترامها بطريقته الخاصة.

يقف منتصبا كلما وقعت عيناه على أيـــة امـــرأة.. فـــى الســيارة العامة.. فى السينما.. فى العمل.. ولهذا كان هو أول مـــن يقـــف لســـهير وغيرها.. وكما فعل الآن عند ظهور عبير على باب الغرفة وقد انفرجـــت شفتاه عن ابتسامة يصعب رؤيتها من خلال ذلك الشارب المتهدل..

وفى الجانب الآخر يقبع الأستاذ عبد اللطيف مراجع الحســابات الذى استلم مؤخرا ما يفيد بأنه أصبح رئيسا للقسم.

وهو صاحب الصلعة الشهيرة التى باتت حديث الجميع، بعد أن أعلن عن حصوله على دواء نجح عالميا فى علاج الصلع ومنذ ذلك اليوم والجميع يتابعون تطور صلعته فيتممون عليها كل صباح، البعض للمزاح فقط وآخرون برغبة الفضول.

وكم كانت تطربه كلمات الاطمئنان التى يتبعونها معه كلما أرادوا تحقيق أمر من الأمور.. خاصة سهير التى دأبت كلما أرادت الانصراف مبكرا أو الحضور متأخرة أن تمهد لذلك ببعض عبارات الاطمئنان والأمل.. الأمل المفقود كما كانت تردد هامسة عندما يكون منشغلا عنها..

وقفت عبير مترددة على باب الغرفة، فى الوقت الذى ترك فيه أحمد دياب مكتبه متجها نحوها تسبقه ابتساماته ودنا منها قائلا..

– أهلا ومرحبا بك.. هل من خدمة أستطيع أن..

– أسأل عن الآنسة سهير.

فالتفت إلى زملائه كأن مهمته انتهت عند ذلك الحد، وينتظر منهم الأوامر الجديدة.

ثم انتبه على صوتها:

– هل هى موجودة؟

– هه.. لا.. أقصد إنها لم تأتى اليوم.. ولا أمس.. ولا.. ولكن قد تأتى الآن..

تفضلى..

قال وهو يشير إليها إلى الداخل، بينما تراجعت عبـــير ببــطء آخذة طريق العودة، فاستوقفها..

– إذا جاءت ماذا نقول لها..

– عبير..

وتركته شاكرة، على حين تصلب فى مكانه مغلقا عينيه وقـــد ملأ صدره بالهواء من خلال نفس عميق كأنه يتنسم ذلك العبير الــذى أتاه من حيث لا يدرى.

مرة أخرى استقلت المصعد واستندت برأسها إلى أحد جوانبـــه كأنها أحست الآن فقط بكل عناء الماضى.. كأنها تعلـــن استســلامها لذلك الحظ العاثر الذى أطال ملازمته لها.. فما أتعسها تلك اللحظـــة التى يشعر فيها الإنسان بالفشل قبل أن يبدأ فـــى محاولـــة النجـــاح.. رفعت إصبعها لتضغط على الزر الذى سيهبط بها ولكنها تراجعـــت فجأة كأنها تذكرت شيئا اقتحم فكرها فاستجابت له، وتركت المصعـــد عائدة إلى الداخل.. وانتفض أحمد دياب من جديد وبابتسامة الفوز قــد علت شفتيه كأنه يبتسم لنفسه ولشخصه الذى أوقعها فى حبائله فعـلدت إليه راضية..

ولكن سرعان ما ذابت تلك الابتسامة على فمه، عندما تجاهلتـه واتجهت إلى عفاف قائلة:

– هل أستطيع محادثة مصطفى بك؟

فرمقتها بنظرة فاحصة شملتها من رأسها إلى القدر الذى يسمح

لها أن تراه وهى قابعة فى مكانها.. وأجابت بتهكم..

- أنت على موعد..

فأشارت برأسها تنفى ذلك..

فالتفتت إلى رئيسها التفاتة سريعة ثم عادت بوجهها إليها وتمتمت قائلة:

- إذا كنت تنوين السؤال عن صديقتك.. فنحن..

قاطعتها بهدوء:

- لا .. أريده شخصيا..

يا لك من فاجرة..

رددت فى صمت.. ونهضت من وراء مكتبها فى تثاقل وفى عينها نظرة خبيثة.

- تفضلى..

وتقدمتها بخطوات قليلة مخترقة ممرا آخر صغيرا انتهى بهما إلى غرفة مغلقة.. فاستمهلتها برهة ثم عادت إليها قائلة بنفس النبرة التهكمية..

- تفضلى ...

دخلت وهى تبذل مجهودا كبيرا فى محاولة للاحتفاظ بهدوئها واتزانها.. بالرغم من ذلك لم تفلح فى السيطرة على القشعريرة التى شملت كل جسدها، ولا على نبضات قلبها التى بدت فى ساحة أعماقها كطبول الحرب..

يا الهى.. ما هذا..

الرجل الذى التقيت به فى المصعد، هو نفسه مصطفى بك الكيلانى..

حقا إنه هو.. كيف لم تسعفنى ذاكرتى.. كيف..

- تفضلى..

رفع عينيه نحوها مشيرا إليها بالجلوس.. لا ابتسامة مشجعة.. لا أسارير مرحبة.. لا شىء مطلقا سوى حركة تكاد تكون غير واضحة ظهرت على شفتيه وهو يهمس إليها بنبرة مقتضبة جامدة، تقدمت مرتبكة متخذة مكانها حسب إشارته، واضطربت ما بين الحديث والابتسامة، ثم قالت بهدوء:

- جئت أسأل عن الآنسة سهير..

فأجاب محتفظا بأساريره الجامدة..

- ألم يخبرك أحد فى المكاتب الأخرى..

يا له من موقف إنه يطردنى بأسلوب مهذب..

- أخبرونى إنها لم تأت اليوم.. ولكن..

استقرت نظرته على عينيها اللتين أصيبتا برجفة متوترة فزاغت بعيدا عنه كأنها اصطدمت بعاصفة قوية اضطرتها للإجفال، ثم أتاها صوته المعتز بنفسه:

- ولكن ماذا..

لا مفر إذن من المجازفة.. أو التطفل.. وليكن ما يكون..

- ألا تذكرنى يا أستاذ مصطفى.

قالتها وهى ترسم ابتسامة باردة على شفتيها، أحست بها

مناسبة فازدادت اضطرابا فى أعماقها..

تمهل قليلا وهو يشعل سيجارته، ثم أحاط وجهها بنظرة هادئة واثقة.. أحست بها تغوص فى قلب ذكرياتها لينكشف من خلالها غطاء كل السنين التى مرت عليها.

أحست به يسترجع مع عقلها الباطن كل حدث فى حياتها.. فأسقطت عينيها كأنها تضلله بعيدا عن أشياء لا ترغب فى الإفصاح عنها..

وتمتم بتأدب..

– فى الحقيقة لا ..

.. أنت حمقاء يا عبير.. كيف تظنين.. أو تطمعين فى أن يذكرك.. ليست كل العيون التى تستهويها صورة مثل صورتك.. خاصة عيون كعينى مصطفى الكيلانى..

– أنا عبير.. صديقة الآنسة سهير.. و..

رمقها بالتفاتة أدركت معناها دون عناء.. فلاحقته كأنها تتراجع عن أمرها..

– زميلتها.. زميلتها فى الوقت الذى كنت فيه حضرتك بالكلية..

وكانت أول ابتسامة تراها على فمه طوال فترة المقابلة.. سقطت على شفتيه، وبسببها توردت وجنتاها خجلا.. وبادرها قائلا..

– حقا لقد حدثتنى عنك سهير يوما.. وعلى كل حال يمكنك يا آنسة.. يا آنسة..

فأسرعت وهى تكتم فرحة تتوقعها..

-عبير.. اسمى عبير..

- يمكنك يا آنسة عبير مباشرة عملك ابتداء من اليوم.. سيطلعك الأستاذ عبد اللطيف على اختصاصات سهير.. ستحلين مكانها.. و..

ولكنه توقف عند التفاتة منها أبدت فيها دهشتها.. فأردف..

- لا تتعجبى.. تركت العمل منذ يومين..

واستطرد مسترسلا فى تحفظ..

- لو كنت صديقتها لأدركت أن سهير لم تخلق للعمل الجـاد.. والآن يمكنك الانصراف.

زاولت عبير عملها فى نفس اليوم، كأنها أرادت أن تثبـت أن الأمر حقيقة وليس خيال، .. أنه واقع وليست لحظات إرهـاص مـع أحلام اليقظة التى دأبت على الاستنجاد بها كلما ضـاقت الظـروف حولها.. ولكنها الحقيقة..

أكدها اسـتقبال زملائـها .. والكتـب.. والأوراق.. ورنيـن التليفون.. وحفل التعارف التى أقيمت بأسرع من ترديـد الإشـاعات على ألسنتهم..

التفوا حولها، كل منهم يريد أن يستأثر بنصيـب كبـير مـن معرفة كل شىء عنها.. وكذلك إعطاء صورة مثالية عـن نفسـه.. يسألون فتجيب.. وتسأل فيتسابقون فى الإجابة..

عرفوا عنها الكثير.. وعرفت عنهم مع مرور الأيام ما كـان يصعب معرفته فى السابق.. عرفتهم طيبين.. متماسكين.. يشـتركون

جميعا فى حل مشاكلهم حتى الحياتية منها.. اســتطاعت فــى فــترة وجيزة أن تحتل مكانة عظيمة فى قلوبــهم جميعــا بــلا اســتثناء.. واعتادت عليهم راضية ســعيدة.. اعتــادت تعليقــات أحمــد ديــاب وأقاصيصه مع أساطير مغامراته.. وعلى ثورات الأستاذ عبد اللطيف السطحية التى لا تنقطع.. وعى أخباره.. حتــى إنــها بــاتت تســلك مسلكهم فى الاستفسار مثلهم عن تطورات صلعته وما نبت عليها مــن شعيرات وهمية.. واستطاعت بلباقــة ومرونــة أن تصــل بعفــاف إسماعيل إلى مستوى الاقتناع بأنها شىء آخر مختلف عن زميلتــهم السابقة، خاصة عندما لاحظت محاولاتها المتكررة فى الدخول معــها إلى حيث لا ترضاه لنفسها، ولم تترك سبيلا إلا وانتهجته فى بــادئ الأمر لكى تدفع بها لنفس طريق سهير.. باللين تارة.. والتهكم تــارة أخرى.. ولكنها قاومتها بإصرار محرزة فى كل محاولــة انتصــار يضيف إلى قلوبهم رصيدا جديدا لمكانتها.. وكانت نهاية المطــاف.. يوم انتحت عفاف بها جانبا ثم همست فى أذنيها بإلحاح مستتر:

– ألم تلاحظى نظرات مصطفى بك لك.. إنه يأكلك بعينيــه.. لقد حدثنى كثيرا عنك.

فما كان منها إلا أن أجابت:

– عفاف ألن تكفى عن تلك الأوهام.. يبدو أنك لا تريدين لــى البقاء معكم، إذا لم تكفى عن تلك المحــاولات ســأضطر آســفة لأن أكشف ذلك الأمر للجميع.. وأترك العمل بالرغم من حاجتى إليه..

ومنذ ذلك اليوم اكتفت عفاف بما قامت به من محاولات، بــل

وأفصحت لها فيما بعد عن حقيقة مقصدها، وتصورها بأنها قد تتشابه فى سلوكها مع سهير.

ودأبت على تقديم النصح لها كلما حانت الظروف، كأنها بذلك تقدم الاعتذار وتطلب الصفح عما بدر منها.. واستطاعت عبير بقلبها الكبير أن تنسى أو تتناسى كل ما حدث وباتت تتقرب منها أكثر من ذى قبل حتى اختلطا فى صداقة مخلصة لا تشوبها شائبة. ولم تكن عفاف إسماعيل كاذبة فيما قالت.. ولم تكن محاولاتها السابقة اجتهادا ذاتيا منها أو إشباع هواية لديها..

كما أن عبير لم تكن هى الأخرى غافلة عما يحدث من حولها.. بل أدركت تلك الحقيقة منذ اليوم التالى لاستلامها العمل..

ملاحقتها بنظراته.. استدعاؤها فى الأوقات المناسبة وغير المناسبة..

حتى باتت تمكث فى مكتبه أكثر مما تقضيه بينهم.. أو على مكتبها.. كان يطلبها فى كل كبيرة وصغيرة.. حتى الأمور البعيدة عن تخصصها..

ولكنه لم يحاول قط أن يخوض معها فى حديث خارج نطاق العمل.. لم تتغير أساريره الجامدة.. وعيناه الحازمتان الصامتتان.. ولا فى تجاهله المصطنع، بالرغم من تواجدهما المستمر فى المكتب.. كان يستدعيها عن طريق زميلتها.. أو أحد زملائها.. ولكنها كانت تشعر به يقتحم كيانها فى إصرار لا يكل.. وكثيرا ما حاولت إقناع نفسها بأن ما تراه أو تشعر به ما هو إلا وهم لا شيء

فيه الحقيقة..

كان يعاملها بكيفية يصعب عليها تحديد نواياه.. كالصياد المدرب الذى لا يمل من مراوغة فريسته وهو موقن من إنها لا محاولة ستكون فى النهاية تحت قبضته..

إلى أن وصل بها ذلك الإحساس للحد الذى تطارد فيه نفسها.. وكأن القدر قد أبى عليها أن تهدأ نفسا بعد تلك الرحلة الشاقة.. فبالرغم من التغير الواضح الذى طرأ على حياتها بشكل عام.. سواء فى مظهرها أو مظهر أسرتها.. والرخاء الذى بدأ يطرق بابهم بعد جفاف موردهم.. إلا إنها تعايشت مع نوع جديد من القلق.. ولكنه مستطاب بالرغم من مظهره المخيف.. لأنه القلق الذى يدغدغ كوامن المرأة عادة فى مثل تلك الظروف.. القلق المصحوب بالغموض.. وذلك أكثر ما يثيرها هى.. أو غيرها.. ولكنها كانت تخشى المجازفة فى محاولة ذلك الأمر.. فكلما سيطرت عليها تلك الفكرة سرعان ما ترجئها.. ولا تنبذها، عندما تعود بذكرياتها إلى الماضى القريب وتسترجع ظروفها القاسية، فتخشى أن تصل إلى نتيجة لا تحمد عقباها.. فتراجع فى تحفز كما تتراجع القطة متحفزة للفرصة المناسبة لتنقض بلا تردد.. وهى سعيدة.. سعيدة بحياتها الجديدة.. بانتصارها على الخوف والفقر.

منحها ذلك الإحساس بالثقة فى نفسها.. وفى تفكيرها.. منحها الاطمئنان والسكينة.. باتت ترى الآخرين من حولها، كأنهم أسرتها الكبيرة.. أو عزوتها عند الحاجة. حارة النبقة بأكملها جزء من كيانها..

تتعايش مع أفراحهم وأحزانهم.. كانت تبحث فى عيونهم غن رضائـــهم عليها.. تسعى إليهم جميعا.. تستفسر عن أحوالـــهم.. وهـــم يتابعونـــها بمشاعرهم الصادقة، يستقبلونها كل يوم بلهفة كبيرة كما لو كانت غائبـــة عنهم.. يتسابقون لمعرفة أخبارها.. وتمنحهم حق النصيحة والطاعـــة.. لم يكن انتماؤها لهم مفروضا عليها أو غائبا عنها.. لم يكـــن مســـتحدثا مع حياتها الجديدة.. بل كان قائما بنفس الرابطـــة التـــى تراهـــا الآن.. ولكن عينيها فى الماضى كانت مشغولتين بلحظات الـــترقب القاســـية للغد.. اليوم باتت تستشعر ذلك الحنان وتؤنس به نفسها فـــى الذهـــاب والإياب.. وكم كانت سعادتها يوم عنفها عم ربيع صباحا أثناء ذهابـــها للعمل.. رآها لا تحتمى بسترة ثقيلة تقيها لسعات البرد وأرغمها علـــى العودة.. وفعلت ما أراد، ولم تشعر بالضيق يوم طلب منـــها الأســـطى فهيم أن تتولى رعاية أطفاله فى دروسهم مرة كل أسبوع.. بل أحســـت به التزاما ترضى له النفس.التزاما لم تعهده من قبل.. كانت تفتقده فـــى الوقت الذى كان يمكنها فيه أن تقدم عليه.. ولكنها رفضتـــه.. رفضتـــه دون أن تدرى، موقفا ورغبة.. فهى لم يطرأ على أعماقها شىء جديـــد تجاههم ولكنها أحست بالحرية.. أحست إنها تقتص من وقتها راضيـــة.. أحست باقتناع لهذا الواقع الجديد.. فعاشت فيه بكـــل مـــا لديـــها مـــن حواس.. ولكن..

هل يمكن لمجرد حصولها على عمل أن يحدث لها هذا التـــأثير السحرى..

هل كانت تلك هى أمنيتها البعيدة.. فحققتها.. ولكنها يوما مـــا

وهبتها لغيرها.. وهبتها راضية فى سبيل أمنية أعظم تأثيرا مما تعيشه الآن.. فكيف استطاب لها ذلك الواقع..

لابد أن هناك أمرا ما تسعى لقبره فى صدرها.. ترفض محاولة الاقتراب منه بفكرها.. لا تريده عاريا أمام نفسها.. قد يكون هو نفسه السبب فى اهتمامها بحديث زميلتها فى العمل..

قد يكون سببا آخر يدفعها للتعبير عن انتمائها لكل من فى الحارة.. هل هو الإحساس بالانتصار والندية فى علاقتها بسهير.. أو الرغبة فى المعاملة بالمثل.. أم إنها أرادت أن تثأر لكرامتها بعد تصرف مدحت حمدى، فباتت تغمرهم بالحب والحنان لتذكرهم دائما بأنه كان غير أمين لرعايتهم له..

أم أنه العناد الذى يستقى قوته من نزيف الكبرياء.. عاندت فى إصرار حتى خالها أن قلبها لا يزال عزيزا قويا.. لم يقهره الحرمان أو تذله الحسرة.

ذلك ما كانت تخشى الاقتراب منه بفكرها.. وربما دفعها هذا لعدم الانفراد بنفسها كثيرا حتى لا تخضع له برهة فتكلفها عناء ليال طويلة من القلق والألم..

فقط اكتفت بأنها تشعر بالسعادة.. حتى لو كانت تجهل مصدرها..

كانت الزينات قد رفعت على جدران المبانى.. والمصابيح الملونة قد تدلت فى سكون وتناسق جميل.. الطرقات تموج بسائريها وقائدى السيارات.. الأعلام تغطى مساحات كبيرة من المحال المتجاورة.. وفرقعة بارود الأطفال تنطلق من كل اتجاه.. الوجوه

مبتهجة والأسارير منفرجة.. كل المصالح معطلة احتفالا بعيد الأضحى.. وكانت أم عبير فى أسعد لحظاتها وهى تعاون أصغر أبنائها على ارتداء ملابسه الجديدة، ليلحق بأخويه اللذين تركاه يتعثر فى شئونه منصرفين وكل منهما يسعى لتحقيق رغباته فى تلك المناسبة من ركوب دراجات وشراء كل ما يشتهيانه من حلوى.. وما كادت تنتهى حتى تخلص من بين يديها منطلقا إلى الخارج وهو يتوعد شقيقيه محدثا نفسه بصوت مرتفع بأنهما سيندمان على عدم مرافقته فهو أيضا سيأتى بأشياء تبهرهما بتلك القروش التى يضعها فى كفه.

فتتبعته بنظرة راضية مطمئنة، ثم التفتت إلى عبير التى أوشكت على الانتهاء من ارتداء حذائها قائلة..

- أتعلمين يا ابنتى أننى لا أكف عن الدعاء كلما سقطت عيناى على أخواتك وهم سعداء

- فابتسمت لها وهى تردد لكليهما تمتمات غير مفهومة.. وأردفت الأم مرة أخرى وهى ترمقها بنظرة فاحصة:

- تبدين كالملاك بفستانك الجديد يا عبير.. خاصة وأن الحذاء متناسق معه فى لونه.

فاقتربت منها وهى ممسكة بطرف فستانها، وتدور حول نفسها فى خطوات راقصة ثم جلست بجانبها وقبلت جبينها فى حنان، وأجابت..

- أنتى يا أغلى الناس.. عيناك لا ترانا إلا فى الصورة التى تريدينها.

دنت مرة أخرى تقبلها واستطردت:

- سعادتنا نحياها فى ابتسامتك ورضاك يا أمى..

- أنتم يا ابنتى الحبيبة كل حياتى.. أنى أنتظر أمنية واحـــدة.. وبعدها سيهدأ بالى وتكمل سعادتى..

وهى تداعبها فى شعرها..

فزاغت ببصرها واستفسرت كأنها حقا لا تدرى..

- أى أمنية تلك التى تراودك يا أمى.. وأنا أفتديها بعمرى فى سبيلك..

فضحكت الأم وهى تربت على كتفها بحنان:

- هذه أول مرة أكتشف فيها أنك ماكرة يا عبير..

وانقطعت برهة للتخلص من سعلة متطفلة على ضحكتها ثـــم أردفت فى تأكيد.

- ولكن ذلك لا يمنع أنك أجمل ما فى دنياى.

وانتبها الاثنان على طرقة خفيفة صاحبتها أصوات خطـــوات متعددة على الدرج الخارجى فأسرعت عبير وفتحـــت البـــاب لتجـد أمامها عم ربيع يسبقه خجله الطيب وبشاشة وجهه الوقـــور، ومـــن ورائه بدأ الأسطى قاسم يتقدم خطوة ويستبقى الأخـــرى.. وخطـــوات أخرى على الدرج لم تتبين أصحابها باستثناء صوت المعلـــم عبـــاس بكلمته المعتادة التى يرددها دائما فى مثل تلك المناسبات..

.. يا ساتر..

فتحت الباب على مصراعيه وهى تهلل لقدومهم:

- تفضل.. تفضلوا جميعا..

وأفسحت الطريق فى استقبال صادق البهجة، على حين اندلف عم ربيع إلى الداخل وتبعه الأسطى قاسم، ثم تلاهم كل من الأسطى فهيم والأسطى محمد.. وعبودة المشاكس بسترته الجديدة وقد أحاط عنقه بوشاح من فرو الأرانب كأسلوب مستحدث للأزياء الحديثة كما كان يذكر دائما للأسطى فهيم كلما التقى به فى الطريق، ووقفت الأم وسطهم ترتب جلستهم وهى تردد عبارات الترحيب لكل منهم على حدة.. واختلطت الكلمات بينهم جميعا.. واستمر الحال هكذا بضعة دقائق إلى أن حزم عم ربيع الموقف بصيحة معاتبة للجميع على فوضاهم والتفت إلى الأم محدثا إياها فى تأدب وهو يحزم عباءته التى لا يرتديها إلا فى مثل تلك المناسبات.

- جئت.. أقصد جئنا جميعا لنهنئكما بالعيد يا أم عبير.

فأجابت وهى تدير رأسها نحوهم جميعا.

- أنتم الأهل والأصدقاء.. والمنزل منزلكم يا عم ربيع.

فنظر إليهم نظرة متعالية بعض الشىء كأنه يود أن يقول لهم..

هكذا يكون الحديث.. ولكنه فوجئ بانتفاضة الأسطى قاسم مرة واحدة ووقف عن الكلام عندما لاحقه عبودة قائلا:

- أنت هكذا كالشريك المخالف.. ما من اجتماع إلا ووقفت تفخر ببضع كلمات حفظتها فى مدرستك الابتدائية منذ الأزل.

فجلس الأسطى قاسم أو خار على مقعده دون أن يتفوه ببنت شفة معتبرا اعتراض عبودة أمرا بالجلوس بشكل غير مباشر فتدخلت

عبير قائلة وهى تقدم بعض أكواب العصير.

- اتركه يا عبودة نريد أن نسمع كلمات الأسطى قاسم.

فرمقه بنظرة جعلته ينتفض من مكانه مـــرة أخـــرى ولكنـــها انتفاضة خوف وهلع، واحتاج الأمر منه إلى ما يقرب من دقيقة حتـــى استعاد ثقته واطمئنانه ثم بدأ حديثه قائلا:

- لقد جئنا اليوم يا أم عبير لكى..

ولكنه أمسك عن الكلام مرة أخرى عندما قاطعه المعلم عبـــاس محدثا بصوته الجهور فى صيحات متتالية كأنه يتزعم مظاهرة..

الله.. الله.. ما هذه الكلمات العظيمة يا أسطى قاسم أفندى.. الله.. على الطلاق..

فاستوقفه الأسطى فهيم:

- لا داعى لذلك يا معلم .. فأنت صادق.

فالتفت إليه بامتنان كأنه يشكره لإنقاذه ثم أردف:

- وحياتك عندى يا أسطى قاسم أفندى أنت رجل غير مقـــدر فى حارة النبقة.. بل فى العالم كله.

وضج المكان بالضحك، فتسلل الأسطى قاسم إلى مقعده وهـــو يعبث بالمنشة التى لا تفارقه مطلقا على حيـــن تدخلـــت الأم لتـــهدئ الموقف بلباقة وقالت محدثة عم ربيع:

كيف حالك يا عم ربيع.. وكيف حال أولادك.. والعمل..

- كل شىء على أحسن حال يا أم عبير..

وما كاد ينتهى من كلماته حتى انطلق الأسطى قاسم ضاحكـــا بشكل مفتعل ملتفتا إليها قائلا:

- اسأليه يا أم عبير عن موظفه الجديد. اسأليه:

فابتسمت له مجاملة، على حين صاح ربيع مدافعا عن نفسه:

- ماذا عن الموظف الجديد يا أسطى قاسم.. هل كنت تريــد منــى أن أستبقى إنسانا له عينان زائغتان مثل عينيك.. ثم التفت إلى أم عبير..

- أيرضيك هذا يا أم عبير..

أجابت وهى تكتم ضحكتها:

- لقد عدتما بذاكرتى إلى عشر سنوات مضـــت.. ولا أتوقــع منكما أن تتغيرا مهما طال الزمن كما لا أتوقع أن هناك مـــن يفــوق مقدار حبه لك كما يحبك الأسطى قاسم.

فتململ عم ربيع على مقعده وهو يتمتم ببضع كلمات متلاحقـــة غير مسموعة ثم أعقبها بقوله:

- أنت دائما تسانديه على يا أم عبير..

وأدار وجهه نحوه مستطردا:

- هو بدونى كاليتيم.. كما أن رأسى هو الوحيد الذى جعلـــت منه حقلا لتجاربه كلما أراد أن يبتدع صيحة جديدة، من موضاته التى تبوء دائما بالفشل.. و..

فقاطعه قاسم وهو يلوح بيده مفتخرا:

- يكفيك أن رأسك دخل التاريخ..

اشترك الجميع فى ضحكة من القلب، على حين تقدم كل منهما تجاه الآخر وتعانقا عناق الهدنة كما كانا يرددان دائما..

فنهض الآخرون إثـــر ذلــك الموقــف معلنيــن انصرافــهم والابتسامات تعلو شفاهم، وبدا الواحد تلو الآخـــر فـــى الانصـــراف يتقدمهم عبودة المشاكس فى قفزات على الدرج وهو يضرب الجـــدار بقبضة يده برفق مع كل قفزة، فيشعر صاحب الحظ التعس الذى كـــان وراءه مصادفة وهو الأسطى فهيم بأنها تستقر على فكه أو قلبه، ومـــا كادت الأم تنتهى من توديع آخرهم حتى انطلقت عبير إلـــى غرفتـــها وفتحت نافذتها لتتابعهم وهم ينصرفون إلى حالهم.. ومـــا أن أطلـــت برأسها حتى تراجعت وأحست بقدميها فى طريقها تعجزان عن حملها من شدة المفاجأة وكأنها لم تستقبل النسمة الهادئة التى اعترضتها بـــل استقبلت حمما من ألسنة اللهيب، أو كأنها تلقت صفعة قاسية باغتتـــها فى لحظة غادرة من لحظات الزمن عندما يعلن عنـــاده.. مســـتحيل مدحت حمدى..

رددت فى صمت وهى تدقق النظر مرة أخرى كأنها تتأكد مـن حقيقة ما تراه بالرغم من إنها ليست فى حاجة إلى ذلك.

ولكنه هو...

وسرعان ما قبرت الثورة فى صدرها، وانســـحبت قـــرارات أعماقها فى مذلة بعدما هيأت نفسها لاتخاذ موقف باتت ليالى طويلـــة تدرب مشاعرها عليه.. إنها لن تسمح لعاطفتها يوما بأن تتحكم فــــى تصرفاتها.. ستسد أذنيها عن كل نداء يصدر منه.. لـــن تتقبـــل أيـــة

مبررات.. لن تدع له الفرصة مرة أخرى..

ولكن كل شيء بات وكأنه لم يكن بعد ما أحست بـــه يتلقـــى الاستقبال الفاتر الذى استقبله به البعض خاصة عم ربيع.. وتجـــاهل البعض الآخر له منصرفين كأنه لا وجود له بينهم..

ووقف مدحت أمام دكان عم ربيع وقد ذابت الابتســـامة علـــى شفتيه. بمجرد أن تقدم نحوه الرجل وقد بدا أنه مضطر حيث لا اتجـاه لديه سوى الاتجاه الذى يقف أمامه مدحت.. وبـــدت نظـــرة الجفـــاء واللامبالاة واضحة فى عيونهم جميعا.. وهو يكتم صرخة فى أعماقـه تود أن تفجر كيانه بأكمله فتذيبه بعيدا عن ذلك الموقف.. ولكن الواقع شيء آخر..

أراده أن يسمع دقات الغضب فى القلوب الرحيمـــة.. وثـــورة الاستياء على الشفاه الباسمة.. وقسوة النظرات فى العيون الحانيـــة.. أراد أن يحيطه بإحساس الغربة والضياع وهو يقف وســـط معارفـــه وأحبابه.. أراد له أن يستشعر الخوف مـــن نفـــس صـــدور الحنـــان والرعاية.. فوقف مشدوها منكسرا بعينين جامدتين.. وشفاه متصلبة.. ونبضات مضطربة.. لا يقوى حتى على رد التحية الخاطفـــة بغـــير اقتراب كأنه محمل بأمراض لا براء منها.

رأته عبير وهو ينتهى من حديثه مع عم ربيع.. أو فى اللحظـة التى أراد الرجل أن ينهى حديثه معه.. رأته عبير وهـــو يجـــر فـــى خطواته كأنه يزحف على الأرض، وقد بدا عليه شيء مـــن الـــتردد الواضح قبل أن يرفع عينيه إليها كأنه يتوقع منها مالا يختلـــف عـــن

تصرفهم.. بل وأكثر.. ولكنه مع ذلك استطاع أن يستجمع شجاعته فالتقت عيناه بوجهها الساكن بلا أية انفعالات. فأدركت من فورها مقصده وانسحبت إلى الداخل فى تسلل كأنها تخشى أن يراها أحدهم فتنال من غضبهم ما أصابه.. لم يكن مدحت فى ذلك اليوم يفكر فيما يمكن أن يحدث فى لقائه معهم بل لم يكن يراوده أى احتمال لتلك التصرفات.. فقط أحس بالحاجة إلى العودة إليهم.. فعاد...

كان صباحا مثيرا استيقظ فيه على حملة لا هوادة فيها من مشاعره التى تكالبت عليه بعد رحلة طويلة من الركود أو الرفض الصامت، مما جعله فى لحظة من اللحظات يشعر بأن كل نبضة فى كيانه تقره على حياته الجديدة مع سهير..

ولكنه فوجئ بذلك الرفض الجماعى فى أعماقه، يكبر ويتعاظم للدرجة التى لم يعد لكيانه طاقة على تحملها فخال نفسه على وشك الانفجار كلما دنت من أفكاره مواقفه المستسلمة تجاه تلك المرأة التى استطاعت بدورها أن تسيطر على كل خلجة من خلجاته، وتحكمت فى عقله حتى بات وكأنه آلة آدمية تسير حسب هواها.. ورغباتها..

راوغته بتجاربها التى لا تتناسب قط مع مشاعره البريئة.. وحركت فى كيانه كل رغبة كان يحتفظ بها إلى عبير.

منحته جرأة الإقدام وأحجمت عنه كل ما يطفئ ثورته الهادرة.. داعبت خياله فى غفوته، واستباحت إذلاله فى يقظته. فترك سكن رفاقه وانتقل إلى شقتها، وكأنها أرادته حبيسا وراء مملكتها الخاصة ولم تكتف بسلطانها المؤثر عليه وهو فى مكان آخر، فاقترب

عند ذلك الحد من النهاية.. نهاية كل إحساس نقى فى صدره.. وكل المبادئ التى تسلح بها أمام نكبات الأحداث فى حياته منتصرا عليها.. ولكنه الآن بات مستعدا للتخلى عن كل مبادئه مقابل لحظة رضى واحدة من لحظات المتعة التى دأبت سهير تقديمها له.

عرفته.. درست بإتقان كل جوانب شخصيته.. غاصت فى أعماقه، وعندما انتهت من مهمتها بدأت تمارس معه أساليبها أو خلاصة تجاربها مع نوعيات متشابهة فاستسلم لها طواعية وهو يقدم إليها مشاعره تجاه عبير.. وانتماءه إلى أهالى الحارة.. ورفضه لموقف والديه قدمه قربانا لرضائها.. ولكنها لم ترض..

وارتضى هو لنفسه المغالطة فى علاقتها بالآخرين.. علاقات متعددة.. وسهرات متتالية.. ثم تعود إليه لتثير ما يمكن أن تثيره فى قلب شبابه، وتتركه يئن فى إذلال من جراء قسوة الحرمان..

كم من ليال طويلة قضاها ما بين ثورة لا هوادة فيها واسترضاء لا نتيجة منه.. وفى كل مرة لم يجد فى مقدوره الشجاعة التى يواجه بها نفسه.

فهو لم يترك أمرا ظنه يضيف جديدا إلى آلامه حتى يندم عليه أو من أجله.. وهو لم يصل لشىء يجعله يسعى للاحتفاظ به، ولكنه كلما التفت بذاكرته إلى الماضى القريب وجد نفسه وقد قطع شوطا طويلا أبعد بكثير مما يمكن أن يقطعه للوصول إليها إذا أراد التراجع.. فلا يتراجع..

وذلك ما كانت تسعى إليه سهير فكلما أحست به حائرا رافضا

فكرة التراجع أمعنت فى اللهو بمشاعره.. ونجحت فيما أرادت.. أراد الهروب من أحاسيس الحرمان والفقر فارتمى فى أحضان أحلام اليقظة.

أراد أن يكون أكثر من شىء ففقد كل شىء.. هرب من حقيقة العيون الدامعة والشفاه المرتجفة اضطرابا وهلعا، ليعيش وسط الابتسامات المتشنجة والضحكات الزائفة ولكن صداها أقوى..

حاول الهروب من عجزه منشغلا بتحرير عبوديته الجديدة.. إلى أن رحلت به مشاعره المضطربة إلى حيث تتساوى فيها الرغبة الجنسية مع الإحساس والشوق، ونداء الجسد مع تلاقى الأنفس.. والاضطراب مع اللهفة..

أن تستوى المشاعر مع نقائضها..

وقد تأججت تلك الأحاسيس فى اللحظة التى كان فيها يمسح شفتيه على جسدها العارى بجانبه إلا قطعتين تتستر بهما. سلبت بها عقله، وأنفاسه تتلاحق مع نبضات قلبه كأنهما فى سباق إليها.. وهى تستلقى فى استرخاء المطمئن إلى كل نتيجة تريدها.. فأخذته نشوة استسلامها وهم أن يطفئ ثورته الملتهبة فى عروقه ويروى رغبته التى تشققت من جفافها.

إلا أنه فوجئ بها تعيد كرتها معه وحالت دونها بيدها وهى تردد فى دلال أصمه عن سماع شىء سوى نداء رغبته.

– لا.. لا يا مدحت لم نتفق على هذا.. ابتعد..

ودون أن يدرى بدأ يردد ما كان يسعى لعدم التعرض إليه..

- أحبك .. أحبك يا سهير..

وتوقع أن تكون تلك اللحظة هـــي نهايـــة كـــل محاولاتـــه.. وتمنعاتها.. وامتدت يده بجرأة غير معتادة لتجذب كل ما يحول بينـــه وبين جسدها المسترخى تحته وهو يدفن رأسه بين نهديها البضين فـى تأهب كأنه بخفى عينيه ويسد أذنيه عن حقيقة يخشاها.. وقـــد كـــان. حيث انفلتت منه فى اصرار وتبدلت أسارير وجهها وكأنـــها نحتـت على بشرتها وعيناها مسلطتان إلى عينيه فى اقتحام لا تـــردد فيـــه، وتلفحت بغطاء الفراش تأكيدا لحرمانه.. وهمست بهدوء مثير:

- إلا هذا.. لا تتحدث عن الحب.

ثم رفعت رأسها وهى تلوح بيدها كأنها تقدم فروض الطاعـــة والولاء لسلطان غير مرئى فى حياتها واستطردت:

- الحب يا عزيزى شىء آخر.. سأخبرك به عندما أحسه فى قلبك..

ثار.. أعلن عن حبه الذى يتحدى به كل العقبات فى الواقع.

- أحبك.. أحبك وأكره كل شىء بعدك.. و.. فقاطعته ملتفته إليه:

- وقبلى..

- تقصدين عبير.. أنا أحبك أنت.. أنت فقط.. و..

ولكنها فاجأته بقفزة سريعة وهى تتستر بالغطـــاء حـــول جســـدها متجهة إلى الغرفة الأخرى.. وتعللت بارتباطها بموعد هام.

وتركته بعد ذلك ليقضى ليلته يتقلب على فـــراش النـــدم بيـــن ماضيه وحاضره.. حتى كان قراره فى صباح اليوم التالى بأن يعـــود

إلى حيث كان الحب الذى ادعت عليه جهله.. والاستقرار الذى طال حرمانه منه.. إلى حارة النبقة. فالتقى بمن التقى.. ومن بينهم عينا عبير التى تعللت بغرض لها واستطاعت أن تخرج للحاق به حيث مكانهما المعتاد فى كل لقاءاتهما.. مدفوعة بذلك الإحساس الذى يجعلنا لا نرى إلا ما نريد أن نراه.. ولا ننصت إلى أبعد من نبضات قلوبنا.. فلا صدى أقوى من نبضاته.. يجعل من أعماقنا عالم آخر نعيش فيه.. لنسعد ونتألم.. نضحك ونبكى.. نستشعر الأمل أو اليأس فى حدوده فقط.. إحساس فى لقاء قد طالت غيبته.. وطالت معه وقفتها متواجهين فى صمت.. ما بين عتاب واعتذار.. أو أشواق أعجزتهما عن التعبير فأستعاضا عنها بالصمت.. وبادرها قائلا:

عبير لا أصدق نفسى.. كنت أنتظرك وأنا لا أتوقع أن تأتى.. أقصد فقاطعته وهى ترفع أصابعها إلى فمه:

لا تكمل يا مدحت.. ما من إنسان نجا من الخطأ.

تناول كفها وجلس بها على المقعد الرخامى، وهو يبحث فى صدره عن كلمات يبدأ بها حديثه، ولكنه أحس بعجزه عن التفكير.. ضاعت الحروف بين شفتيه، وخذلته كل استعدادته لذلك اللقاء الذى اختطفه من واقع إلى آخر أكثر حيرة مما كان يتوقع..

ولاحظت عبير اضطرابه الذى كبله بقيود الصمت فأردفت:

– كيف حالك يا مدحت؟

يا إلهى ماذا أقول لها.



أقول اننى سعيد.. أعيش قصة دنيئة لحظاتها فجور وأعماقـــها دوامات من الطيش واللامبالاة.. أم أقول بين أحضان دافئـــة ملســـاء كالأفعى.. وأشم رائحة جذابة لزجة كلزوجة السم بين أنيابها..

لست أدرى..

ماذا..

انتبه لتلك الإجابة الغريبة كغربة نفسه، ولاحقها.

- أقصد لست أدرى ماذا أقول لك عن مشاعرى الآن.

قل إنك انتقمت من حرمانك فى صورتى.. قل إنك سعيد لبنـــاء استقرارك على حطامى.. قل إنك خدعتنى.. أو لازلت تخدعنى.

قل أى شىء يا مدحت أريد أن أسمع صوتك الذى طالما بـــث فى صدرى آمالا عريضة كنت..

فقاطعها:..

- عبير.. ما كان شىء يؤرقنى طيلة تلك الفترة.. سوى التفكـــير فى تلك اللحظة.. وفى هذا الموقف... ليتك تشفعين لظروفى وتغفرين..

لن أغفر..

- أجل لن أغفر.. لأنه ليس هناك ثمة ما أغفره لك يا مدحت..

أنت مدحت وكفى.. بل اغفر لى أنت.. لأننى تركتك مع دوامتـــك، سأستعيدك بكل ما أملك من نبضات فى عروقى.. سأطويك بيـــن جفونـــى حتى لا تراك عين غيرى ولا ترى سوى أعماقى التى تئن لبعادك..

أحبك.. أحبك يا مدحت ..

أنت لم تفعل شيئا لكى أغفره يا مدحت.. ولكن..

ولكنها توقفت عن الكلام عندما أحست بكفه تضغط بقوة علـــى يدها.. كأنها لا تريد أن تسمع شيئا حتى صدى صوتها.. سوى تلـــك النشوة التى سرت فى كفها.. لا تريد أن يفصلها عنه شىء حتى ولـــو كان الفاصل هو نبرات صوتها.

ثم تمتم قائلا:

– أنا أعلم يا عبير طبيعة قلبك الوفى.. وذلك ما دفعنى بجــرأة إلى لقائك.. و..

قلها يا مدحت.. قل إنك تحبنى ولن تبتعد مرة أخرى..

ولكنى أعيش فترة غريبة عن حياتى.. لا أعرف كيف بـــدأت ولا كيف أنتهى.. أقصد..

فقاطعته:

– سهير.

أجاب وهو يسقط فى خضوع المنكسر:

– أجل

أطلق زفرة عميقة من صدره كأنه يتخلص من هواء مســـموم يجثم على رئتيه ثم أردف:

– تلك الملعونة التى سيطرت على حواسى.. وجعلـــت منـــى مسلوبا.. مسحورا لا أقوى على مقاومتها ولا على مقاومة نفسى فـــى رغبتى للاقتراب منها.. و..

- هل أحببتها..؟!

التفت إليها فجأة وكأنه تلقى لدغة خفية من أفعى رقطاء اندست تحت جلده، ولا سبيل لمقاومتها.. فتلقى لدغتها فى صمت مكتفيا بتلك الالتفاتة المعاتبة.. وبلا مقدمات نهض من مكانه وهو يدير عينيه فى كل اتجاه كأنه يبحث عن كلمات بين شفاه الآخرين من حوله..

ثم قال:

- ما رأيك لو بحثنا عن مكان أكثر هدوءا..

وقبل أن ينتظر منها إجابة لاحقها بقوله:

أعرف كازينو قريب سيروق لك.

سارا متجاورين لا يشاركهما فى خطواتهما سوى الصمت.. ولكنه كصمت السطح الذى يتأجج تحته لهيب البراكين الثائرة..

فكل منهما يتصور فى تلك اللحظات أنه يختلس من الآخر فرصة لاسترداد هدوئه أو الاستعداد لكل التوقعات المحتملة.

والحقيقة غير ذلك.. فعبير اكتفت بعودته وهى تستشعر فى حبها الكفاءة لاسترداده إلى الأبد.

ومدحت لا يعنيه أكثر من التخلص من ذلك السؤال المفاجئ والذى لا يدرى هو نفسه كيف طرأ على لسانها.

جلسا متقابلين على مائدة منفردة.. أو شعرا أنهما كذلك من بين عدة موائد متراصة.. وقد استقرت على كل منها حاملة زهور متناسقة الألوان.. وبدأ حديثه وابتسامة هادئة تداعب شفتيه:

لم يتبدل فيك شىء يا عبير.. باستثناء استحواذك على جمـــال الدنيا فى عينيك وفوق أسارير وجهك.. أراك.

فهمست قائلة:

لم تجب على سؤالى..

كيف تفكرى فى هذا.. هل لديك أدنى شك بأنك كل ما أتمناه فـــى حياتى.. وأنك الحقيقة الوحيدة فيها.. والحب الوحيد فى قلبى.. وأنك.

إذن تقدم يا مدحت.. ها أنا عبير محبوبتك.. أمامك بين يديك.. رهـن إشارتك.. تقدم يا مدحت فلقد طال انتظارى لتلك اللحظة.. اصـــرخ أمام العالم أجمع إنك تحبنى.. أنا فقط التى فى حياتك.. ســأكون لــك وحدك كما كنت لك فى السابق تقدم لأمنحك من حبى ما لم تدركه من قبل.. سأمنحك من نفسى ما أبخل به عليها.

لأمنحك حنانى.. وقلبى.. وجسدى.. و آمالى فيك.

تقدم يا أغلى ما فى وجودى.. إنى أنتظر كلمتك.. إشارتك.

بينما واصل هو كلماته..

أنت الإنسانة الوحيدة التى مضيت أشق الطريق بأظافرى مـــن أجلها.. من أجل أمانينا.

- إذن فهى القطيعة لتلك المرأة المستهترة سهير.

فلاحقها مبتهجا كأنه تشبث بطوق نجاة ساقته الظروف أمامـــه دون أن يدرى.

أجل ستكون القطيعة بالطبع.. أعدك بذلك يا عبير بـــل أننـــى

أطمع فى أكثر من ذلك

وليتك تمهدين للأمر.. ابتدئى من الآن.

- قلها يا مدحت.. كلى آذان صاغية.. أخبرنى بوعدك.

أى أمر.

أجابت وقد بدأت وجنتها تكتسى بحمرة الخجل.

ثم أردف.

- سأخبرك غدا.. سيكون غدا بالنسبة لنا.. هو أسمى معنى لانتصار حبنا.

صمت برهة تقلصت فيها أسارير وجهه واستطرد بإصرار:

اليوم سأنتهى من كل شىء.. سأعود لنفسى التى افتقدتها.

سأتخلص من ذلك الكابوس إلى الأبد.. سأجعل من أنقاضه طريق الغفران إلى قلبك..

فلم تتمالك مشاعرها فى تلك اللحظة، وسارعت إلى يده تضمها بين كفيها وهى تردد:

مدحت .. أنا ..أنا..

أعبدك يا عبير..

أغمضت عينيها كأنها تسعى للاحتفاظ بهمسته بين جفنيها لترى من خلالها أجمل أيام عمرها، وافترقا على أجمل أمنية يمكن أن يرددها الإنسان فى حديثه مع ذاته.

إلى الغد..

ولكن.. ليس كل غد يمنحنا بعضا مما نأمله فيه.. فهو إذا أعطى أحسسنا بالافتقار وإذا أحجم انتظرنا غدا ثانيا لعله يأتى بما افتقدناه فى يومنا..وعبير انتظرت أكثر من غد.. انتظرت كل ما يتبع الغد من زمن.. يوم.. اثنان.. أسبوع.. شهر.

ذهبت حسب موعد اللقاء، وعادت وهى تحمل فى قلبها أنات الحسرة.. انتظرت طويلا إلى أن أعياها الانتظار.

كانت تذهب مع كل يوم بأمل جديد.. تستنجد بكل المبررات.. تبحث له عن كل الأسباب التى يمكن أن يطرحها أمامها عند عودته ولكنه لم يعد..

لم تيأس، بحثت فى أعماقها عن أشياء كثيرة، تخصه وتخصها.. بحثت عن ماضى حقيقى وقد طوته رحلة السنين فأصداؤه تملأ صدرها وفكرها.. فلم لا يأتى.. إذا كان لا يريدها، فما الذى دعاه لملاقاتها من جديد.. كانت تبحث عن ذلك.. تتلمس من خلال فكرها وسيلة تلغى بها ذلك الموعد من أساسه.. لا تريد الاعتراف به مطلقا.. تريده فى باطن الرغبة.. مجهول الميعاد ولكن احتمال حدوثه قريب جدا إلى قلبها.. وبعيدا عن واقعها الحقيقى.

.. قد نحلم أكثر مما نسعى..

وهى استسلمت لحلمها الجميل.. والطويل.. مرت من خلاله على بساتين السعادة وملأت صدرها من نسمات الأمل والحب.. وركضت على أراضى منبسطة رطبة لا تؤلم أصابع أقدامها كما يحدث لها فى الأتوبيس.. أو كما كان يحدث.

تنقلت بعينها على شفاه باسمة هادئة.. وقطفت زهور بلا أشـواك لها رائحة جذابة عاطرة.. لم تسبقها إليها فراشـــة هائمـــة اســتمتعت برحيقها لتتركها خاوية مقهورة.. لم تداعبها يد إنسان من قبـــل علـــى غصنها.. استقبلت بأذنها أعذب الأنغام وأرقها..

قابلت مدحت فى رحلتها.. كان وســـيما مبتســما.. رائعـــا.. الصدق فى عينيه يسبقه فى الحديث، قلبه ينبض بحبها.. وقف يعلـــن أمام الجميع أنها الوحيدة فى حياته، كما قالت لــــه.. وكـــانت ســعيدة بهذا.. سعيدة بذلك الحلم اليقظ الحلم المتمرد الذى يعلن جهارا وقـــهرا تمرده على الواقع.

ومن أجله فقط.. كانت تذهب كل يوم تنتظر مجيئه.. على أمل أن تكون قد أخطأت تحديد موعده.. على أمل أشياء كثيرة، تســـاقطت تباعا مع كل يوم يمر عليها ولم يأت فيه. ولكن كان واقعها أعـــرض بكثير جدا من صدمتها.. فابتلعها أو طواها فى صمت بـــالرغم مـــن احتفاظه بها.. واقع تفردت فيه ظروف أحزانـــها الخاصـــة.. واقـــع غزير بأحداث مملة رتيبة.. يضم ضوضاء الحارة..

ومشاجرات عبودة المشاكس.. ومحاولات عم ربيع لارتـــداء البدلة.. وسخريات الأسطى قاسم.. وتراكم النتـــوءات علـــى وجـــه الأسطى محمد من كعب حذاء زوجته.. وسعال أمها الذى اشتد عليـــها حتى يخيل لكل من يحضره بأنها آخر سعلة فى حياتها..

ويضم أكثر من ذلك ذكريات فى فكرها لا تمـــوت.. ترويـــها بمدامعها وتظللها بانطوائها وتغفر لها بالانشغال عنها.

وبات أقرب شىء إلى واقعها هو وجود عفاف إسماعيل معها فى مكان واحد فى محاولة للهروب حتى أنها اطمأنت إلى ذلك..

فانطلقت معها من واقع إلى غيره مع كل حديث جمع بينهما.. لم تعد تخشى الظهور معها.. أفسحت لها المجال دون تحفظ.. أو مبالاة بل شاركتها فى كثير من الأحيان أمورا تصدت لها يوما بعنف، باتت تسعى إليها.. تبحث عنها إذا ما تغيبت، تتزاور معها تأكيدا لتلك الرابطة المفاجئة وبدون مقدمات وإيمانا منها بأنها كانت الوحيدة المخطئة وسط مجتمعنا الصادق.. أقنعت نفسها أو أقنعتها الأحداث التى أحاطت بها بأن ما كان فى تصورها السابق أفقدها الكثير والكثير جدا.

أفقدها مدحت حمدى.. الحب الأول الذى ضم مراحل عمرها إلى حيز النضج، أفقدها استقرارها واطمئنانها.. وحال دون انطلاقها على درب أترابها من الأخريات.. أفقدها الإحساس بالحياة..

تساءلت دون تفكير..

من تكون سهير وكذلك عفاف.. وغيرهن.. كلهن يستمتعن بالحب والحياة والأمل.. كلهن ينلن أمانيهن.. كلهن سعداء.. كلهن أقوياء..

إلا أنا...

واستطاعت عفاف أن تغتنم تلك الفرصة لمصلحتها، فما فتئت تعدد لها مباهج الحياة على حقيقتها.. الحقيقة الغائبة عنها.. ولم تدخر جهدا فى طرح المقارنات أمامها ولا يفوتها أن تردد عليها مأثورتها، عقب كل مقارنة أو فى نهاية كل حديث.. قائلة:

- ولا تنسى يا حبيبتى أن المرأة كزهرة الياسمين إذا طال بها الزمن على فرعها سوف تنبت زهرة أخرى لتلقى بها على أرض النسيان..

والرجال فى مجتمعنا كالصبار لا فرق بين شيخ فى الثلاثين وشاب فى الستين.

كانت عبير تنصت إليها كما تنصت التلميذة الصغيرة إلى معلمتها.. اختلط عليها الأمر.. خاصة عندما قارنت نفسها بسهير ولم تعد تدرك إن كانت هى زهرة الياسمين المقبلة أم المدبرة.. أثارتها تلك المقارنة فى لحظة من اللحظات السامرة التى جمعت بينها وبين عفاف فألقت عليها سؤالا حائرا بالنسبة لها وساذجا للأخرى:

- ولكنى لم أفهم مقصدك حتى الآن.

فأجابتها:

المال.. المال.. المال.. به وحده تحققين كل أمانيك..

تحققين الحب.. السعادة.. الوفاق..

فقاطعتها دون إرادة:

- والصدق.

جلجلت الأخرى بضحكة لها نغمة متقطعة ورددت:

- الصدق يا عزيزتى أسطورة المحتاجين أمثالنا.. سلعة ليس لها مكان فى سوق مشاعر الآخرين.

وبالرغم من ذلك لم تستطع عبير أن تحدد مقصد الأخرى وما تعنيه بكلمتها..

من هم الآخرون.. وأين هى أسواقهم.. وهل هم بشر مثلنـــا.. ولماذا لا نكون مثلهم..

وهل مدحت واحد منهم؟

أسئلة كثيرة باتت تسيطر على عقلها.. لم تستطع حيالها ســوى الاستسلام لرغبات عفاف..

أمس فى إحدى الحفلات العامة.. واليوم فى سهرة مع بعـــض الصديقات.. وغدا فى منزل إحداهن.. وتزايدت الأكاذيب أمام والدتها وتعددت المعاذير تارة حفلة بالشركة.. وأخرى رحلة إلى الإسـكندرية لمدة يوم.. إلى أن دفعتها جرأتها.. ورغبتها.. لأن تجعل الرحلة تلـك المرة يومين.. وكانت رحلة من رحلات عفاف المعتـــادة فـــى فيـــلا إحدى الصديقات التى تتحدث عنها دائمـــا، تضـــم وجوهـــا متعـــددة وغريبة. من البشر بالنسبة لعبير..

فتاة فى رحلة مثلها.. وأخرى اعتـــادت علـــى تلـــك الرحـــلات.. وغيرها ليس لديها من تهتم بأمره.. وكثيرات غيرهن.

وهذا الثرى.. وذلك العائد من غربة طويلة وبيـــن يديـــه حصيلـــة حرمانه من وطنه وأهله فترة طويلة.. وغيره المتصابى.

وعبير وسطهم جميعا تسبح فى غيبوبة الاندهاش لا ترى أكـــثر من ضباب السجائر المترنحة بين أناملهم.. ولا تسمع أبعد من الضحكـات الصادرة من الزوايا.. أو الهمسات المستترة تحت نظرات الأعين..

ولكنها فى رحلة.. ويومان..

وما كادت عقارب الساعة ترحل عن منتصف الليل، وبدأت الوفود تتزايد مع ظلمة الليل وضجت الأرجاء بالموسيقى الصاخبة. حتى كانت عفاف قد تهاوت بين دائرة من العيون الجائعة، والرغبات الجامحة.. تقاوم هذا وتمنى ذاك وترغب غيرهما، وعيناها تتابعان نتيجة مجهوداتها المتمثلة فى عبير التى دأبت منذ الوهلة الأولى على محاولة الخروج من نطاق اضطرابها ونظرات صدقى بك أحد المدعوين المرموقين فى مجال تجارة الفن، أحست عبير بأنه الوحيد الذى يراها وسط العشرات المجتمعين فجميعهم لم يجرؤ على النظر إليها، كما كانت نظرته إنذاراً للآخرين بأنها فريسته فتركوها منهزمين لتلك العين المدربة..

حاولت أن تنشغل عنه بمتابعة عفاف وهى تترنح برأسها على كل صدر تلتقى به ولكنها لم تفلح حين جذب انتباهها دون ارادة على صوت انغلاق غرفة من الغرف المحيطة وبداخلها اثنان لا تعرف عنهما أكثر مما تعرفه عن الآخرين من حولها..

ثم فوجئت بمن يهمس إليها بصوت متزن هادئ:

– أتسمحين لى بتلك الرقصة..

قالها وهو يمد إليها بكأس فى يده..

فارتبكت لعينيه وللكأس أكثر من ارتباكها لطلبه واندفعت الدماء إلى رأسها فزادت وجهها حمرة أثارته ودفعته لتناول كفها ليجعلها فى مواجهته تماما.. حاولت أن تقول:

– ولكنى لا أشرب..

فأتاها صوته من بعيد.. بعد رأسها المدفون فى صدره عن عينيه.

- حاولى.. ثم اتخذى قرارك..

ولم تستطع الإجابة.. أو محاولة التمنع، خاصة عندما لاحظت ولأول مرة عيون الآخرين تحيط بها من كل جانب كأنها تحسدها أو ترثى لحالها.

فوضعت حافة الكأس على شفتيها ولم تعدها إليه إلا بعد الانتهاء منه ووجدت نفسها فجأة وسط الجموع.. صخب.. وضبلب.. وخطوات متعثرة وصيحات مكتومة.. وهمسات ثائرة.. وأجساد متلاصقة.. وأصابع تضغط على خصرها أحست بها أسنة حادة تمزقه، وأنفاس دافئة.. لاهثة.. تسيطر على رقبتها شعرت بها حريقا يشتعل فى كيانها.. وما كادت تصرخ.. تحاول التملص من ذلك الجسد الذى بدا معها وكأنه ملتصق بها التصاقا تاما، حتى تذكرت أن هناك ليلة ثانية.. أو يوما آخر من أيام الرحلة التى ادعتها لوالدتها، وما كادت أن تفعل حتى أسكتتها أحاسيس الخوف وشفتاه اللتان أطبقتا على شفتيها تمتصها بلهفة ما بعدها لهفة.. وتلاحق أنفاسه المتتابعة فوق أذنيها.. حتى.. أسكرها كل الغموض الذى حولها واستسلمت لخطواته تجاه الغرفة الأخرى التى ينتظر بابها الانغلاق منذ ساعات طويلة وما هى إلا دقائق قليلة حتى وجدت نفسها فيها وقد أغلق وراءها وارتفع صوته قليلا..

- كم أنت هادئة..

وبدأت يداه تعبثان بما كان محرما على مدحت حمدى فأسقطت

يده بعيدا عن صدرها، وهى تتراجع قليلا إلى الوراء.. ولكنه لاحقـها بجسده المترهل وضمها بقوة إليه وهو يحاول أن يكون رقيقا..

– لا تخشى شيئا.. ستكونين حسـنائى المفضلـة.. سـتكونين أميرة المجتمعات..

وصمت برهة مضطرا حيث غاص بأنفه المفلطح بين ثدييـها اللذين باتا كتلتين مكورتين من الثلج.. وارتعاشة أنفاسه مع جسده ثـم أردف قائلا وهى تحاول الفكاك منه..

– سأجعلك تخطين على المال بقدميك.. سأجعلك أسعد إنسانة فـى الدنيا.. ستصبحين موضع حسد الكثيرات.. بل جميعهن.. جميعهن..

وراح يغرس أسنانه الصفراء على كتفها كما يغـرس الذئـب أنيابه على فريسته.. وما كاد ينتقل بأنيابه إلى الكتف الأخرى حتـى تصلب فى مكانه مندهشا اثر صرخة عالية دوت فى أرجاء المكـان، أصدرتها عبير والرعب يملأ عينيها المذعورتين، أسكتت كل شـيء حولها وكأن السماء قد أطبقت على الأرض فجأة.. وفى لحظة واحـدة خاطفة، طوت كل ما فوقها.. لاحركة ولا همسة.. ولاشئ مطلقا يـدل على أن ذلك المكان الذى يضمهم جميعـا كـان يضـج بـالصراخ والصخب صاعقة عنيفة.. أو إنذار حرب مفاجأة..

الجميع يقف ساكنا دون حراك وعيونهم مسلطة على مصـدر الصرخة التى أطارت بنشوتهم بعيدا، وأطاحت بصدقى بك على حافة الفراش فاشلا.. متخاذلا، وفى أقل من دقيقة ظهرت عفاف من إحـدى الزوايا البعيدة، وهرولت متجهة إليها وهى تحتفظ بابتسـامة هادئـة

على شفتيها فبدت كأنها اعتادت على تلك الصرخات..

وأمسكت بمقبض الباب وهمت بإغلاقه وهى تهمس قائلة:

– طابت ليلتكما.. ولا تزعجننا مرة ثانية..

قالتها وهى ترمق عبير بنظرة خاطفة.. وما كان من عبـير إلا أن لاحقتها بصوت مضطرب.. انتظرى..

وتقدمت نحوها بخطوات سريعة واستطردت:

– ما هذا الذى يحدث هنا يا عفاف..

فقاطعتها وقد اتسعت ابتسامتها:

– نحن نصلى يا حبيبتى.. نتعبد فى محراب طهارتك..

وسرعان ما تبدلت أسارير وجهها وتراقص حاجباهـــا فــوق عينيها وهى تأتى ببضعة إشارات بيدها وأردفت..

– نحن نخترع القنبلة الذرية أيتها القديسة.. ندعو للصلاح يـــا راهبة.. نحن..

ولكنها تلقت صفعة على وجهها جعلتها لا ترى شيئا حولها وأمامــها بينما انطلقت عبير من بينهم متخذة طريقها إلى الخارج..

واستوقفت أول سيارة أجرة صادفتها.. واسترخت على المقعـد وهى تهندم ملابسها بعدما أخبرت الســـائق وجهتـــها.. إلـــى حـــى الحلمية.. وبمجرد تحرك السيارة بها لم تعد تذكر شىء مما حـــدث.. لم تعد تشعر بآلام كتفها.. ولا بانكسار نفسها ولا بأصابعها التى بـدت وكأنها متورمة إثر تلك الصفعة القوية التى هوت بـــها علـــى وجـــه

عفاف.. بات كل شيء فى ذهنها هو ماذا ستقول لوالدتـــــها.. كيـف ستدخل حارة النبقة فى مثل ذلك الوقت.. ووصلــــت إلــى الحلميــة فأشارت إلى قائد السيارة بأن يتجه إلى داخل الحــارة وهـــى تمسـح الطريق بعينيها فى كل اتجاه.. ولكن السائق أوقف السيارة فى مكانــها والتفت نحوها فبدا وجهه واضحا لها تحت الأضواء الســاطعة مـــن مصابيح الطريق.. قائلا فى اصرار..

- مائة وثلاثون قرشا..

- فأجابت فى هدوء..

- ولكننى طلبت منك الدخول فى هذا الطريق.. لما توقفت..

فالتفت بنظرة سريعة إلى داخل الحارة، ثم قال متذمرا:

- السيارة جديدة والطريق غير صالح.. ثم.

ولكنها قاطعته فى تردد..

- ولكن.. ولكن الوقت متأخر جدا الآن.. كيف أسير وحـــدى فى ذلك الطريق..

تناولها بنظرة فاحصة.. لم تستغرق أكثر من ثانية.. أحســـت بها تلطخها بوحل الأرض..

تلعنها.. تشفق على أسرتها..

كادت أن تنطق عيناه..

لو كنت ابنتى لقتلتك.. لو كنت..

أحست بها كأنها عيون البشر جميعا اشرأبت لتســتطلع تلــك

الفاجرة التى خرجت لتوها من وكر الخطيئة، وتخشى ظلمة عادية.. لطريق عادى..

- لن أتحرك مترا واحدا بالسيارة..

لم تجد بدا غير أن تناوله مطلبه وتتصرف عن السيارة.. وعن عينيه..

وقفت برهة ألقت خلالها بنظرة على امتداد الطريق تبينت فيها بصعوبة بعض مخلفات المعلم عباس من عظام وأوراق.. وفى نهاية الجانب الآخر استقرت عربة اليد الخاصة ببائع البرتقال، واضطربت قليلا لذلك لعلمها أن البائع عادة ما يقوس نفسه داخلها عند النوم.. وقد يراها..

سارت وكل حواسها باتت فى عينيها اللتين سلطتهما تجاه شرفة منزلها كأنها تتأكد من أن والدتها تنعم بنومها ولا يوجد احتمال ليقظتها فى مثل ذلك الوقت.. وما كادت تتعمق قليلا داخل الحارة حتى انتبهت على صوت حشرجة خطوات لاهثة من ورائها جعلت من دمائها تنتفض هلعا، فالتفت بعينين مذعورتين لتفاجأ بوجه عبودة المشاكس وقد بات على مقربة منها ثم لاحقها قائلا ةهو يفرك عينيه كما لو كان يوقظها من غفلتها:

- آنسة عبير.. مستحيل.. ما الذى جعلك تتركين المنزل الآن؟ ماذا حدث للحاجة الوالدة.. ما..

فهمست بصعوبة وهى تحاول اخفاء اصطكاك أسنانها من الاضطراب والخوف.

- أنا.. أبدا.. لا شئ.. ولكننى حضرت الآن من الإسكندرية.

فانتظرت تعليقه وهى تصارع شفتيها لتتقبل صورة باهتة من

ابتسامة.. ولكنه.. لم يعلق واكتفى بأن طأطأ رأسه بتأدب وسار بجانبها فى صمت تام.. وقد انتفخ صدره وأفلج عن ذراعيه يلوح بهما كأنه فى خطوات عسكرية.. متأهبا للزود عنها من مفاجآت الليل...

وراحت عبير تطرح عليه كل ما يمكن أن تقوله من مبررات.. فبدت وكأنها ابنة مضطربة أمام والدها.. أو متهمة تحاول أن تنفى الاتهامات عن نفسها.. وتملكها التعلثم..

- لقد كنت فى رحلة.. قضيت يومين.. أقصد المفروض أن يكونا يومين..

الرحلة فى الإسكندرية..

- ألم تذهب إلى الإسكندرية يا عبودة..

ولكنه لم يجب..

- أنا أيضا كانت بالنسبة لى أول رحلة.. القطار جاء متأخرا.. الرحلة خاصة بموظفات الشركة.. الإسكندرية مزدحمة هذه الأيام.. جئت فى سيارة أجرة كانت سريعة.. ودون أن تدرى مدت يدها واستوقفته كأنها تذكرت شيئا هاما..

ثم استطردت:

- تصور أن السائق رفض الدخول بى إلى الحارة.. تعلل بأن السيارة جديدة.. عرضت عليه الأجر مضاعفا.. ولكنه رفض..

وانتظرت ما يمكن أن يحدث من عبودة فى مثل تلك الحالات.. ولكنه لم يلعن ولم يتوعد.. لم يصرخ بصيحاته التى طالما

دوى بها فى معاركه.. لم يفعل شيئا سوى أنه أكمل السير بهدوء وهو مطأطئ الرأس..

فواصلت تبريرها..

– جائتنا تعليمات من الشركة بالعودة فورا.. يقال أنهم يطلبوننا فى اجتماع هام.. حتى الرحلة حرمنا منها..

ولكنها توقفت عن الحديث عندما انتبهت لوصولها إلى الباب الخارجى لمنزلها فالتفتت إلى عبودة الذى سارع بقوله:

– طابت ليلتك يا آنسة عبير..

واختفى فجأة كما ظهر فجأة..

صعدت الدرجات بخطوات حثيثة، وتمهلت قليلا وهى تدس المفتاح فى الباب حتى لا يصدر صوتا.. ودخلت على أطراف أصابعها متجهة إلى غرفة والدتها.. ألقت نظرة سريعة عليها واطمأنت لثباتها فى النوم العميق وقد احتضنت أشقائها.. فتراجعت بحرص وتحولت إلى غرفتها، وما كادت تطمئن لوجودها بمفردها حتى تخلصت من زفرة ثقيلة كانت قد احتبستها فى صدرها وقتا غير قصير.. فأغلقت الباب دونها واسترخت على الفراش وهى تتأمل سقف الغرفة وتتأمل أشياء كثيرة، أبعد من الغرفة.. ومن عبودة وسائق سيارة الأجرة.. وحديثها مع الأم فى الصباح.. وأبعد من تصرفات ذلك الرجل الغريب وموقف عفاف.. أبعد من نفسها.. ومن مدحت حمدى..

فقط مصطفى بك الكيلانى..

عليها أن تتخذ قرارا بشأنه..

ستقف لتقص عليه كل ما حدث من مستخدمته عفاف، لابد أن تحدد موقفها معها.. لن تسمح لها مرة أخرى بأن تقدم على فعلتها.. ستطلب معاقبتها.. ولكن سلطان النوم كان أقوى من كل قراراتها فاستسلمت له وهى بملابسها وراحت فى غيبوبة الإرهاق محتفظة فى أعماقها بأحداث ليلة رهيبة كليالى تائه الصحراء الذى يحسب لحظات عمره بمقدار ما يصل إلى حلقه من قطرات الماء.

وفى صباح اليوم التالى لم تجد مشقة كبيرة فى اختلاق سبب أمام والدتها، حيث كانت الفرصة بوصولها أعظم بكثير من أن تجد الأم وقتا للتفكير بقدومها فى مثل هذا الوقت.

كانت عبير تعلم جيدا أنها تضع مستقبلها فى الشركة مقابل تجاوز حدودها فى شكواها من أكفأ موظفاتها وهى عفاف وبالرغم من ذلك لم تدع للخوف سبيلا ليملأ قلبها أو يصرف تفكيرها عن ذلك الإصرار لأن صمتها أو تغاضيها سوف يدفع بالأخرى لتكرار محاولاتها وقد تتبع أسلوبا مباشرا.. أو تعتمد على ما تجود به قريحتها من إشاعات.. ولذلك بكرت فى الذهاب إلى الشركة، وكان طبيعيا ألا تجد عفاف على مكتبها، فلزمت الصمت بل رفضت الإجابة على أية استفسار حاول فيه أحمد دياب أن يستنتج منه سببا لغيابها عن العمل فى نفس الوقت مع زميلتها، وباءت محاولات رئيس القسم هو الآخر بالفشل فالتزما الاثنان الصمت كأنهما يشاركانها انتظار وصول

مصطفى بك الكيلانى، ولم يطل انتظارها طويلا، فما كادت تعلن دقات الساعة العاشرة صباحا حتى ظهر مصطفى الكيلانى مارا من أمامهم بخطواته المنتظمة الثابتة، ولم يبدى أى التفاته نحوهم كعادته كل يوم مختفيا داخل حجرة مكتبه التى لا يتركها إلا عند انصرافه الأخير..

كان الوقت يمضى طبيعيا بالنسبة لهم، باستثناء عبير التى لم تعتد أن تمضى مثل تلك السويعات دون أن يطلبها مرتين أو أكثر، وكأن الظروف قد تعمدت أن تزيد من توترها وقلقها فتحول دون رغبتها فخلقت له ما يشغله عنها أو عما اعتادت عليه منه. فباتت اللحظات الأخيرة بالنسبة لها أقسى وأشد توترا منذ قررت أن تواجهه بما لديها من معلومات خطيرة.. فسكنت تقلب الأمور فى ذهنها تبحث عن خير وسيلة تختلقها للدخول إليه، ولم تجد بدا من أن تجمع بعض الملفات فى يدها وتجعل منها مبررا للمثول أمامه..

وما كادت تتحرك من وراء مكتبها حتى انتبهت إلى صوت عامل المكتب قائلا:

- مصطفى بك يطلبك يا آنسة عبير..

يا إلهى ماذا سأقول له.. كل شىء ضاع من فكرى.. لم أعد أتذكر شيئا كيف سأبدأ.. كيف سأواجهه.. ماذا سيقول عنى..

- إنى قادمة..

وقفت أمامه بعد أن طرقت باب مكتبه طرقة خفيفة.. كان يبدو منشغلا ببعض أوراق أمامه..



فتركها لحظات قصيرة عاشتها فى صراع مع كل كيانها المضطرب.. والمرتجف..

ثم رفع رأسه إليها وشملها بنظرة هادئة قائلا باتزان:

– أرجو أن يكون لغيابك المتكرر سببا معقولا..

لم تستطع التفوه ببنت شفة مكتفية بازدراد ريقها، واستطرد هو:

– لقد علمت من زملائك أن والدتك كانت مريضة.. أرجو أن تكون صحتها بخير الآن.. وعلى كل حال لقد..

ولكنه تراجع برأسه مشدوهاعندما قاطعته منفعلة وبدون مقدمات وقد اهتزت كل أسارير وجهها..

– أستاذ مصطفى لدى أمر يخصنى يجب أن أطلعك عليه مهما كانت نتائجه..

ولم تدع له فرصة الإجابة واسترسلت قائلة بانفعال:

– ولست أدرى إن كان من حقى هذا أم لا.. ولكن كل ما أريده هو أن أبلغك بما حدث لى بالأمس..

فأسقط عينيه نحو سطح الورقة التى استسلمت لخطوط القلم الذى بيده، وهو يخط حلقات فى شكل دوائر متصلة بعضها متسع والآخر صغير متداخل.. فأحست بالشجاعة أو خانتها إرادتها للاحتفاظ باتزانها وراحت تسرد عليه بلا ترتيب أحداث ليلتها والليالى السابقة..

– لقد أخذتنى عفاف إلى فيللا أخجل أن أذكر أمامك ما يدور بداخلها.. هى طلبت منى.. لقد استغلت ظروفا خاصة عندى.. أنا لم

أطلب منها.. أرجو أن تصدقنى..

انشغلت برهة فى تجفيف دمعها ثم واصلت:

– لم أكن أتصور أنها تنظر إلى تلك النظرة.. جعلتنى أكـــذب عليك وعلى والدتى.. كدت عن طريقها أن أسلك مسلكا لم أخلق لــه.. أرجو أن تصدقنى..

وقد علا صوتها لأول مرة:

– أنا لم أطلب منها.. لو كنت أعلم ما ذهبت معـــها.. يجــب أن تفصلها.. لقد قررت أن أبوح لك بكل شيء.. ربما تقدر أنت ظروفى..

أنا حقا فى حاجة إلى العمل.. ولكن لست فى حاجة إلى مثـــل هذا العمل.. أرجوك لا تتخذ قرارا قبل أن تتأكد منه بشأنى.. أنـــا لا أشكوها بل أطلب أن تبتعد هى عنى.. أن تتركنى.. أن تعلـــم أننـــى لست كالأخريات التى تعرفهن.. أرجوك أن تنصت إلى وتقدر موقفى

ولكنه استمر فى انشغاله عنها بتلك الخطوط التى يخطها علـــى الورقة كأن لا أحد أمامه. فاقتربت خطوة واحدة تجـــاه مكتبـــه لعـــل صوتها يصله واستطردت:

– لقد عشت حياة طاهرة قبل وبعد وفاة والدى.. أنا لست هكذا يا أستاذ مصطفى.. أرجوك أن تضع حدا لمضايقاتـــها ومطارداتـــها لى.. إننى أخشى ما يمكن أن يقال عنى ظلما وكذبا.. أردت فقـــط أن أطالعك على حقيقة الأمر..

أنا لست كذلك.. لست كذلك..

واستدارت وهى تتحامل على قدميها متجهة إلى الباب.. وما كادت تصل إليه وهى فى طريقها منصرفة.. حتى تصلبت فى مكانها عندما ترامى إلى مسامعها نداؤه:

- آنسة عبير..

فالتفتت إليه مستديرة تجاهه مرة أخرى، وقد امتلأت عيناها بدموع الخوف والاضطراب.. وانتابت شفتيها رجفة واضحة تعلن عن انفعالها الشديد إزاء ذلك الموقف.. على حين نهض مصطفى الكيلانى وراء مكتبه ببطء، وقد سلط عينيه بنظرة غامضة تجاهها وهمس بصوت خفيض:

- أتقبليننى زوجا..

تراجعت إلى الوراء قليلا كأنها تلقت صفعة قوية قاسية مفاجئة جعلتها تحافظ على اتزانها بصعوبة بالغة.

يا لكم من قساة.. أنتم لستم بشر.. أنتم شياطين تتقمصون صورا ليست حقيقتكم.. وتبدون مشاعر ليست هى حقيقتكم..

.. أنت إنسان لا تقل حقارة ودناءة عن رجل الأمس.. كلاكما انتهز فرصته.. ولكن كل منكما بأسلوبه الخاص..

جئتك أعلن عن ضعفى وقلة حيلتى.. جئتك أشكو مما اعتقدت أنك تختلف عنها.. فاستغللت حاجتى.. استغللتها لصالحك.. استغللتها بإمكانياتك وبأحوالك.. يالك من نذل.. يالك من وحش فى شكل آدمى.. ليتنى ألفظ الآن آخر أنفاسى ولا أستسلم لأمثالك.. ليتنى ما عرفتك..

ليتنى ما ساقتنى الحاجة إليك.. ليتنى احتفظت بآلامى لنفسى ولا أضعها بين يد قذرة مثل يدك.. ليت فى استطاعتى أن أضعك فى مكانك المناسب.. ليت فى استطاعتى أن أصرخ فى وجهك.. أصفعك بكل ما لدى من قوة.. ليتنى أستطيع أن..

- موافقة..



سرى نبأ الزواج إلى الجميع أسرع من موافقتها الشخصية عليه، واحتوت المفاجأة اذهان أهالى المنطقة لبضعة أيام قضوها فى صمت مقلق بعيدا عن أية محاولة لاستنباط معلومات تخص ذلك الأمر، أكثر من أنهم علموا عن طريق الحاجة سليمة التى تبرعت بحكم العادة ونقلت ذلك النبأ غير المتوقع. وكانت المرة الأولى التى تتدخل فيها الحاجة سليمة وتتصدى لمثل تلك المواضيع خاصة أنها خارج دائرة نفوذها.

ولكنها أذاعت النبأ..

عبير تزوجت مليونيرا..

فكانت المفاجأة.. وكان الصمت.. وكان الانتظار.. كأنهم جميعا فى حالة ترقب للتأكد من أمر ما.. أو أنهم سحبوا الثقة دفعة واحدة من جارتهم الخاطبة التى عاشت بينهم أكثر من عشرين عاما تأتيهم بالأنباء الأكيدة ولكن ذلك النبأ كان أكبر من توقعاتهم.

فآثروا الصمت أو الحذر إلى أن بدأت التأكيدات ترد إليهم عن طريق كل من استطاع أن يختلق مناسبة لزيارة منزل زوجة المليونير المنتظر، فمنهم من أرسل زوجته للاستطلاع.. والبعض للسؤال عن صحة الوالدة.. وآخرون بحجة ابداء استعدادهم لأية خدمات. ولكن الأمر حقيقة..



وتملصت الحارة من صمتها وبدأت الأقاويل تطفح على جدرانـــها وكل منهم حسب تصوراته.. وأمانيه. مليونير يملك سيارة فاخرة.

فيضيف البعض الآخر مؤكدا عن طريق معلوماته.. أنه يعيش فى فيللا تحيطها حديقة كبيرة مساحتها أكبر من حارة النبقة..

ويتدخل أحدهم قائلا..

– الفيلا فى مصر الجديدة.. يحرس بابها الخارجى رجل أقوى مائة مرة من عبودة المشاكس.

إلى أن بات الأمر يقينا للجميع، عندما انتقل أهالى حارة النبقـــة بأكملها تقريبا يوم زفاف عبير ابنة منطقتهم إلى المليونـــير مصطفـــى الكيلانى فى فيلا زوجها بمصر الجديدة.. فيـــلا الروابـــى.. أو فيـــلا مصطفى الكيلانى كما كانت تشير اللافتة الصغيرة المرفوعـــة علـــى واجهتها من الخارج وكانوا فى داخلها يبحثون عن بعضهم البعـــض.. وعن أنفسهم.. كل شىء فيها استحوذ على انتباههم.. وفى تلك اللحظـــة بالذات أدرك الجميع أن الحياة تحتضن واقعا غير الواقع الذى يعهدونه، أدركوا أشياء كثيرة كانت تراودهم كأنها أضغاث أحلام تقتحم مخيلتـــهم فى ليال متفائلة إلى درجة السخرية من أنفسهم..

رأى المعلم عباس أنواعا من اللحوم صنفت فى أشكال لم تخطر على باله قط.. واكتشف عم ربيع أن ما يتاجر فيه من مواد غذائية مـــا هو إلا مواد لملء البطون الفارغة فقـــط.. وأدرك الأسـطى فـــهيم أن هناك موديلات تخص عالم الفضاء أو عالم مصر الجديدة لم يكتشـــفها يوما فى إحدى محاولاته المجتهدة.. واقتنع الأسطى قاسم بأن مؤخرة

الرأس يمكن ان تجمل إذا ما تسترت ولو ببضع شـعيرات بـدلا مـن تفانينه التى ينتج عنها قشط كل جذور تلك الشعيرات حتى منتصـف الرأس من أعلى فتبدو وكأنها بقايا قشرة ثمرة البطيخ..

أما عبودة فقد جذب انتباهه تمثال كبير لملامح فينوس أمامـه محاولا اختلاس نظرة.. أو لمسة بين الحين والآخر..

وجوه عديدة كانت تموج بها الردهة الواسعة والعريضة.. وجوه غريبة بعضها عن بعض.. ولكنهم جميعا يتصرفون بطريقة متشـابهة ولا يختلفون حتى فى الابتسامة الباهتة المتجمدة فوق شفاههم..

كلا الفريقين ينظر إلى الآخر بدهشة كبيرة كأن كلاهما فوجـئ بأن هناك بشرا فى مثل تلك الصورة. واستطاعت أحداث تلك الليلـة أن تسيطر على عقول أهالى الحارة لمدة طويلة تتابعت فى ظل الأيام التى تليها على شكل حلقات سامرة تقاسموا أوقاتهم ما بيـن غرائـب الفيلا وابتهاجهم بحظ ابنتهم الكبيرة.

أما عبير فلم يبهرها واقعها الجديد، بمقدار مـا بهرتـها المشاعـر الصادقـة التى أبداها نحوها كل من له صلة بحارة النبقة.. وكذلـك موقف مصطفى الكيلانى الذى أصر على أن تستقبلهم فى الفيلا نهايـة كل أسبوع واعتبرت ذلك محاولة ذكية ومهذبة لزيادة رصيده تجاهـها إذا كان لديه رصيد.

كانت سعيدة بوجودها معهم باسـتمرار.. سـعيدة بالمعاملـة الرائعة التى دأب عليها زوجها فى كل موقف يجمع بينهما.. سـعيدة بتوفير الدواء لوالدتها باستمرار..

وبدون قلق أو خوف كانت سعيدة بمظهر أخوتها الذين باتوا أكثر جرأة للتعبير عن مشاعرهم وأكثر جرأة فى طلب احتياجاتهم، وتحقيق أمانيهم، وفى يوم عطلتهم، كان يتفرغ لهم سائق السيارة.

كانت سعيدة لتخلصها من ذلك الطريق الذى كادت أن تقودها إليه عفاف، بالرغم من إصرارها على إلا يتخذ مصطفى ضدها أى قرار.. فكان لموقفها الأثر الأكبر فى نفس عفاف كانت سعيدة من أجل أشياء كثيرة..

وهى تدرك جيدا أن هذه الأشياء قد أسقطت من حسابها أهم مأوى لتلك السعادة نفسها..

كانت تشعر بأن سعادتها بكل ألوانها، مصدرها الآخرون.. أما هى فلقد سعت بكل حواسها لتبحث عن صدى لأعماقها أو ما استطاع أن ينمو فى قلبها من جذور السعادة، فلم تجد نبضة واحدة تشعرها بكيانها أمام كافة المغريات.

كانت صورة مدحت حمدى تقفز إلى ذهنها عند كل تساؤل..

كانت تجد نفسها مضطرة وبدون إرادة لأن تتعايش مع تلك الصورة..

تريد أن تعرف كل شيء عنه.. تريد أن تكيل له كل اللعنات والسباب.. و.. ترغب فى أن تراه مقهورا.. نادما.. محطما..

كانت ترسم فى مخيلتها صورا مختلفة له.. تراه تارة يهمس فى أذن سهير بأجمل عبارات الحب والوله وتارة أخرى فى أحضان فتاة ثالثة وهو يقسم لها بأنها الحب الوحيد فى حياته. ولكنها كانت

دائما تحاول أن تجده أمام عينها باكيا.. شريدا.. مقتولا.. تمنته عدمـا لا وجود له، لا فى حياة الآخرين ولا فى حياتها..

رغبت كثيرا.. وتمنت كثيرا.. وسـهرت طويـلا.. ولكـن.. ولكنها لم تستطع..

لم يكن فى مقدرة خيالها أن يتصور ماذا يمكن أن يكون عليـه مدحت فى تلك الليلة. وقد يكون السبب أنها لا تريد أن تتذكره تلـك الليلة بالذات.

ولكنه موجود.. ويعيش..

يعيش حياة ثائرة.. غامضة.. متمردة..

يراها بعينيه كأنه يتابع أحداث قصة أخرى لا صلة له بها..

يعيش فقط.. يمارس الحب والجنس برغبة جامحة.. يصل الليـل بالشروق دون أن يخطط لذلك.. مبهورا مشدوها، منساقا و.. مخموراً..

إلى أن ترامى إلى أذنيه نبأ زواج عبير.. عن طريق سهير، التـى استطاعت أن تتحالف مع ماضيه ورغبته فى الهروب من واقعـه لكـى تجعل منه وسيلة ناجحة لإشباع طيش عواطفها وجسدها ونزواتـها.. و.. حرمانها.. حرمانها من أشياء كثيرة لم يسـتطع مـن خـلال ظروفـه السكرى أن يكتشفها.. كان فى تصوره أنها خلقت من أجل رغبة جسـدها المتعطش أو من أجل إرضاء مخيلته. لم يخطر على باله أنـها سـوف تخفق فى الاحتفاظ بذلك الدور المرير الـذى أدتـه طويـلا.. إلـى أن جمعتهما لحظة لقاء تخيلها كسابقتها من اللحظات العابسـة وحـاولا أن

يمارسا ما اعتادا عليه إلا أنها فى ذات اللحظة أزاحت أصابعه ببطء عـن صدرها الذى تصدى برغبة جامحة وثقة كبيرة..

وهمست بصوت لم يألفه من قبل:

– ثم ماذا..

فسحب يديه متوترا.. أو عاجزا فى محاولة لاستيضاح الأمر.

– ماذا بك.. هل أنت متعبة.

فالتفتت إليه وهى تحاول أن تجلس القرفصاء على الفراش.

– ليس بى شىء ولكننى أستفسر عن نهاية تلك العلاقة الغريبة التى تربطنا.. سلط عينيه عليها كأنه يبحث عن حقيقة الصدى الـــذى يصل إليه ثم أجاب:

– ماذا تعنين..

وارتبك لنظرتها الوقحة إليه قبل أن تجيبه قائلة:

– أعتقد أن كلامى معك واضح وليس فيه غموض.. أم أنك..

ولكنها ابتلعت باقى الحديث، كأنها أشفقت عليه من ســماعه أو أشفقت على نفسها من اجترار مرارته..

فلاحقها من بين ابتسامة بلهاء:

– أنت حقا غريبة اليوم.. و..

ثم انشغل عنها فى إشعال سيجارته واستطرد:

– وأنا لا أجد مبررا لتصرفك.

نهضت فى ثبات.. أو تثاقل.. وانشغلت عنه بـــارتداء ثوبـــها



ووقفت أمام المرآة تتحسس الفرو الصناعى الذى أحاط بعض أجــزاء الثوب، وتارة أخرى فى جذب الانتفاخين المتكونين أسفل عينيها بكلتـا يديها، كأنها تحاول توزيعه على بـــاقى وجهـــها الـــذى بـــدا عليـــه الشحوب..أو كأنها بمفردها فى تلك اللحظة ثم استدارت إليه متحاشـية النظر تجاهه. وأجابت وهى فى طريقها للجلوس على حافة الفراش..

– إذا كان الأمر كذلك.. إذن لا مفر من المصارحة.. ولكــن.. قبل أن نبدأ أريد أن أسألك سؤالا صريحا أرجـــو أن أجــد الإجابــة الصريحة عليه.

– سلى ما شئت..

قالها وهو يتكئ على مسند الفراش.. وينفث سيجارته بـــهدوء فبدا وكأنه يتجاوب فى الحديث مع طفلة صغيرة يخشى أن يغضبها.. ولكن الأمر كان أكبر من توقعاته عندما بادرته قائلة:

– ألم تفكر فى علاقتنا.. أقصد ما بينى وبينـــك.. إلـــى أيـــن نسير.. وكيف ستنتهى.. وما هى النتيجة..

إذن لا مفر أيتها المتصابية العجوز..

– النتيجة التى تريدينها أحققها لك فورا.

فسارعت وهى تهم بالنهوض فى محاولة لجذبه معـــها وحثـــه على ذلك.

– إذن هيا نرتدى ملابسنا سريعا.. هيا يا مدحت.. كـــم أنـــا سعيدة.. أنت حقا تحبنى..

فتراجع برأسه مندهشا لتصرفها ثم أتى بحركة علـــى شــفته أوضح فيها عن كل تساؤلاته.. واستطردت هى..

– هيا إلى أقرب مكتب ليتم زواجنا.. ألم تقل أنك توافقنى على ذلك..

ثم استدارت إلى منتصف الحجرة وأخذت تأتى بقفزات راقصة أمام عينيه كأنها أفعى تحاول الانتصاب على ذيلها وهى تحــاول أن تزيد من دلالها.. تابعها مقهورا وكأنه يراها لأول مرة.. يدقق النظــر فى فخذيها المترهلين تارة وأخرى يسقط بعينيه إلى ســاقيها اللتيــن برزت فوقهما عروق قبيحة نافرة.. وببطء تسلل إلى وجهــها كأنــه يتوقع صورة لا محال ستقلب معدته، فتبين فى طريقه صدرها غــير المتناسب مع منكبيها العريضين ثم استسلم أخــيرا لنظــرة فاحصــة طويلة نحو وجهها مكتشفا شحوبه وتطرف ذقنها قليلا إلى اليسار.

يا إلهى.. كيف احتضنت تلك المخلوقة إلى صدرى.. كيف لــم ألحظ هاتين الساقين المتصلبتين وهى بجانبى.. كيف لم.. ولكنه انتبــه إلى نظرتها التى صوبتها فجأة وقد توقفت تماما عن الحركة وهمست بخبث واضح:

– أراك لم تتحرك من مكانك.. أم لم يسعدك ما اتفقنا عليه..

فاضطرب برهة ما بين المحاولة لاستجماع شــتات ابتســامة على شفتيه ولو صفراء أو باهتة وبين الإجابة عليها..

– أنا.. كيف .. ولكن أنت تعلمين ظروفى.. و..

فقاطعته مرة أخرى وقد احتوت الصرامة عينيها..

– انتظر.. ولا تكمل

أزاحت مقعدا بحركة عصبية واتخذته مجلسا فـــى مواجهتــه تماما ثم أردفت..

– أنت الذى دفعتنى إلى ذلك الموقف.. لقد صارحتك يوما بأن كلينا له نفس الخصال.. ومشكلتنا أن كلا منا استطاع أن يفهم الآخـــر بسهولة.. وأنت..

فقاطعها:

– أى خصال التى تقصدينها؟

وهو يعتدل فى جلسته.. فتخلصت من عود الثقاب الذى أشعلت به سيجارتها، وقالت دون أن يهتز لها طرفة عين:

– أنت إنسان أنانى يصعب مراوغتك فى مثل تلك الأمور وأنـــا كما تعلم لا أحبذ أن أكون غبية.. أنت لا قلب لك.. وأنا لا مبدأ لـــى.. أنت تطمع فى استغلالى.. وأنا وجدتك صيدا طائعا ألهو به انتقاما مـــن كثيرين فى شخصك، أنت لديك القدرة لأن تعطـــل عقلـــك ووجدانـــك وكرامتك لفترة حتى تحقق غايتك.. وأنا أملك المقدرة على أن أكتشـــف أمثالك من اللحظة الأولى..

فهمس بهدوء غير متوقع..

– أنت إنسانة ساقطة..

فلاحقته بصوت يشبه صدى الأعماق الخافت..

– وأنت إنسان ضائع..

وقبل أن تمنحه فرصة التعليق.. استطردت وهى تضم ساقا على أخرى حتى بدت وأنها فى حديث هادئ..

– ثم لا تغضب كثيرا يا عزيزى.. فكلانا كان خاسرا فى تلك اللعبة المملة..

فرفع عينيه إليها وهو يضغط على فكه بأسنانه.. كأنه يطحن ثورته خوفا على نفسه من نتائجها بينما واصلت هى:

– أنت خسرت خطيبتك أو حبيبتك كما كنت تدعى.. وأنا خسرت موردى وحبيبا عاشقا كان يمكن الاستفادة منه..

ثم انطلقت بدون مقدمات فى ضحكة مجلجلة جعلتها تميل برأسها عدة مرات للوراء وللأمام، وانتكش شعرها القصير فبدا كأنه جزء من ظهر القنفذ عند غضبه.. وأشارت بيدها إليه كأنها تنفى شيئا لا تستطيع التعبير عنه بعد ما تملكتها نوبة الضحك بعصبية واضحة، وبعد عدة محاولات استطاعت أن تواصل حديثها.

– لا تخشى شيئا فأنا لا أضحك منك.. ولكنى أضحك من نفسى.. قررت أن أحطم قلبك بفقدانك لعبير.. فسلبت تلك القطة العمياء أهم رصيد لى..

ثم تمتمت بصوت كالحشرجة وهى تسقط عينيها فى نظرة هائمة..

– ذلك الوغد مصطفى الكيلانى سأريه كيف يكون مصير كل إنسان يحاول اللعب بمشاعرى..

مضت لحظة صمت قاسية على كيانه، لم يستطع أن يحدد

خلالها إن كان يعيش واقعا حقيقيا أو أنه يسبح مع كابوس مظلم جعلـــه ينتفض ألما وهلعا وهو لا يملك حياله أى سلطان..

فقط ينظر إليها من خلال عينين جليديين.. شارد الفكر أو فـاقد التوازن.. لا يدرك شيئا سوى أنه أمام مرآة فاضحة لحقيقة واقعـــه، مما ألجم لسانه وشتت الحروف على شفتيه. كاد أن يـــهم بـــالوقوف وهو يهندم ملابسه بعد أن حول نظره عنها إلا أنها استوقفته هامسة..

– إلى أين.. بإمكانك أن تنتظر حتى الصباح.. و..

ولكنه أكمل متجاهلا كلماتها، وتناول حقيبة ملابسه الصغـــيرة وبدأ يضع كل ما يخصه دون أن يلتفت إليها..

واستدارت هى برأسها تجاهه واستطردت:

– أنا لا أرى مبررا لغضبك.. أو لصمتك هذا.. ثم إلـــى أيـــن ستذهب الآن.. أم أنك تذكرت مكانا آخر يمكنه اســـتقبالك فـــى هـــذا الوقت.. على كل حال أنا لا أخشى عليك.. لأنك خير مـــن يســـتغل الأمور لصالحه.. كما أنك..

ولكن لم يعد فى استطاعتها أن تكمل حديثها.. ولا أن ترى شيئا مـــن حولها.. كانت تترنح فى كل اتجاه من توالى الصفعات الثائرة التـــى انهالت عليها فوق كل جزء من جسدها، كان يضربها بقسوة لا هوادة فيها.. كان يضرب بكل ما أوتى من قوة.. يركلـــها بقدمـــه دون أن يدرى أين سيستقر حذاؤه.. يبصق عليها وهى متكورة علـــى الأرض تحاول أن تتفادى ضرباته المتلاحقة.. باتت عيناه كجمرتـــى لـــهب، وعروق رقبته كادت أن تنفجر فبدت وكأنها سلاسل زرقـــاء تحيـــط

بعنقه وتضغط على أنفاسه لدرجة الاختناق.. صـــدره ينتفــض فـــى صرخات مكبوتة، يلهث مع نبضاته فى اضطراب شديد..

وفجأة كأن شيئا لم يكن.. اضطربت يداه فى الهواء وأسقطهما فـــى استرخاء بجانبه.. وتصلبت عيناه عليها.. لا شىء حوله يمكــن أن يصـــل صداه إليه سوى حشرجة أنفاسه الثائرة..

لا شىء سوى أنها دفنت رأسها بين ثدييها وهى منبطحة علـــى الأرض.. يهتز جسدها مع كل ركلة وأثر كل صفعة.. دون أن تعــبر عن ألمها أو ثورتها..

أحس برجفة تسرى فى كيانه.. رجفة خوف لـــم تكــن فـــى حسبانه عندما بدأ يكيل لها اللكمات والصفعات.. اختطفته لحظة ترقب من ذلك الواقع الثائر.. راوده خاطر ساذج مقتحما مشاعره الغاضبة..

– ماذا أفعل..

وما كاد ينحنى عليها، حتى تراجع مســـرعا وهـــو لا يـــزال مسلطا عليها نظره. كانت تحاول بصعوبة بالغة أن تنـــهض رأســـها قليلا إلى أعلى حتى استطاعت الارتكاز على ركبتيها أمامه.. ورفعت عينيها إليه فى نظرة حاقدة فطالعته خيوط دامية تنساب من طرفـــى شفتيها، تدفقت بوضوح عندما بدأت كلماتها قائلة:

– ذلك اكتشاف آخر يجب أن تضيفـــه لمعلومـــاتك عـــن نفسك.. وبصعوبة نجحت فى محاولتها لتزدرد ريقها ثم أردفت:

– هو أنك جبان.. لا تقوى على مصارحة نفســـك بحقيقتـــك

وبحقيقة كيانك الضائع..

ثم أسقطت رأسها مرة أخرى إلى الأرض فى إعياء تام، حتــى إنها لم تلاحظ قدميه وهما تجران خطواته إلى الخارج..

لم يكن الوقت متأخر كثيرا.. فالليل لم ينتصف بعد.. خطواتــه القليلة نقلته إلى كورنيش النيل الذى احتوى ضوء القمر فــى هــدوء عظيم فبدت المياه وكأنها قشرة من الفضة اتخذت شكلا هلاميا. كــان يسير بمحاذاته ممسكا بحقيبته تخفيه أفرع الأشجار المتزاحمة علــى مسافات متقاربة فى طريقة ثم تكشفه تارة أخرى وعينــاه مســلطتان تجاه ذلك العملاق الهادر والزاحف فى سكون، كأنــه فــى محاولــة لاختراق تلك الأعماق الغامضة بنظرتــه.. أو البحــث عــن نفســه وحقيقتها داخل هذا العالم الغريب..

توقف مستسلما متخذا من الأريكة الرخامية متكأ بإحدى قدميــه واستند بصدره على الحاجز الحديدى وقد تدلى رأسه قليلا إلى ذلــك الفراغ الذى يفصل بينه وبين السطح الهائم مع اتجاه النسمة أو بيــن الحياة والموت..

تملكه إحساس لم يألفه فيما مضى من حياتــه، إحســاس لــه سلطان قاهر على كل خلجاته النابضة.. سيطر على ماضيه وحاضره دون عناء.

كأنه طفل يستنشق أول شهقة فى حياته، ويصطدم بأول ضوء فــى عينيه ولكنه طفل مدرك.. طفل شاذ.. أحس بنقاء فــى أعماقــه يضفــى عليه شفافية ساحرة، جعلته يسبح مع واقع لــم تتطــاول إليــه أحلامــه

الطامحة ذات يوم! وكأنه بعث إلى الحياة لتوه.. لا صـــدى لماضيـه أو لأعماقه سوى خصلة اقترنت به من حيث لا يدرى كـانت تعلـن عـن نفسها بترديدها فى إصرار قاهر كلمات تأتيه من عالم آخـر لا يعـرف عنه شيئا.. ولا تعايش معه لحظة واحدة، كلمات مجهولة المصدر.

ولكنه يدرك ويشعر بمعناها..

– أنت جبان.. أنت لا تدرك حقيقة كيانك الضائع..

أحس بها طبول حرب هائجة تقرع أذنيه.. أو أصـابع اتـهام تلاحقه بوصمة عار..

يا إلهى.. يا خالق الكـون ورب العـالمين.. أيـن كنـت.. وكيـف أصبحت.. أنا لم أقترف إثما.. فكل من حولى آثمون.. فلماذا أتحمل وحدى..

أمى أكثر منى أنانية.. أبى أقرب منى استسلاما، زوجته أشـد رغبة للسيطرة من طموحى.. رجل أمى الثانى أعظم استغلالا مـن محاولاتى.. فلم أنا فقط.. التفت إلى الوراء فجأة كأنـه يـهرب مـن إجابة توقع أن تصله.. أو فى محاولة لينقل نفسه من واقع إلى آخـر.. فاصطدمت عيناه بعاشقين يسيران بخطوات حالمـة، يسـبحان فـى حديث خافت لا يكاد يتبين منه سوى حركة شـفتيهما، تابعـهما دون اعتراض بنظرة أفسحت أمام ذاكرته صورة عبير..

الخائنة التى باعت نفسها من أجل المظاهر.. الخائنة التى زحفـت وراء المال بعد أن قدمت مشاعرها وقلبها قربانا لرغبتها.

الخائنة التى..

ولكنه انتبه لهاتف ثقيل على أعماقه، أحس به يخزه فى صدره مرددا.. وأنت.. ألم تستجب لأنانيتك.. ألم تصم أذنيك عن محاولاتها لاستعادتك.. ألم تستغل حبها لصالح نزواتك.. ألم..

تاكسى .. تاكسى..

اندفع تجاه سيارة الأجرة التى وقفت ثم دخلها بعد أن ألقى بالحقيبة بجانبه.. ثم همس بنبرة منهكة كأنه عائد من رحلة طويلة قطعها لاهثا على قدميه..

- الحلمية يا أسطى من فضلك ..

كان يفكر بعمق وهو قابع داخل السيارة، كأنه يبحث فى أعماقه عن سبب واضح أو قريب ليلقى عليه عبء اللوم الذى جثم على رئتيه بلا هوادة..

عيناه تطلان من خلال النافذة الزجاجية فى ثبات.. لا يحاول أو لا يقوى على متابعة كل ما يصادف السيارة وهى فى طريقها..

النظرة واحدة.. والأشياء تختلف..

كأنه لا يرى سوى شريط ذكريات يخص ماضيه وحده.. أو لا يرى غير أحداث يسعى إليها بخياله بحثا عن مبررات قد تنقله بعيدا عن موقفه الأخير.. أو تلغى من حياته ذكريات لا يريدها..

الإنسان دائما يسعى إلى التخلص من ذكرياته عندما لا تتناسب مع واقعه الجديد.. فيكون العذاب وكل العذاب لمن لا يستطيع أن يقبر تلك الذكريات ومدحت يدرك أنه يتعايش مع واقعين، أحدهما حياته من

خلال كل الظروف التى فرضتها أحداثه.. أو قدره.. وواقـــع آخــر لا يملك حياله شيئا لأنه ترسب مع السنين منذ نشأته وتسلل إلى وجدانـــه فارضا كل مكتسبات بيئته وخصاله كما تخترق جذور الزهــرة اللينـة سطح الأرض، وقد تأتى رياح قوية فتطيح بساقها بعيدا عن موقعـها.. ولكن.. تبقى الجذور دائما حتى ولو كانت بعيدة عن الأعين..

أحس بالعذاب.. أحس به لأول مرة.. فرق كبير أن يشعر بنفسه ضائعا.. أو تائها، وبأن يستشعر العذاب مصحوبا باعتقاد راســخ بــأن مثله لا يحق له التعبير عن شكواه.. لا مجال إذن للمحاولة..

عليه أن يجتر الندم فى صمت.. لن يجد آذان صاغيــة فكلــها منشغلة بأحاديث أخرى..

قد يكون مجهول الملامح الآن بالنسبة إليهم.. ومجهول الذكريات..

قد يكون مرفوضا من الجميع أسوة برفضه لنفسه.. لا أحد يطمــع فى مصادقة إنسان ضعيف.. باع كيانه ووجدانه للشيطان.. أو لسهير..

- قف يا أسطى هنا..

الظلام جاثم على الحارة من كل جانب، كأنها اكتأبت لاستقباله وأحست بنفس الانقباضة التى سيطرت على صدره..

ولكنه الاحتياج..

كانت عيناه تستطلعان الطريق فى مذلة، كأنه يخشى أن يلتقــى بأحد من الأهالى فيصطدم بتجنبهم كما حدث فــى المــرة الأولــى.. فالأمر يختلف الآن كثيرا..

لقد عاد إليهم فى المرة السابقة تسيطر عليه رغبة الاستطلاع أو المجاملة ولم يهتز كثيرا لموقفهم لأنه يعرف إلى أين سيعود..

واليوم فقد أشياء كثيرة.. أحس بها دفعة واحدة.. كما أنه لا يعرف إلى أين سيعود.. فقد كرامته.. ووظيفته.. ومشاعر الآخرين تجاهه..

اندلف داخل المنزل الذى كان يقطن فيه.. تنفس الصعداء حينها لأن أحدا لم يره، وبدأ يصعد الدرجات وهو يستجمع فى خاطره الكلمات التى سيبدأ بها أمام الأسطى محمد مستعطفا إياه ليمنحه المفتاح مرة أخرى، وما كادت يده تلمس الباب حتى تراجع مسرعا، كما لو كان قد مسه تيار كهربائى عنيف، حيث إنفلج الباب أمامه ليظهر واضحا المعلم عباس متأهبا للانصراف وبجانبه (زنوبة) ملتصقة به مع رجفة الوداع.. وتصلب الثلاثة فى مكانهم دون حراك..

بدت فى صورة مثيرة فاضحة، ملتحفة بمنشفة صغيرة استطاعت بصعوبة أن تستر جزءا من ثدييها اللذين استقرت عليهما نتوءات سطحية كما لو كانا قد تعرضا لقضمات ذئب ضال، وأخفت بكفها فى استرخاء ما تبقى من عورتها.. عيناها تجمدت تجاهه مذعورة ووجهها تسربت منه الدماء فى لمحة خاطفة فاختلطت فوقه ألوان مختلفة من المساحيق. أسرعت بدون إرادة تصفف شعرها المنكوش فوق رأسها فسقطت المنشفة التى انحنت عليها بينما انتحى المعلم عباس بعيدا عنها والارتباك يشمل حتى جلبابه الفضفاض ثم واصل خطواته تجاه الدرج منصرفا بصعوبة بالغة استطاع أن يهمس إليه دون أن ينظر تجاهه:

- مرحبا بالأستاذ..

لم يجب مدحت.. وانتبه على صدى خطـوات الرجـل فـوق الدرج الأخير فأسقط نظره ليلتقى فى طريقه بتلك المرأة الجالسة فـى وضع القرفصاء مشلولة الحركة والالتفاتة..

وبلا مقدمات فاجأها ببلاهة..

- عفوا.. هل الأسطى محمد هنا..

فأشارت نافية برأسها وترامى إلى مسامعه صوتها كأنـه آت من عالم آخر..

- الأسطى محمد فى زيارة والده فى البلدة.. و..

فلاحقها بثبات أدركت من خلاله حقيقة موقفه..

- المفتاح..

نهضت بوقاحة لا تتناسب مع موقفها.. وأحاطت بعض جسدها بالمنشفة مرة أخرى.. وهى ترمقه بنظرة تضم معان كثيرة لم يستطع أن يتبين منها سوى معنى الاحتقار.. وغابت للحظة عادت إليه تناوله المفتاح وهى تتمتم بنبرة جريئة.

- إليك بالمفتاح بالرغم من أن الأسطى محمد سيغضب لأننـى أعطيتك إياه..

ثم رفعت حاجبيها حتى كادا أن يلامسا خصلة شعرها المنـهدل وأردفت:

- وربما يكون تصرفى هذا دليلا على بدء صداقتنا...

وأغلقت الباب بلا استئذان.. واستدار هو بلا غضب وبدأ يصعد الدرج فى خطوات متثاقلة إلى أن وصل لمسكنه القديم ودلف داخله وهو يستطلع كل شىء فيه ولكنه بدا على حاله وكأنه لم يغب عنه طوال تلك الشهور الماضية، وفى استرخاء المنتشى ألقى بنفسه على الفراش، ورأسه الثقيل يموج بأصوات تتسابق مع أفكاره المنتشية.

حتى (زنوبة) اكتشفت أنك على استعداد للتغاضى عن أشياء كثيرة.. فى سبيل حصولك على المقابل.. فى السابق قدمت كرامتك فى سوق المهانة والمذلة مقابل وظيفتك، وارتضيت أن تستنشق رائحة عرق (صدقى) بك على جسد سهير فى كل مساء وهى بجوارك فى سبيل الوظيفة..

واليوم تبيع نخوتك وأشياء كثيرة من أجل تلك الجدران التى تأويك من عيون الآخرين..

ولكن أتراها تحميك من عين ضميرك؟..

ردد فى صمت:

- ضميرى..

ثم أغلق عينيه وراح فى النوم..



لم تكن الشمس قد تخلصت بعد من الوشاح الضبـــابى الــذى أحاط بها فى الأفق.. بدت الشرنقة الذهبية وهى تهتز بتثـــاقل كبـير لتأتى فى النهاية بشىء ما يعلن عن حياة جديدة.. أو يوم جديد..

تعالت أصوات من كل جانب.. متباينة النبرات، إلا أنها جميعا مشتركة فى نشازها وصداها الجهورى.

جواهر يا طماطم.. لوز يا خيار.. قشر الذهب يـــا بصــل.. زغلول يا بلح..

وبين الحين والآخر تتربع حنجرة بصيحة متميزة..

حليب يا قشدة..

يفتح مدحت عينيه بصعوبة كبيرة، ليكشف عن خيوط داميــة تشابكت حول مقلتيه شعر بها ملتهبة وكأنها أسلاك معدنية على وشك الانصهار فوق اللهيب..

كانت ليلة عصيبة..

راوغه النوم متخليا عنه معظم ساعات الليل.. وتدخل الإرهاق منقذا فمهد له النعاس لسويعات قليلة، استيقظ بعدها على هذه الحـــال. أطل برأسه من خلال النافذة فى محاولة لرؤية دكان عم ربيع، ثم دفع بصدره إلى الهواء عساه يتمكن.. ولكنه أخفق..

تراجع بحماس كبير، وانتهى من تبديل ملابسه فى دقائق قليلـة

كان بعدها يخطو بخطوات متلهفة تجاه الدكان.. مقر عمله السـابق.. كانت أغلب المحال لا تزال موصدة.. حتى المعلم عباس تغيب علـى غير عادته لسبب قد لا يدركه سواه. تلكأ قليلا عندما لاحظ أن دكـان عم ربيع لا يزال موصدا هو الآخر، ولكن سرعان مـا انتظـم فـى خطاه فى اللحظة التى رأى فيها الأسطى قاسم يتخلـص مـن نتـاج مقصه فوق رؤوس الأمس ويلقى بها عامدا تجاه دكان الأسطى محمد مستغلا تغيبه أو مستضعفا موقفه.

وما إن التقت عيونهما حتى صاح الأسطى قاسم مرحبا..

- الأستاذ مدحت.. إنها لمفاجأة سارة والله..

صافحه مدحت مبتهجا لحسن استقباله.. ثم قال:

- كيف حالك يا أسطى قاسم.. كيف حالكم جميعا.. لقد شعرت بالغربة وأنا بعيد عنكم..

جذبه برفق إلى داخل المحل مشيرا عليه بالجلوس..

- تفضل اجلس يا أستاذ..

ثم اتخذ لنفسه مقعدا قريبا منه واستطرد..

- أين كنت طوال تلك الفترة.. كيف حالك..

لاحقه مدحت فى محاولة لمعرفة كل شىء دفعة واحدة.

- ماذا عنكم أنتم.. وأخباركم.. أخبار كل الناس.. أخبار الحـارة وعم ربيع وأنت وعبودة والأسطى فهيم.. كل الناس.. كل الناس..

تململ الأسطى قليلا واضعا على وجهه أسارير جادة:

– أنت تعلم يا مدحت أفندى كيف أعانى من التفاوت الثقـــافى الذى بينى وبين أهالى تلك الحارة خاصة ذلك الرجل المتأخر ربيع..

– أين عم ربيع..

ربيع اليوم طائر بأجنحة الفرحـــة.. ذهـــب لاســـتقبال ولـــده صفوت.. تردد قليلا ثم سأل مرة أخرى.. ولكن أين الموظف الجديد؟

تحركت تفاحة آدم فى رقبة الأسطى قاســم بشــدة وهـــو يقهقـــه بضحكة عالية واختلط عليه السعال بالضحك أثارت مدحت.. ثم أجاب..

– أى موظف تقصد.. فكل الذين جاءوا بعدك جدد.. وأغلبـــهم ترك العمل راضيا أو مقهورا فى فترة لا تتجاوز الشهر.. و..

قاطعه بلطف:

– أنا أقصد الأخير..

– الأخير كانت له قصة طريفة.. فهو بات بين ليلة وضحاهـــا يمثل مدير علاقات لأغلب عاملات المنازل فى المنـــاطق المجـــاورة بعيدا عن الحارة، ولذلك لم يكن لديه وقت لمتابعة أعماله مع ربيـــع.. حتى جاء اليوم الذى اكتشف فيه مصادفة أن الموظف المبجل جعـــل من الدكان مقرا سريا للمقابلات الليلية بعـــد ذهـــاب الجميـــع إلـــى منازلهم.. تصور..

ثم أطلق لحنجرته مرة أخرى العنان فى ضحكة متشعبة.. واستطرد:

– تصور بين زيتون ربيع والجبن والفلفل الأسود تدور أحداث قصة حب مثل هذه..

توقف فجأة وصمت مقتضبا ثم همس بخبث..

- إنه يبحث عن موظف آخر ما رأيك لو..

فقاطعه مفزوعا:

- أنا.. مستحيل.. أقصد هذا أمر بعيد الاحتمال.. أنا أعـــرف جيدا عم ربيع.. وأعرف ما آلت إليه مشاعره نحوى الآن.

- بإمكاننا التدخل.. و..

رفع عينيه بنظرة خاطفة تجاه شرفة عبير ثم أردف:

- الظروف لم تعد تسمح الآن يا أسطى قاسم.

لم يرغب الأسطى قاسم فى أن تفلت منه فرصة المحاورة فـــى حديث أكثر إثارة، فرفع حاجبيه وهو يهز رأسه متأنيا كأنه اكتشـــف شيئا خطيرا..

- فهمت.. تقصد موضوع الست عــ ..

لاحقه وهو يميل برأسه قليلا تجاه صدره..

- أجل.. ولكن..

فانتبه إليه بتحمس..

- ولكنى جئتك اليوم طالبا أمرا وأنا على يقين بـــأنك الوحيــد الذى يمكنك إفادتى..

انتفخ صدر الآخر فجأة ولمعت عيناه الدقيقتان فى انتظار ذلــك الطلب ثم اعتدل فى جلسته قائلا بنبرة ملؤها الشهامة.. أو هكــذا أراد لها أن تكون..

- أى أمر يا أستاذ..

- علمت مثلكم جميعا بنبأ زواجها..

فوافقه بإيماءة من رأسه قبل أن ينطق باسمها كأنـــه يضيــف لذكائه رصيدا جديدا على حين تشجع مدحت أو شجعته تلك الإيمـــاءة فواصل كلماته باسترسال..

- علمت بأنكم لازلتم على اتصال بها.. بل وتذهبـــون إليـــها بانتظام أنا لا أريد منك أكثر من عنوانها.. عنوانها فقط يـــا أســـطى قاسم.. هناك حديث يجب أن تسمعه هى.. من حقى أن أقوله لها..

قاطعه بحذر..

- فى الحقيقة يا أستاذ مدحت أنت تضعنى فى موقف لا أحسد عليه..

فنهض من مكانه وألقى نظرة سريعة أمام المحل وبجانبه ثـــم عاد بخطوة أسرع وهمس بصوت مضطرب:

- كم وددت لو كانت من نصيبك.. فأنت لا تعرف زوجـــها.. يقولون أن اسمه مصطفى بك الكيالى أو الكيلانى.. لست معجبا بـــه.. أنت تعرف أن لى زبائن خاصة جدا لا يظهرون فى حارتنا أفضـــل مائة مرة منه.. أنت تعرف..

فتدخل مدحت مغتاظا..

- يا أسطى قاسم أنا لا أريد معرفة مشاعرك نحـــوه.. أريـــد العنوان فقط.. أرجوك اعطنى العنوان..

- العنوان.. الحقيقة أننى لا أعرف اســـم الشـــارع.. ولكنـــى

أعرف مكان الفيلا.. هى فى مصر الجديدة أمامها حديقة أسطوانية الشكل.. لا .. إنها مستطيلة بالتأكيد..

- يا أسطى قاسم كيف أستطيع معرفتها.. إن هذه المنطقة مليئة بمثل تلك الحدائق.. صمت برهة ثم استطرد..

- ما رأيك لو جئت معى وتشير إليها أمامى..

فالتفت كأن عقربا داعب إصبع قدمه..

- أنا.. أنا قاسم عبد الصمد يقوم بمثل تلك المهمة.. كيف طرأت عليك تلك الفكرة.. معقول هذا..

وقف مدحت فى مواجهته بعينين زائغتين وارتباك واضح..

- أنا لا أقصد إهانتك يا أسطى قاسم.. ولكنى فى حاجة إلى معرفة عنوانها وأنت وحدك تدرك كم أتمنى ذلك.. أرجوك..

استدار قاسم وتركه يواصل كلماته على حين اتجه إلى أحد الأدراج وانشغل بعض الوقت فى تقليب أوراق الدرج رأسا على عقب ثم عاد إليه وهو يناوله ورقة صغيرة قائلا:

- إليك رقم تليفونها..

وما كاد مدحت يتناولها منه حتى سحب يده مسرعا وأخفاها وراء ظهره..

- ولكن على شرط أن يكون ذلك سرا بيننا مهما كانت الظروف..

- أعدك يا أسطى قاسم.. أقسم لك أنه سيكون كذلك..

فأعاد يده مرة أخرى وناوله الورقة، وما كادت أصابعه تلامسها

حتى اختطفها ووضعها بين قبضة يده دون أن يلتفت إليه مرددا..

- أشكرك.. أشكرك..

وفى أقل من لحظة كانت قدماه تخطوان من جديد على الطريق وكأن شيئا لم يكن.. بينما وقف الأسطى قاسم مشدوها لهذا التصرف غير اللائق يتابع بعيناه ذلك الساحر الذى سلب عقله وجعله يتجاوب معه بهذه الكيفية وفى النهاية يتركه بطريقة غير مهذبة..

.. ما الذى تريده يا مدحت..

كنت تبحث عن واقع آخر غير واقعك.. قامرت بكرامتك فى سبيل ذلك.. قايضت بمشاعرك مقابل استسلامك لرغبة جامحة فى الحصول على كل شىء.. تريد المال والمركز والحب والانتقام..

فكنت كالنار التى تأكل نفسها تزداد اشتعالا كلما اقتصت من وقودها لتزيد رغبتك فى الانتقام، جعلتك تبحث عن وسيلة إلى المال كما ظننت، ومن أجل المال قبرت مبادئك.. أردت المركز فقدمت مشاعرك طواعية للظى الغدر والمراوغة.. كنت تأخذ بيديك وأنت تجهل كم تدفع.. دفعت الكثير.. والكثير جدا.. ومن أجل الحب تركت كل شىء.. تركته وأنت لا تدرى إن كنت مقهورا راغبا.. ولكن النتيجة واحدة.. توقف برهة أمام مدخل الكازينو الذى شهد لقاءه بعبير أكثر من مرة..

كان من حقك أشياء كثيرة.. أن تعيش مطمئنا.. سعيدا.. هادئا ولكنك لم تكن تملك شيئا مطلقا.. فتصورت أنهم أنكروا عليك تلك الحقوق.. أهو أبى.. الذى اتخذ القرار كأنه ينتظره طويلا فأسرع إليه

بمجرد أن لاحت له فرصة الانفصال أم كانت فى حينها هـــى آخـــر مرحلة من مراحل محاولاته اليائسة معها..

أم كانت أمى هى التى دبرت من أجل غرض فى نفسها.. أم أنـــا..

تجاوز المقاعد بخطى متئدة، يدور بعينين لا تريـــان وحديـــث صامت يهاجمه بين الآونة والأخرى فى تكرار أنهك مشاعره الحائرة تارة متهما وأخرى مغلوبا على أمره وثالثة لاعنا مجتمعه كله..

انتظر برهة لحين انتهى أحدهم من استغلال التليفون ثم تلقـــف منه السماعة قبل أن يضعها فى مكانها وبدأ بإصبع جـــامدة لا حيـــاة فيها يدير القرص وعيناه تنتقلان من رقم إلى آخر، وتجمعـــت كـــل حواسه فى لحظة ترقب لم تطل عليه حتى أتاه صوت يعرفه جيدا.. يحس بكل نبرة فيه ولطالما استسلم لأنغام حروفه وصـــداه.. صـــوت عبير.. توسل.. ألح بإصرار تكلم كثيرا، طلب فرصة واحدة..

- امنحينى فرصة واحدة ثم افعلى ما شئت.

وفعلت ما أرادت هى دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

أغلقت الخط..

حاول مرة أخرى ولكنه فشل.. كان يعلم أنه سيفشل كثيرا..

ويعلم أن الطريق أمامه سيدمى قدميه.. كان يعلم عن كبريـــاء عبير أكثر مما يعرفه عن نفسه، ولذلك تحصن بكل ما تبقى لديه مـــن إصرار وصمود من أجل هذا الموقف.

لم يعد يعنيه نتيجة محاولاته بقدر مـــا كـــانت تريحـــه تلـــك

المحاولات فكل يوم يمضى يزف إليه صراعا جديدا ويحيطه بألم قاس يشتد مع تمنعها ولكنه لا يكل بل لا يقوى على التراجع إلى أن سنحت له الفرصة التى كان ينتظرها.. ولكن بشكل آخر.. بموقف غريب ارتضاه لنفسه واستزاد من خلاله برصيد جديد من الحقد وكراهيته التى شملت فى النهاية كل من حوله..

وجها لوجه أمام سهير مرة أخرى، جاءته بنفس الابتسامة الساحرة تضع بين يديه عرضا غريبا لا يقل عن غرابة تصرفاتها. كشفت له عن معلومة أخرى ما كان سيدركها يوما لو استمر وراء مكتب عم ربيع أو لم يثر لكرامته فى لحظة غضب معها..

معلومة جديدة تطالب بأن كل ما يتمناه الإنسان أو يرغبه فهو حق حتى ولو كان باطلا.. وقفت أمامه برهة وبدأت حديثها قائلة:

- أرجو أن تكون قد أدركت أنك تسرعت كثيرا بانفعالك الذى لا مبرر له..

- كيف عرفت أيتها المغرورة التافهة

ابتسمت ابتسامة بليدة ثم قالت:

- لا داعى لأن تبرهن على أخلاقك بتلك الألفاظ.. فكلانا يعرف الآخر تماما.. ولكن بيننا مصلحة مشتركة وليس من صالحنا الانفصال الآن على الأقل..

- ماذا تعنين..

- أنت بدونى لن تصل لعبير وأنا بدونك سأجد صعوبة

لاسترداد مصطفى..

صمتت برهة ثم أردفت..

– أنا من صالحى أن تعود إليك تلك الشحاذة اللئيمة، ولذلك أقدم إليك مساعدتى مرغمة وغير طائعة..

– ومن قال لك أننى سأقبل مساعدتك.. ثم ألا ترين أنه شىء مضحك.. كيف تقدمين مساعدة وأنت نفسك فى أمس الحاجة لمن يساعدك أنت مخلوق كريه، لفظك المجتمع.. و..

قاطعته قائلة وهى تحتفظ بابتسامتها الباردة..

– سنعود للفلسفة يا أستاذ.. قلت لك من صالحنا أن نستمر معا تلك الفترة ولا داعى لتقمص صورة تختلف عن حقيقتك.. فأنت فى سبيل تحقيق رغباتك يمكنك أن تفعل أى شىء..

– وأنت..

قالها بسخرية..

– أنا أيضا مثلك فى بعض الأمور ولكنك لن تكونى مثلى فى كل شىء..

– سأقتلك يوما..

– متى سنلتقى مرة أخرى..

– سأكون سعيدا لو استطعت تحطيمك..

– عندما أجد الوسيلة المناسبة سأتصل بك.. كن فى انتظارى.. استدارت منصرفة عنه دون اهتمام، فاستوقفها بلا تردد!

- انتظرى.. أود أن أبلغك شيئا قد يسعدك كثيرا..

رفعت حاجبيها متسائلة فى صمت.. ثم أردف..

- رفضت عبير محادثتى عندما حاولت

أطلقت لحنجرتها العنان فى ضحكة ساخرة استاء لها كثيرا ثــم صمتت فجأة ورمقته بنظرة ملؤها التحدى وهمست:

- ألم أقل لك أنك فى حاجة لمعونتى..

- سنرى إن كان مصطفى الكيلانى لا يزال مستعدا لمعـــاودة تلك المأساة الهزلية.. سرعان ما ساد الشحوب وجهها وهى تضغـــط على شفتيها ثم قالت بصوت حبيس..

- سأتحمل سخافتك إلى أن تنتهى .. كن فى انتظارى..



ترددت عبير كثيرا قبل أن ترفع سماعة التليفون لتوقف رنينــه المتصل شعرت بأن المتحدث سيكون مدحت حمدى.. وهى لا تريــد حتى مجرد ذكراه فى خيالها، ولكن شيئا ما كان يدفعها لمعرفة مـــاذا يريد.. فهى أدركت بعد رحلة طويلة من العناء أن لديه القدرة الفائقــة للسيطرة على مشاعره ولا شىء يحول دون الإفصاح عـــن رغباتـــه حتى ولو كان على حساب نفسه.. وصدق إحساسها. وما أن رفعـــت السماعة حتى بادرها قائلا:

- عبير أرجوك لا تغلقى السماعة.. أنصتى إلى ولـــو لآخــر مرة.. أرجوك يا عبير..

وازدادت جرأته عندما تأكد من استمرار اتصاله بها فأردف بهدوء..

- كنت أعيش فى دوامة مريرة بعيدا عن كيانى وعقلى.. لـــم يكن فى مقدورى مقاومة ذلك التيار الضائع الذى أذهلنـــــى بريقـــه.. أحسست بالخوف.. صدقينى يا عبير.. الخوف مـــلأ أعمـــاقى.. أنـــا أحبك .. أنا ..



ولكن توقف كل شىء من جديد بعد أن أعـــادت الســماعة إلـــى مكانها.. وتناثر صداه عبر الأثير.. كانت تعيش فى وحدة مملة.. ولكـــن وحدتها ترفض أن يكون مدحت هو أنيسها.. الوحدة فى أعماقـــها تجـــتر الحزن فى صمت قاسى يجعلها تعايش مع كل فجـــر جديـــد أقصوصـــة

جديدة من أقاصيص العذاب.. كل شيء تحت تصرفها، لا تجد من يراجعها على تصرف تتخذه ولا تلحظ تذمرا من موقف ارتضته..

لا شيء يحول بينها وبين ما تريد.. كان مصطفى الكيلانى مصدرا لكل ما سبق ولكنه أبدا لم يكن مصدرا لنفسه على الأقل بالنسبة لها.

ثمة أمر لم تكن تدرى إن كانت تخفيه عن عمد أم هى أيضا لا تستطيع تحديد معالمه. كان ذلك الإحساس يقف دائما حائلا بينها وبين كل تصرفات مصطفى الكيلانى.. وهى لا تريد مدحت ولكن ليس من أجل زوجها، ولا تستطيع التجاوب مع زوجها ولكن ليس بسبب مدحت..

ولم يكن من العسير على المقربين اكتشاف تلك الكآبة التى سيطرت عليها منذ اليوم الأول لزواجها.. وبالرغم من أن أحدا منهم لم يبخل عليها بطرح كل ما يمكن طرحه من مبررات حتى تهدأ تلك العيون الحائرة وتستقر نبضاتها المضطربة وتنفرج أسارير وجهها.. وهى تستقبل كل محاولاتهم برضاء كامل وباهتمام زائد خاصة بعد أن تكرر غياب زوجها..

فى كل مرة يأتون فيها كما كانت العادة إلى مصر الجديدة إلى أن أصبح الأمر طبيعيا خاصة بعدما ناقشت هذا الموضوع مع مصطفى أكثر من مرة فكانت إجابة واحدة لا تتغير..

- أنا قبلت هذا من أجلك فلا تطالبينى بأكثر مما أحتمل.

من أجل هذا كانت تشعر بالتزام أقوى نحوهم جميعا، تشارك عم ربيع فرحته بعودة ابنه أو تستفسر بصدق عن آماله وطموحه..

وتناقش الأسطى فهيم عن آخر تطورات الموضـــة وتعــاتب برفق المعلم عباس على أسلوبه فى معاملة زوجته وتضحـــك مــلء قلبها من مواقف عبودة والأسطى قاسم.. يوم أو بعض يــوم تقضيــه بينهم كل أسبوع فى متعة حقيقية ورضاء كامل..

هكذا كانت حياتها الجديدة مسيرة من التناقضات ما بين صراع مكتوم لا يجد بدا من الثورة وبين محاولات إرضاء أهـــالى الحـــارة التى لم تشعر قط بالانتماء لغيرهم.. شاءت أقدارها أن تضع أمامـــها طريقا جديدا من العذاب لتخطو عليه بخطى الألم والانكسار..

ماتت أمها.. فاجعة ألمت بالجميع.. أصابتهم بالهلع قبل الحزن وبالحيرة قبل الألم.. بينما هى لم تزرف دمعة واحدة.. لم تصـــرخ أو تلطم وجهها.. لم تشق ملابسها كما فعل البعض.. لم تحاول النحيـــب لم تقو عليه.

سقطت فقط عندما سمعت النبأ.. وكانت سقطة طويلة أقعدتـــها فى فراش المرض بالمستشفى شهرين كاملين.

ما أصعب أن يستأنس العذاب صدورنا، وأن يختبئ الألم فـــى قلوبنا وما أقسى تمرد الدمع فى عيوننا حين يجعـــل مـــن شـــرايينها جمرات لهب تأكل نفسها فتحيلها إلى بركان.. كل العيون حولها باكية إلا عيناها.. كل كلمات الآسى والحزن على شفاه الآخرين وهـــى لا تتحدث.. أسارير الألم استقرت على وجوههم وبدت هى وكأن وجهها من جليد يذوب فقط مع شحوبه.

.. حاولى أن تتخلصى من دموعك يا عبير..

طالبوها بذلك.. خوفا عليها من أن تموت فى صمتها. لم يعد موت الأم ذا بال بالنسبة لهم بقدر ذلك الموقف الصامت الذى اتخذته عبير، لكنها لم تستجب لرغباتهم ولم تستطع أيضا الاستجابة لرغبتها فى أن تلحق بأمها.

وشعر مصطفى الكيلانى أنه بازاء موقف يجب أن يتخذه، بعيدا عن الأرقام والاتفاقيات، وبعيدا عن ملفات العطاءات..

وربما كان ذلك هو أول عمل يسعى إليه دون أن يكون من ورائه صفقه، حين ذهب فى اليوم الثانى لوفاة الأم إلى حارة النبقة وكانت تلك هى المرة الثانية منذ زواجه من عبير، وأخذ أشقاؤها الثلاثة وسط مظاهر إنسانية عميقة رضخ لها مستسلما دون عناء.

وافق على انتقال الحاجة سليمة معهم لتقوم على رعايتهم حتى لا يزيد من إحساسهم بالوحدة وتقبل عرض الأستاذ منصور ليقوم هو الآخر بمتابعة أحوالهم الدراسية بناء على رغبته.

كان هادئا وفى نفس الوقت حائرا بلا توتر.. كل إيماءة منه لا تدل إلا على التأييد لكل ما يصدر منهم.

عبير ابنتنا جميعا.. أنت كل شيء فى حياتها يا مصطفى بك والأطفال لا أحد لهم غيرك.. وغيرنا.. جزاك الله كل الخير..

ومن بين ما يعرض زوجته لتكون فى خدمة عبير.. ومن يترحم على الأم .. ومن يمجد فى أصالة زوجها.. ومن يعرض خدماته المادية.

ومن بين هؤلاء جميعا ظهر عبودة المشاكس وفى عينيه نظرة لم يألفها أحد من قبل، فيها حنان أنكروه عليه فى صمت ودمعة غـير متكلفة اختاروا لها أن تكون بسبب ذرة رمل حملتها الريح بين جفنيـه وتقدم ببطء تجاه مصطفى وهمس بصوت متأدب..

– أرجو أن تسمح لى يا مصطفى بـك أن أتكفـل بتوصيـل الأولاد إلى مدارسهم وإعادتهم إلى المنزل كل يوم.. ثم صمت برهـة ألقى من خلالها نظرة سريعة حوله كأنه يتساءل هل من معترض..

ثم أردف قائلا:

– أنا لدى الوقت.. أرجو أن توافق..

– وافق مصطفى الكيلانى كما لو كان لا يملك إلا الموافقـة.. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يجد الأسطى قاسم فيها نفسه قـادرا على الاقتراب من عبودة المشاكس وضمه إلى صـدره بقـوة وهـو يربت على ظهره برفق..

– أنت حقا سيد الرجال يا عبودة..

ومضت الأيام فى سيرتها لتطوى مع الزمن أحداثـا تصـور الجميع أنها لن تطوى وبدأت حدة الحدث تخـف تدريجيـا إلـى أن استوت مع الذكريات البعيدة التى تعترض خيالنا من حين إلى آخر.

وعادت عبير إلى الفيلا لتستقبل مسئوليات جديدة مع أشـقائها بالرغم من موقف زوجها ومحاولاته المستمرة لإرضائها حيث سـخر كل إمكانياته لتوفير الاستقرار لها ولأسرتها الصغـيرة إلا أنـها لـم

تستجب لتلك المحاولات بل طرأت على علاقتها أحاسيس جديدة بدت وكأنها كانت تكمن تحت طيات الانتظار فما كان منها إلا أن اخترقت ذلك الحاجز فى أول فرصة..

لم تعد عبير كما كانت..

فقدت حيويتها التى طالما توجت الشباب فى نفسها.. وذابت الابتسامة فوق شفتيها الذابلتين حتى بدت جامدة صارمة. لا حياة فى نظرتها.. ولا طراوة فى نبرتها.. وتسللت خطوط زرقاء تحت عينيها غائرة من أثر الإرهاق ودوام التفكير الصامت.. كان يخامرها شعور بالمذلة والضياع.. كل شيء حولها بات يخيفها.. باتت الحياة من حولها ملولة سقيمة.. حتى فى الليالى التى كانت تجتمع فيها بسكان حارة النبقة لم تكن قادرة على الاستجابة لضحكاتهم أو تعليقاتهم فقط تتنقل بينها وكأنها آلة اتخذت شكلا آدميا وازداد الهمس حولهم إلى أن تجرأ الأستاذ منصور ذات يوم واقترب منها قائلا:

– هل قررت أن تقضى على نفسك بتلك الطريقة؟

عراها الارتباك قليلا ثم أجابت..

– ماذا تقصد يا أستاذ منصور..

– أنت تنتحرين ببطء.. أراك كئيبة حزينة ولا أعتقد أن مثلك تنساق وراء أحزانها لتلك الدرجة التى قد تؤدى بك فى النهاية..

– أنا نفسى لا أعرف ما السبب الحقيقى..

ثم أمسكت عن الكلام برهة واستطردت بعدها كأنها تذكرت شيئا..

- بالمناسبة كيف حال الأطفال فى دروسهم؟

وأدرك منصور أنها تقطع عليه طريق الحديث فأومأ برأسه وهو يسحب ابتسامة هزيلة على شفتيه مجيبا..

- بخير..

كان واضحا إنها تعانى صراعا عنيفا فى صدرها أحالها إنسانة غريبة عن نفسها وعن الآخرين.. وكان واضحا أيضا أن وفاة أمها ليست سببا مباشرا لتلك الحالة التى آلت إليها..

افتقادنا لعزيز فى حياتنا يجعلنا أكثر حساسية فى مشاعرنا.. الحرمان يولد فى نفوسنا أحاسيس مرهفة، يجعلنا نكتشف أمورا أهملناها عن غير قصد فنحرص على ما هو بين أيدينا ونقدر ما حولنا..

ولكنها كانت على النقيض.. وكل ما كانت تريده هو أنها رافضة لكل شىء.. رافضة للأمان فى حياتها، رافضة للضحكات من حولها رافضة لكل رغبة من الممكن أن تنجو بها إلى رحاب الاستقرار..

جلس مصطفى الكيلانى وراء مكتبه فى الشركة مستاء، لتصرفات زوجته التى باتت مصدرا لقلقه بعد أن اعتكفت حتى أصبح من الصعب عليه الالتقاء بها حسب مواعيده. وفى المرات التى يسعى إليها كانت تمنحه جسدها بطريقة مهينة كأنها دمية صنعت لتوها من الثلج، مما جعله ينفر من مجرد معاشرتها كأى زوج. ثم انتبه على طرقات خفيفة رأى على إثرها ما لم يكن فى حسبانه قط..

مرة أخرى سهير فهمى بكل ما تتميز به تقف أمامه بصحبة

ابتسامة نجحت فى أن تكون رقيقة.

فنهض مضطربا ..

- سهير..

فتقدمت نحوه بخطى قصدت منها دلالا فبدت وكأنها تترنح تحت تأثير ليلة حمراء.

- أجل سهير.. أحمد الله أنك لا زلت تذكر اسمى.

وضعت كفها فى يده وتشبثت بها برهة وهى ترمقه بترفق..

وبادرها.. وهو يشير إليها بالجلوس أمامه..

- كيف أنساك يا سهير.. ولكن.. ولكنها بعض المسائل المقلقة راحت تقاطعه بخبث:

- إذن فأنت اكتشفت حقيقة العلاقة..

- أى علاقة..

انشغلت بإشعال سيجارتها ثم رفعت عينها بدهاء كبير.

- يبدو أنى تسرعت.. فأنا ظننت أنك تقصد شيئا آخر..

- ما هو يا سهير..

نهضت كأنها تسعى لإخفاء أسارير وجهها واستدارت تجاه النافذة..

.. أرجوك.. لا تحاول الضغط على.. فأنا لا أريد أن أزيدك مشاكل على مشاكلك..

- سهير.. بدأت أقلق بالفعل..

واقترب منها وهو يديرها فى اتجاهه..

- تكلمى .. ماذا تقصدين.. وأى علاقة..

تملصت منه وعادت إلى مقعدها..

- أنا لن أستطيع الإخفاء أكثر من ذلك. ولكن يجب أن تعلم أيها المحب العاشق.. أن الإنسانة التى فضلتها على.. لا زالت على علاقتها بحبيبها الأول.. وأنت.. ولكنه انقض عليها وجذبها بقوة..

- أى إنسانة .. عبير.. أجيبى.. عبير..

وهو يهزها بشدة..

- أجل عبير.. زوجتك يا كازانوفا.. زوجتك الوديعة..

انهار مصطفى على المقعد وهو يخفى وجهه بين كفيه.. وهمس بصوت منخفض بدون أن يرفع عينيه..

- من هو..

اقتربت منه.. وبكل الحقد والتشفى أجابت..

- مدحت حمدى.. أحد جيرانها فى الحارة.. ولقد طلبت من خالى أن يفصله.. ففعل.. بعدما اكتشفت حقيقة تلك العلاقة ثم جلست أمامه.. وتبدلت نبرات صوتها الحادة إلى أخرى هادئة.. أو مشفقة..

- لم أرض لك ذلك الموقف.. بالرغم من أنك أقدمت عليه بإرادتكم محطما قلبى..

التفت إليها بنظرة متشككة.. كأنه تذكر شيا من خصال سهير.. فهو يعرفها جيدا.. أو تمنى أن يكون يعرفها جيدا..

- كيف عرفت..

- كنت أتوقع ذلك منك.. ولكن التأكد من الأمر لن يضـــيرك شيئا.. حاول أن تتابع اتصالاته التليفونية..

ثم نهضت متخذة طريقها للانصراف.. وأردفت

- أنا لا أطالبك بشىء.. أكثر من التأكد..

- انتظرى..

فالتفتت إليه.. بينما لاحقها مصطفى..

- أرجو أن يظل الأمر بيننا فقط.. مؤقتا على الأقل..

فابتسمت بخبث.. منصرفة..

كانت سهير تعلم الكثير عن نفسية مصطفى الكيلانـــى.. بـل استطاعت منذ تعارفهما أول مرة أن تضعه تحت اختباراتها بأســرع مما تصورت هى نفسها.. فأدركت الكثير عن خصالـــه وطبائعـه.. إنسان مثله قد لا ييأس كثيرا إذا ما فقد ثروته مرة واحدة.. لأنه اعتاد على الحصول على المال بأية طريقة.. ومثله لا يهتز مطلقا لفقـــدان عزيز أو غال..

ولكنه قد يذوب غيظا، وينهار حزنا إذا ما ساقته الظروف إلـــى ساحة المنافسة فى أى شىء واكتشف من خلالها احتمـــال الهزيمـــة.. فما باله وقد فقد زوجته التى فشل فى أن ينالها وهى طليقـــة فاســتغل حاجتها وتزوجها لمجرد إحساسه بأنه فاز بها، وأنها باتت فى أحضانـــه التى رفضتها عن طريق عفاف ذات يوم.. كانت سهير فـــهمى تعلـم

ذلك.. وتتوقع أيضا تصرفاته بعد حديثهما معـــه.. ولـــهذا انصرفـت مسرعة دون أن تسعى للضغط عليه.. أو إثارته بشكل أو بآخر.

بينما بات يلعق براكين القلق فى صمت قاتل.. أملا أن يضع يـــده يوما على دليل يثبت تلك العلاقة ليفجر بعدها ثورته بالشكل الذى يراه.

ولكنه لم يفلح.. كان الوهم يقتله كل يوم مع كل التفاتة تصـــدر منها.. ومع كل رنين للتليفون.

بات فى تصوره أن كل العيون مسلطة عليه.. وكل الأيدى تشـــير إليه.. وأنه المقصود بكل همسة تصل إلى مسامعه.. هذا هو مصطفـــى الكيلانى.. أيمكن أن تكون هناك امــــرأة بمثـــل هـــذا الدهـــاء.. كيـــف استطاعت أن تضفى على ملامحها تلك البراءة بهذه القدرة والإتقان..

منحتها الثراء والاستقرار.. وهبتها الأمان والحياة..

باقترانها باسمى.. انتحيت بها بعيدا عن دهاليز الفقـــر وســـراديب الحرمان.. جعلت منها سيدة قصر. لماذا وافقت إذن على زواجها منى..

وافقت من أجله.. أرادت أن تناصفه سعادتها وثراءهـــا علـــى أنقاض كرامتى.

دخل مصطفى الكيلانى حجرة عبير.. كانت قابعة تحت غطـــاء السرير نصف نائمة.. أضاء الحجرة لتطل عليه بعينين ذابلتين أحـــاط بها سواد باهت، فاقترب منها بعد أن ألقى نظرة خاطفة على التليفـون الذى استقر فوق "الكوميدينو" ثم جلس على حافة الفراش قائلا:

– لا يبدو النوم واضحا فى عينيك.

فاعتدلت بصعوبة.

– لم أكن نائمة .. كنت أحاول أن أنام ..

نفث دخان سيجارته بقوة .. وتحفز .

– ما الذى يقلك يا عبير ..

رفعت خصلة شعرها قليلا إلى أعلى وهى تحـــاول أن تبـــدو طبيعية بعض الشىء ..

– لا شىء .. ولكن تذكرت ..

ولكنها انتبهت فجأة على رنين التليفون .. وما كـــادت ترفـــع السماعة .. حتى انتفض مصطفى بطريقة مزعجة وأسرع باللحـــاق بيديها .. وتناول السماعة واضعا إياها على أذنه .. وما إن أعلن عـن وجوده حتى أغلق الخط بلا مجيب.. فألقى بها فى مكانها مرة أخـرى .. والتفت إليها ..

– يبدو أن صوتى لم يرق له ..

وبدأ يخطو خارج الغرفة .. ولكنه ما كاد يصل إلى بابها حتى عاد أدراجه مرة أخرى مقتربا منها .. وأردف ..

– قد تكونين فى حاجة لمن يأنس وحدتك ..

وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة ..

انكفأ على وجهها وهو يعتصر شفتيها بأسنانه بدون مقدمات .. حتى دفعته بيديها مذهولة ولكنه لم يأبه لتصرفها .. وأعاد مرة أخرى محاولته بطريقة أكثر اشمئزازا .. وتملصت منه..

- ماذا تفعل يا مصطفى .. أنت لست طبيعيا ..

ودون أن يرفع رأسه ردد بصوت لاهث:

- لم أشعر قط بأننى طبيعى مثلما أنا الآن ..

وراح يضغط بكلتا يديه على نهديها وهى تتلوى تحت قبضاتــه المزعجة .. وفى تبجح غير مألوف منه .. تراجع إلى الوراء قليـــلا ليتخلص من ملابسه الواحدة تلو الأخرى على حين سيطرت الدهشـــة على عبير وكل نبضة فى كيانها تنتفض نفورا وتوترا ..

وقبل أن تنتبه من صدمتها .. اندس هو بجانبها وقـــد طوقـــها بذراعيه بقوة ألمتها .. كانت أصابعه لا تفرق كثـــيرا بيـــن تمزيـــق قميص نومها وبين ما تحدثه من خدوش على جسدها.

- أنت جننت .. أنت لست فى وعيك ..

لست فى وعيى أيتها الفاجرة .. سأريك بأنك ملكى .. جســدك .. ومشاعرك .. وخضوعك .. وقهرك .. كل شىء فيك ملكى .. سأســحق كرامتك قبل أن تفكرى فى خدش كبريائى .. إنى أكرهك .. أكرهك ..

- أنا لست مجنونا يا عزيزتى.. ولكنه مجرد حق.

وبكل ما تبقى لديها من قوة بعد ما امتصت الأزمة صحتـــها.. دفعته بعيدا عنها.. وتخلصت من يده المتشبثة على صدرها.. محتملـة كل الألم..

ونهضت تصرخ فيه مذهولة:

- أرجوك انصرف الآن.. وابحث عن حيوانة تتناسب مع مشاعرك..

وكأنه قاطع طريق، اقتحم فريسته المتربص بها.. نفذ جريمتــه فى ثوانى متوترة واختفى.

كأنه مراهقا داعبته أحلام الصبا طويلا.. وقهرتـــه أعصابــه تماما فاستل نفسه متسللا إلى غرفة فتاة تصورها فتاته ليتخلص مـــن ذلك الإحساس الخانق.. فألقى بنفسه فوق جسدها.. مغتصبـــا.. غــير مهتم إن كان مقززا.. أو مؤلما لغيره.

هكذا بدأ مصطفى الكيلانى.. رجل الخـــبرة.. الــذى حنكتــه تجارب الأيام.. وأثقلته ممارساته العديدة.. ليفقـــد كــل هــذا أمـــام زوجته.. أو أمام لحظة الخوف التى لا يشعر بمدى قســـوتها ســـوى رجل فى مثل موقفه.

ولهذا لم تكن ثورة مصطفى الكيلانى.. ثورة رجل غيور علــى كرامته.. أو رجولته.. بقدر ما كانت ثورة الدافع إليها هو خوفه مـــن أن يكون ذكاؤه قد وضع على راحتى ميزان للمقارنة.

لم تكن لديه وسيلة أسرع من خليلة الماضى.. سهير فـــهمى.. ليعيد حسابات رجولته معها.. أو ليتأكد من سلامتها.

فأعطته ما يريد.. منحته ضالته التى فقدها فجأة داخل أعماقه.

كانت تتعمد بإتقان إظهار صورة الضعيف أمامـــه.. وتســـتعذب تصرفاته الغريبة فى ممارساته معها.. بل كانت تحثه على ذلك.. تتلــوى تحته من شدة الألم.. وهى تحتفظ فوق شفتيها بابتسامة الانتصار..

وبالرغم من الأسلوب المـــهين الــذى دأب عليــه مصطفـــى

الكيلانى بعد كل ممارسة معها، حيث كان ينهض منتفضـــا بمجـــرد الانتهاء من مضاجعتها منصرفا إلى منزلـــه دون أن يتفـــوه بكلمـــة واحدة.. أو يبدى التفاته ولو سريعة كأنه يبصق عليها بأسلوب متفـــق فيما بينهما.. كانت سهير فهمى راضية تماما.

وبالرغم من براكين الحقد والغضب التى تتأجج فـــى أعمـــاق مصطفى الكيلانى يوما بعد يوم.. إلا أنه لم يحاول قط أن يلمح تغيـير عن المعلومات التى أفادته بها سهير.

لقد فشل فى استعادة مشاعر زوجته.. وعجز عن محـــو مـــا تركه فى نفسها من آثار سيئة.. وفشل فى استجماع كبريائـــه وثقتـــه بنفسه مرة أخرى، كلما التقت عيناه بعينها.. إحساسه بالتضاؤل دائمـــا ما كان يهاجمه فى كل لقاء يجمع بينهما.

ولكنه نجح فى الاحتفاظ بتلك الهزيمة.. وذلك القـــهر دون أن يظهر أمامها.. وحال دون أن يدفع به الغضب يوما فيعلن عن تلـــك الحقائق الطاحنة..

ولكن.. ما الذى يجعل إنسانا مثله يتحمل كل تلـــك العذابـــات النفسية بلا مقابل.

كان استفسارا عنيدا يطارد فكر الكثـــيرين.. وعلـــى رأســـهم سهير.. ولكنهم جميعا أخطأوا التقدير حيال ذلك الصمت.. فلقد كـــان مصطفى الكيلانى بمثابة فيروس مرض خبيث يهدأ فى استكانة ناعمة إلى أن يتأكد من قوة تكاثره وحسن انقضاضه، ليصبح الإعلان عـــن نفسه هو لحظة القضاء على الجسد الغافل.

وعبير بالنسبة له ما هى إلا جسد غافل.. بات يتحين فرصة القضاء عليه.

ولكم كانت سعادة سهير عندما فاجأها مصطفى الكيلانى بزيارة غير متوقعة فى منزلها.. وازدادت سعادتها حينما بادرها قائلا:

- سهير .. أنت تعلمين مكانتك عندى.. وتعلمين ثقتى بك..

رمقته بنظرتها الأفعاوية قبل أن تجيب..

- ولكنك فضلت عنى بالرغم من ذلك تلك الشحاذة..

- أخطأت .. ولكن..

توقف برهة عن الكلام ليشعل سيجارته.. وبهدوء شديد استطرد..

- ولكن فى إمكاننا معالجة الأمور لتصبح فى وضعها السليم.

اتسعت عيناها بشدة.. وصمتت عن عجز.. كأنها ابتليت بغباء مفاجئ على غير عادتها.. مما استحثه على مواصلة الحديث..

- نتزوج..

ماذا.. أو ماذا تراك تقول.. أى شيطان هذا الذى ساورك بالأمس.. أتظننى أصدقك..

- ماذا قلت يا أغلى إنسان فى وجودى..

وقف فى ثقة وتثاقل ثم ملأ عينيه منها.. وأجاب:

- ما هى طبيعة علاقتك بمدحت حمدى الآن..

ماذا دهاك يا إبليس العزيز.. ألم تقو على الانتظار قليلا..

لقد خانك ذكاؤك هذه المرة..

أيها الغبى الحائر..

- أنا لا أفهمك يا حبيبى..

- عزيزتى سهير.. أنت الوحيدة التى تعلمين جيدا أننى أكـــره من يحاول خديعتى.. ولا أحب هذا.. ولا أحب الفشل..

جلس بجانبها مرة أخرى.. وأردف..

- لقد تورطت بزواجى من عبير.. و..

انتبه على ابتسامة ساخرة تدلت على فم سهير.. وضغط علـــى أسنانه كأنه يسعى لكتم غيظه ولاحقها قائلا:

- لا تسخرى من كونى تورطت فعلا.. تصورى الأمر كمــــا يروق لك أحببتها.. اشتهيتها.. أردت إذلالها.. ليكن الأمر ما يكـــون بالنسبة لك.. المهم أننى فى النهاية.. كما تعلمين أبغض أن أكون فـــى مثل موقفى الآن..

ووقفت فى ثبات كأنها تقدم فروض الطاعة.. وهمست..

- أوامرك..

- أنا لا آمرك بشىء.. ولكن أطلب معونتـــك لكـــى أســـتعيد كرامتى التى حاولت تلك اللعينة السخرية منها..

ولكنها لم تتحرك من مكانها.. فقط همست مرة أخرى..

- لازلت فى انتظار رغباتك..

وقف وراءها.. وأنامله تداعب خصلات شـــعرها القصـــير.. وأحست بأنفاسه ترتطم خلف عنقها ثم قال:

- أريد مدحت حمدى.. أريده فى فيلتى.. أريد أن أراه.. أريده وسط معارفها بما فيهم أهل حارتها التى جاءت منها.. تخلصت من ذراعيه والتفتت إليه بنظرة مشدوهة.. ورددت.

- ماذا قلت..

- أريد هذا المدعو مدحت حمدى..

- كيف؟..

- من أجل هذا جئتك.. فأنت الوحيدة التى تستطيعين أن تحضريه يوم الحفلة.. و.. قاطعته وهى تتراجع بخطوة.

- أى حفلة..

ابتسم ابتسامة صفراء باهتة..

- حفلة الوداع يا حبيبتى.. سأقيم حفلة كبيرة.. ستحضرينها أنت يا سهير كضيفة لبضع دقائق.. ثم تصبحين صاحبة الفيلا إلى نهاية العمر.

لم يسعفها ذكاؤها أكثر من ذلك.. فجلست على المقعد القريب منها وهى ترفع عينيها إليه فى ذهول متسائلة:

- ولكن.. ما دخل مدحت..

أطلق ضحكة.. ونادرا ما كان يضحك بصوت مرتفع.. ثم صمت فجأة وهو يركز عينيه تجاهها قائلا:

- أريد أن أكشف أمرها أمام الجميع.. خاصة أهل الحارة الذين ملأوا رأسى وهم يتشدقون بالطهارة.. والكرامة.. والأخلاق..

سأصرخ فى وجوههم طالبا منهم أن يســـتعيدوا زهرتـــهم العفنـــة.. سأجعلها حديث كل طفل وشيخ فى بؤرتهم الملوثة.

أما ذلك المعتوه الذى اقترب من عرينى.. فسألقنه درسا حتى يعلم أننى كنت أقوى مما كان يتصور.. أرجوك يا سهير لا تفكرى كثيرا..

ولكنها فكرت.. صمتت طويلا..

.. ما الذى يجعله يهتم لدرجـــة التخطيـــط.. إذا كـــان يريـــد أن يطلقها.. فليطلقها.. ماذا يدور فى رأسك أيها الأفعى الحبيب.. أنت أجبـن من أن ترتكب حماقة تحسب عليك.. وأضعف من أن تثور لكرامتـــك.. فأنا أعرفك جيدا.. لا شىء أغلى عندك من صفقاتك وأموالك إذن مـــاذا تريد.. على كل حال لست خاسرة فى كل الاحتمالات..

– متى ستقيم الحفلة..

أسرع إليها وقبلها قبلة باردة أحست بها صلدة لا حياة فيها..

– الأحد القادم..

ثلاثة أيام إذن..

– انتظرنى يا عزيزى.. سأحضر الحفل برفقة مدحت حمدى.

ومرة أخرى ضمها إلى صدره وهو يمطرها بقبلاته.. ضاغطـــا بكلتا يديه على ظهرها حتى باتت وأنها جزء منه.. ثم هم بـــالانصراف على أمل اللقاء يوم الحفلة.. حفل بمناسبة شفاء عبـــير بعـــد صدمتـــها العنيفة لموت أمها.. وما كاد يستدير.. حتى لحقت به، وأمسكت بيـــده وهى ترمقه بنظرة وقحة لا حياء فيها.. ثم همست بدلال:

- إلى أين..

فاقترب منها بخطوة.. وأجاب:

- سأنصرف الآن.. لأننى مرتبط بموعد هام..

فجذبته إلى صدرها برفق.. وراحت تدس كلتا يديها فى جاكتته تضم بأظافرها المدببة كل ما استطاعت ضمه من لحم ظهره.. ثم قالت بنبرة متهدجة:

- لقد تركتك تعاملنى فى الفترة الأخيرة كما تريد.. واليوم ألا يحق لى أن تعاملنى كزوجة.. ولو على سبيل التجربة.. لم يجبها.. بل لم يجد ما يقوله.. فهو يعرفها كما تعرفه.. لا شىء يمكن أن يحجب بينها وبين رغبتها.. هى نفسها تقول هذا.. ما تريده لابد أن تحصل عليه.. أرادته يوما فجعلته يدور فى فلكها سنوات طويلة.. وأرادت غيره فكان لها.. راق لها أن تنجب فباتت أما بالصدفة.. هاجرت وعادت.. لاحقت ولفظت..

إنها ليست أجمل امرأة.. وليست أكثر ذكاء ولا صاحبة مميزات خارقة.. لا شىء مطلقا يجعلها بهذه القدرة إلا لشىء واحد فقط.. هو أنها تعرف متى وكيف تكون امرأة.. وهاهى الآن.. تذكره بأنها امرأة..

فكان لها بكل مشاعره.. جعلته يستشعر أنه يضاجعها للمرة الأولى فى حياته.. بل كما لو كانت المرة الأولى فى حياته التى يضاجع فيها امرأة.. ثم ودعته بابتسامة ارتياح وهى مستلقية على فراشها.. تابعته بنظرتها إلى أن انصرف.

ولم تجد سهير فهمى فى صباح اليوم التـالى أيـة صعوبـات لإقناع مدحت حمدى بأن يرافقها إلى الحفل.. بل أشعرته بأنها تريـد التكفير عن خطيئتهما معا.. كان ينصت إليها والفرحة تتراقص فـى عينيه.. لم يكن أبله.. ولا غافلا عما يمكن أن يحدث.. ولا مسـتهترا للدرجة التى لا يقدر فيها مثل تلك الظروف.

ولكنه الحب..

الحب دكتاتور مغرور، قاهر.. يخضع كـل رعايـاه لقبضـة سلطانه، ويبث فى نفوسهم نفحة من غروره فيتحولون إلى دمى كبيرة حسب رغباته..

وهو أيضا طفل مستهتر.. لا يقدر عواقب تصرفاته.. يتدلـل فى عناد ويتحدى فى إصرار.. لا يعنيه نهاية ذلك التحدى، قدر مـا يعنيه بأن يوضع فى موضع المتحدى.. وأن يكون هو البـادئ مـن أجل هذا وافق مدحت حمدى.. وهو لا يدرى أنه إنما كـان يتحـدى نفسه.. ويتحدى واقعه.. بعد أن تمكن منه ذلـك الدكتـاتور.. فقـرر الذهاب برفقة سهير فهمى إلى الحفل.



كانت أسارير الكآبة هى السمة المشتركة على وجوه الحاضرين فى الحفلة، بالرغم من مظاهر الابتهاج التى تعمد مصطفى الكيلانى أن تكون على أكمل صورة، حيث أضيئت كافة مصابيح الفيلا.. وأضيف بعضا منها ليتلألأ على الباب الخارجى.. وكأنه يوم عرس..

واستخدم بعض العاملين لأحد المحال الكبرى، ليقوموا بمهمة الإشراف على الحفل من كافة النواحى.. وبرغم كل ذلك، لم تعرف الابتسامة طريقا إلى شفاه أحدهم فالبعض انشغل فى حديث عاتب.. أو ساخر، اشتد فى لحظات كثيرة مثلما حدث بين المعلم ربيع الذى أسهب فى معاتبة الأسطى قاسم بسبب تركه الحارة وإغلاقه لمحله ليفتح صالونا للحلاقة الحديثة "كوافير رجالى" .. فى الشارع الرئيسى.

كما استقطب عبودة المشاكس الحديث مع الأسطى فهيم فى إحدى الزوايا بعيدا عن كل العيون فى محاولة لإبرام معاهدة إخلاص وأمانة بعد أن دأب منذ تخلى الأسطى فهيم عن مهنته واستطاع الحصول على ترخيص لبيع المشروبات الروحية فى محله الجديد الذى استأجره بالشارع الرئيسى أسوة بقاسم الحلاق.. منذ ذلك اليوم وعبودة يلازمه كزبون مجانى أولا.. وحارس شخصى يحميه من مشاغبى تلك الأماكن.



بينما كانت بعض العيون تراقب عبير فى جلستها المنكسرة.. وهم ما بين أحاسيس الرفض لموافقتها على تلك الحفلة بالرغم من قصر المدة التى مضت على وفاة الأم.. وبين إشفاقهم على حياتها التى باتت كئيبة حزينة.. وذابلة.

صورة غريبة جمعت بينهم جميعا.. ولولا تعليق الأسطى محمد الزكى على الموقف، لما أخرجهم من قلقهم..

– يبدو أن أهل حارة النبقة فقط هم المدعوون.. فأنا لا أرى غريبا بيننا..

وانطلقت بعدها التعليقات الساخرة.. والمهاترات المعتادة..

وفجأة تصلب كل شيء.. وسيطر السكون على الجميع.. وهم يراقبون دخول مدحت حمدى برفقة سهير فهمى المرأة ذات الشعر الأحمر.

تحفز عبودة للتصدى له ولكنه تراجع تحت رغبة الأستاذ منصور مكتفيا بتركيز نظرته القاسية تجاهه بينما تململ المعلم ربيع مستغفرا ربه تارة.. وناقما على ذلك التصرف الأهوج تارة أخرى.. الهمس واللمز يحيطان بهم من كل جانب، ومدحت يتبع سهير التى تسبقه بخطوه واحدة أو أقل فى طريقها إلى حيث مصطفى بك الكيلانى فى نهاية الردهة بوجه جليدى.. خال من الأسارير، بينما تعمد مدحت ألا يلتفت فى أى اتجاه حتى لا يفقد السيطرة على مشاعره.. فبدا وكأنه يحمل كفنه على راحتيه ويتقدم به تجاه غريمه الثائر فى استسلام طالبا العفو..

وبنبرة الانتصار قالت سهير:

– مصطفى بك.. أقدم لك مدحت بك حمدى خطيبى..

لم يستطع أحد منهما أن يمد يده مصافحا.. فكل منهما لديه فـى أعماقه ما يحول دون ذلك.

ومن خلال ابتسامة باهتة.. همس مصطفى الكيلانى مقتضبا

– تشرفنا..

وسنحت الفرصة لمدحت حمدى كى يجول بعينه فيمـا يحيـط به.. ولكن سرعان ما سحب نظرته إلى صدره بعد ما استشعر كـل العيون الغاضبة تراقب وقفته.. أحسها صفعات قوية.. فأخذ يتحسـس وجهه ليجفف قطرات العرق التى بدت تتفجر كالبراكين أو كمـا لـو كانت بصقات كل من حوله عليه..

ثم انتبه على صوت مصطفى الكيلانى محدثا سهير:

– سأرافقما إلى حيث تقف عبير.. فهى ستسـعد كثـيرا بنبـأ خطوبتك..

ومرة أخرى يجد مدحت حمدى نفسه مستسـلما بيـن سـهير ومصطفى بخطوات مضطربة خائفة أشبه مـا تكـون بخطـوات لا طريق لها سوى المقصلة.

يموت الحب أمام لحظات الخوف.. وتنطفئ لهفة الشوق تحـت أحاسيس الخيانة، وتذوب كل المشاعر إذا ما هاجمتها الغيرة.

هكذا بدا اللقاء الأول بعد غيبة طويلة بين عبير ومدحت.. كـل شيء فيهما اضطرب.. بينما سكن مصطفى الكيلانى يراقبها بنظـرة

حاقدة.. ثائرة..

استطاعت سهير إتقان دورها غير غافلة عن كل حرف يقال..

أو التفاتة حائرة.. إلا واستغلتها لصالحها.. وصالح آمالها مــع زوج المستقبل.

وخفت الثورة قليلا مع استئذان عبير وانصرافها.. بينما كـــان زوجها يتحرك وسط ضيوفه فى أنحاء الردهة الواسعة وكأنه يتـــأكد من حضورهم جميعا..

كان الوقت يمضى مع طبول الملـــل.. المنـــاخ بـــدا خانقـــا.. واحتبست الأصوات فى الحناجر.. لا شىء يشغل الجميع أكثر مـــن رغبتهم القوية فى الانصراف.. ولا شىء يشغل مدحت سوى محاولـة تصيد نظرة تلتقى بعين عبير.. ولا شىء يشغلها هى سوى الـــهروب من تلك المحاولة..

وبدأ العاملون على خدمتهم يطوفون بينهم حاملين أكواب العصـــير المختلفة والأيدى تمتد ما بين رافضة وراغبـــة.. وفاجـــأهم مصطفـــى الكيلانى بصيحة غير متوقعة.. كأنما يتـــأكد مـــن أن صوتـــه ســـيكون مسموعا بوضوح لهم وهو يقص عليهم قصة ابنة حارتهم الخائنة.

– لنشرب جميعا نخب زوجتـــى العزيـــزة.. صاحبـــة العفـــة والأخلاق الحميدة..

وشرب الجميع فى رشفات سريعة كمحاولة للانتهاء من الحفلة.

وشرب مصطفى الكيلانى.. فانتهى من الكوب.. ومن حياته.

سقط مصطفى الكيلانى..

لا حركة.. ولا نبضة.. لا شىء.. صوت ارتطامه بـــالأرض نتيجة سقطته المفاجئة والكل فى ذهول.. والكل فى شلل وقتى..

مات الرجل..

كلمة رددها أول من تقدم إليه وكانت الصرخات.. وكان الـــهرج والمرج.. وتكدست الأجساد حوله.. وفوقه.. فى محاولات مشتتة.

ائتونا بالطبيب.. خلصوه من ربطة عنقه..

الله أكبر .. الله أكبر فى أذنه.. بصـــوت عبـــودة الجـــهورى اضغطوا برفق على صدره.. نصيحة من المعلم عباس.

الماء ينهمر من كل جانب على وجهه الجامد..

ولكنه الموت..

صرخت سهير فهمى كما لم تصرخ فى حياتـــها.. شـــاركتها سليمة بإخلاص كبير وإن كان لصراخها صوت مميز أقرب للعواء.

وقفت عبير فى مكانها دون صراخ.. وكأن الأمر لا يعنيـــها، فبدت كتمثال وضع فى أحد الأركان كتحفة نادرة.. لا شىء يدل على الحياة فى جسدها.. سوى عينيها اللتين راحتا تمسحان الحاضرين فـــى نظرة متنقلة.. كأنها تبحث عن شىء يترجم ما يدور حولها والتقـــت بما كانت تبحث عنه..

نظرة مماثلة فى الجانب المقابل لعينين حائرتين.. عجز مدحت حمدى عن أن يستجمع شجاعته لمعرفة حقيقة الأمر..

فوقف كما وقفت هى ..

وبحث بعينيه عنها والتقيا فى نظرة واحدة..

كأنه يتساءل إن كان فى مقدورها أن تقدم على ذلك.

وكأنها تبحث فى وجهه عن حقيقة الشيطان الخفى الذى دفع به لتلك الجريمة.

ودفعتها الأجساد بعنف وهى فـــى طريقـــها إلـــى مصطفـــى الكيلانى.. وانتبهت من ذهولها بغير إرادتها..

وانسحبت طبول الملل من فوق عقارب الزمن..

تم كل شىء فى سرعة مذهلة.. ديناميكيـــة ســـاحرة حركـــت تصرفاتهم جميعا.

استدعى الطبيب الذى ألقى أمامهم بمفاجأة لها أكـــبر الأثـــر مـــن مفاجأة الموت نفسها.. حيث أثار تشككه فى سر الوفاة.. وعن طريقة تـــم استدعاء الشرطة.. ودارت عجلة الأحداث لتسير خلفها زوبعة المواقف.

حصر الحاضرين ومعرفة هويتهم جميعـــا.. التحفـــظ علـــى الكوب وإحالته للطب الشرعى.. وكذلك الجثة.. وعدم مغادرة البلاد.

ومع خيوط الفجر بدأ الجميع فى الانصراف، جميعا يـــترقبون كلمة التقرير الطبى الذى أشار إليه وكيل النيابة المحقق..

وانعكست تلك الحادثة على أهل الحارة برد فعل عنيف.. وقـاس.. وبدوا كأن أحدا منهم لم يلتق بالآخر يوما ما.. وكأنهم جميعا قد أصيبـــوا بفقدان للذاكرة فجأة.. فلا رابطة باتت تجمع بينهم.. ولا كلمة..

الخوف وحده هو الذى يشركهم فى عالمه وترنحت العلاقـــات الواحدة تلو الأخرى كما تترنح أوراق الخريف من فوق أغصانها..

وكأن مصطفى الكيلانى وحده هو الذى كـــان يجمـــع بينـــهم جميعا. وبموته مات كل شىء..

اعتكفت عبير فى فيلتها مرغمة.. فلا طارق لبابها ولا هـــاتف يسعى إليها وكأنها نبتة شيطانية ليس فى عالمـــها ســـوى أحاســـيس الخوف والوحشة.

بينما هرع مدحت حمدى إلى حيث يعيش والده.. طالبا الحماية وبحثا عن مجتمع يعيش فيه مهما صغر حجمـــه.. وكـــان قـــد أدرك استحالة العودة إلى الحارة.. ويمنحه والده بعض المال كـــى يتدبـــر أمره بعيدا عنه.. ويلعب القدر لعبته فهى المرة الأولى التى يحصــــل فيها على النقود بتلك السهولة فى وقت أحوج ما يكـــون فيـــه إلـــى الإحساس بالأمان واستقر به الأمر فى إحدى غرف بنسيون شعبى..

وتمضى أيام ثلاثة..

لتظهر المفاجأة الثانية التى ترجمت كل مشاعرهم التائهة فى أعماقهم.. ويعلن الطب الشرعى أن سبب الوفاة هو احتساء كمية من الزرنيخ..

وتبدأ الصحف لتلعب دورها وتمارس هوايتـــها فـــى تنميـــق منشتاتها.. فى كل صباح.. مقتل الثرى مصطفى الكيلانى فى ظروف غامضة.. القاتل يضع الزرنيخ فى كوب عصير.. محـــامى القتيـــل يفجر قنبلة جديدة.. لقد أوصى موكله قبل وفاته بأمواله لابـــن عمـــه الوحيد.. أقارب القتيل يتهمون زوجته بتدبير الجريمة..

.. المباحث تكشف عن علاقة سابقة تربط الزوجة بشاب قبل الزواج وبعده..

.. ظهور شخصية جديدة على مسرح الجريمة.. مدحت حمدى والعلاقة المريبة..

ثم تفاجئ إحدى الصحف مثيلاتها بسبق جديد فى عنوان بارز:

.. اكتشاف علاقة آثمة تربط المجنى عليه بإحدى الفتيات وتدعى سهير فهمى..

وقف عم ربيع أمام وكيل النيابة ينفى بشدة بأنه أقسم يوما بالتصدى للقتيل إذا استمر فى معاملته السيئة لابنة حارتهم عبير.. ولم ينس أن يتهم الأسطى قاسم بأنه صاحب تلك الدسيسة واستطاعت سهير فهمى بخبث أن تشير للخلافات المستمرة التى كان يعانى منها مصطفى الكيلانى مع زوجته عبير. كما أنها أقحمت الإشاعة التى ربطت بين عبير ومدحت حمدى..

وانتابت الأسطى قاسم رجفة عنيفة وهو يدلى بأقواله وبدا كأنه مريض بالملاريا وهو يذكر للمحقق العلاقة الوطيدة التى تربط بينه وبين القتيل.. متهما عم ربيع بمحاولة توريطه فى ذلك الموضوع..

وتضامنت الحاجة سليمة مع عبودة المشاكس فى أن القتيل كان كريما معهما.. وتطوعت الحاجة سليمة بالترحم عليه عن طريق سيمفونية نواح مجاملة.. ولم تنته منها إلا بعد أن نهرها المحقق، فصمتت فجأة كما ينقطع التيار الكهربائى وطلب المعلم عباس شهادة الجميع ليثبت أنه لم يتحرك من فوق مقعده منذ اللحظة التى دخل فيها

الفيلا.. وذكر الأسطى محمد أن علاقته بمدحت حمدى لم تتجاوز العلاقة التى تربط بين المالك والمستأجر، وبأن الأخير بدا عليه الاضطراب فى الفترة الأخيرة..

هكذا حاول كل منهم أن يتخلص من اتهامه بأن يلقيه على أول إنسان يسوقه الحظ السيئ إلى ذاكرته.. متغاضين عن أى روابط تربط بعضهم ببعض.. الخوف فقط هو سيد الموقف بالنسبة لهم جميعا.. ولكنه سيد عنيد استعذب معايشة قلوبهم بلا استثناء.. فسلب نخوتهم وشهامتهم.

بعينين جفت منهما الدموع.. ووجه جامد استقرت عليه أسارير الترقب، أجابت عبير على سؤال المحقق قائلة:

- أنا لا أتهم أحدا .. ثم إن مصطفى لم يكن لديه أعداء..

لاحقها متسائلا:

- كيف تأكدت..؟

- لأنه كان محبوبا من الجميع..

نهض من وراء مكتبه ثم توقف أمامها:

- عبير هانم.. هل لى من سؤال شخصى..

رفعت عينيها.. فأردف..

- هل كنت تحبينه..

- سؤال هذا.. أم اتهام..

تغيرت ملامح نظرتها واستطرد دون أن يلتفت إليها.



- لازلت منتظر الإجابة..

- كان يوفر لى كل شىء..

- ما هى معلوماتك عن مدحت حمدى..

صمتت قليلا.. وتمالكت بصعوبة ثم أجابت:

- كان زميلا لى فى الكلية.. وأحد جيرانى.

- لم تجيبى حتى الآن.. هل كنت تحبين مصطفى الكيلانى..

كانت علاقتى به طيبة..

- هل صحيح أنك كنت تطالبينه بالطلاق فى الفترة الأخيرة..

وقبل أن تستوعب السؤال أو تحاول الإجابة عليه لاحقها..

- وما دور مدحت حمدى فى الموضوع..

- أنا لا أفهم ما تقصده..

- كلماتى واضحة.. ما علاقة مدحت حمدى بطلبك للطلاق..

نهضت بانفعال..

- ليست هناك علاقة.. ثم..

قاطعها بجفاء..

- يمكنك أن تنهضى عندما أطلب منك ذلك..

عادت وجلست.. أو تهاوت.. على المقعد.. بينما استطرد المحقق..

- كيف تبررين سعادتك مع مصطفى الكيلانى بطلبك الطلاق منه.

- أحسست بذلك بعد وفاة أمى..

- كان زواج مصلحة إذن..

- مدحت ليس له دخل .. لا يمكن أن يقدم مدحت على..

ولكنه قاطعها مرة أخرى بقسوة..

- أنا لم أسألك عن مدحت.. ولم أطلب منك المرافعة عنه..

أريد فقط أن تجيبى على أسئلتى وإلا سـأتهمك بالمراوغـة.. ويكون لهذا شأنا آخر، قد يصبح فى غير صالحك..

طأطأت رأسها فى استسلام وهمست..

- سأجيب على كل شيء..

عاد المحقق إلى أدراجه وجلس وراء مكتبه.. مرددا..

- إذن اتفقنا.. والآن.. ما سبب طلبك الطلاق منه..

- للأسف .. الوحيد الذى كان يعرف السبب هو مصطفى الكيلانى..

تململ قليلا وهو يشعل سيجارته ثم التفت إليها قائلا:

- هذا لا يمنع أن أفهم السبب منك..

وسردت عبير كل ما استقر فى ذاكرتها عن رحلة زواجها من مصطفى الكيلانى.. وكيف وافقت عليه إلى أن بدأت تطالبه بـالطلاق بعد وفاة أمها مباشرة.. اعتبارا بـأن الأم ومرضـها همـا أسـاس الرابطة. ومرة ثانية ينهض المحقق من وراء مكتبه، متجها إلى نـافذة الحجرة مطلا بنظره إلى لا شيء.. ثم دون أن يلتفت إليها قائلا

- ألا ترين أنها دوافع مقنعة لارتكاب جريمة قتل.. على كـل حال كيف علمت بالعلاقة التى بين زوجك وسهير فهمى..

لم أعرف عنها شيئا أكثر مما ذكرت الصحافة.. ثم أنهما كانا على علاقة قبل زواجى منه.

- كيف كنت تتصلين بمدحت حمدى..

- لم أتصل به مطلقا..

- ألم يحاول هو..

صمتت برهة ثم أجابت بإصرار ..

- لا..

و دون أن تلحظ فوجئت بمجيء الشرطى طالبا مرافقتها له..

بإشارة من يد المحقق كأنه يخشى عليها الاستمرار فى الأكاذيب وتابعها بنظرة لا تحمل أكثر من معنى الشك.. وما كادت عبير تخطو بضع خطوات على الممر حتى وجدت نفسها وجها لوجه أمام مدحت حمدى الذى استدعى بدوره للتحقيق معه.. والتقت عيونهما فى نظرة لم يشأ لها الشرطى أن تطول..

عبير.. ردد بصوت أقرب إلى الهمس وكل معانى الجزع مستقرة فى نظرته.. ولم يصعب عليها إدراك ما يعنيه وما يجول فى خاطره فأشارت برأسها كأنها تنفى ما لم يفصح عنه أو كأنها تحاول أن تخلصه من حالة القلق التى بدت واضحة عليه وهى نفسها لا تدرى إن كانت تفعل ذلك من أجلها أو من أجل سمعتها أو لأجله هو..

ثم استدارت مرة أخرى مستسلمة لقيادة الشرطى دون أن تتفوه بكلمة واحدة..

ولم يكن مدحت حمدى يجهل أن أصابع الاتـــهام قــد أخــذت طريقها إليه هو الآخر سواء من نظرة البعض.. أو مـــن تلميحــات البعض الآخر ولذلك لم يفاجأ بمحاصرة أسئلة المحقق له وما تطويـــه من ترجيح اشتراكه فى الجريمة.. وبالرغم من ذلك خانته أعصابــــه عندما فاجأه المحقق متسائلا:

– ما مدى علاقتك بمصطفى الكيلانى..

وما كاد ينتهى مدحت من الإجابة بأن لا علاقة له بمصطفـــى الكيلانى حتى لاحقه الأخير..

– ما سبب تواجدك فى الفيلا يوم سقط متأثرا بالسم.

– كنت برفقة إحدى المدعوات.. وهى موظفة سابقة طرفه..

وبلا مقدمات تساءل المحقق مرة أخرى..

– هل كنت تعلم بأن زوجته كانت تطالبه بالطلاق؟

– لا..

– ألم تكن تعرفها..

رفع عينيه بنظرة للمحقق كأنه يتأكد من حصيلة معلوماتـــه عــن تلك العلاقة، فوجده غير منتبه إليه كما لو كان بمفرده.. فأجاب بهدوء:

– كانت جارتى..

ومرة أخرى بدون أن يعيره اهتماما همس متسائلا..

– ثم ماذا..

وأدرك مدحت أن الرجل لن يهدأ إلا إذا وجـــه إليـــه التهمـــة

مباشرة ولكى يختصر الطريق عليه أجاب قائلا:

– عبير أطهر وأشرف إنسانة فى الوجود.. ثم.. ثم هى أبعد ما تكون عن تهمة مثل هذه و..

فقاطعه بهدوء مثير..

– سأبلغها مشاعرك الرقيقة نحوها.. ولكنك يبدو لم تفهم سؤالى وسأوضحه لك مباشرة.

واقترب منه وهو يحدق فى عينيه ثم أردف:

– هل استمرت علاقتك بها بعد زواجها من القتيل.. وكيف ومتى كانت تتم اتصالاتكما..

انتفض مدحت فجأة كأنما وخزه رمح فى صدره..

– أنا لم ألتق بها منذ زواجها.. ثم وجود علاقة بينى وبينها قبل الزواج ليس مبررا لاتهامها أو اتهامى بتدبير القتل..

ربت على كتفه برفق.. وهو يشير إليه بالجلوس مرة أخرى ثم قال..

– اجلس.. ثم أننى لم أوجه إليك الاتهام بعد.

وقبل أن ينتبه مدحت إلى مقعده.. استطرد المحقق..

– حتى الآن على الأقل.

وبهدوء متهالك جلس مدحت مرة أخرى بينما انشغل الثانى فى حديث تليفونى وعيناه مسلطتان عليه، يتابع انفعالاته.. ثم باغته قائلا..

– المعلومات تفيد بأنك كنت تلح على الاتصال بها منذ تزوجت.. وفى هدوء كبير تساءل..

– هل قالت هذا؟

ولكن المحقق لم يوضح وتابع حديثه التليفونى دون أن يلتفت إليه.. كأنه نسى وجوده تماما.. أو تناس ذلك عن عمد وانشغل بعض الوقت ثم أنهى الحديث.. وكرر جملته السابقة كما لو كان يواجهه بها لأول مرة.

فعاود مدحت مؤكدا على سؤاله:

– عبير قالت ذلك..

– لم نطلب منها على كل حال.. يمكنك الانصراف الآن وحاول ألا تبتعد كثيرا..

لم يكن فى الحارة شيء يدل على أن هناك من يقطن فيها، فبالرغم من أن الساعة لم تتجاوز الثامنة مساء إلا أن الصمت الموحش كان يخيم عليها.. فلا مصابيح مضيئة تتلألأ كعادتها فوق لافتات المحال.. ولا صوت للقهقهات السامرة التى غالبا ما كانت تدوى فى مثل ذلك الوقت من لياليها حتى الحاجة سليمة أطفأت مصابيح حجرتها الوحيدة على غير عادتها وتنازلت عن حديث النميمة التى ما فتأت تبدأه مع جيرانها فى المنازل المجاورة منها.

وكأنهم رحلوا جميعا..

رحلوا عن أنفسهم فبدوا كالدمى المتحركة.

باستثناء عم ربيع الذى اكتفى ببصيص خافت يقاوم ظلمة المنطقة فى استحياء كبير.. وبدأ يتجاذب أطراف الحديث مع أجدد

موظف لديه..

أما الأسطى قاسم بات لا يظهر فى الحارة إلا عند انصرافـــه من المنزل أو عودته بعد افتتاحه للمحل الجديد.. وكذلك فهيم الـترزى الذى أغلق محله ليقدم خدماته للجنس الآخر أو للجنس اللطيف كمـــا كان يصفهن وأضاف عبودة المشاكس فراغا جديدا عن غـــير قصــد بعدما تصدى لأحد المنحوسين الذى تجاسر وحاول أن يغازل صديقته ذكية.. فهشم رأسه بضربة تقابل ثلاثين يوما وراء القضبان.

أنتبه عم ربيع .. وبدأت كل حواسه تتجمع فى أذنيـــه عندمـــا ترامى إلى مسامعه صوت حشرجة عجلات سيارة مقتربة.. ســـيارة أجرة استقرت على مقربة منه.. ونزل منها شـــبحا عجـــزت عينـــاه المرهقتان أن تحددا شخصيته وسط الظلام.. وتراجعت السيارة فـــى طريق العودة.. ولكنه سرعان ما أدرك هوية القادمين فيـــها بعدمـــا خلفت السيارة وراءها أطفالا ثلاثة وكل منهم يمسك بيد الآخر وكذلك حقيبة متوسطة وقفت أمامها عبير وبدأت تدفعـــها بيدهـــا كمحاولـــة لرفعها على درجات السلم.

ولم يستطع ربيع أن يراجع موظفه الذى قفز من جانبه فجـــأة واتجه إليها مباشرة.. ودون أن يلتفت نحوها رفع الحقيبة على كتفـــه ثم أشار بيده وهو يخفى نظرته عنها وهمس متأدبا..

– هل تسمحين لى بمساعدتك..

دققت النظر فى وجهه من بين ظلمة المكان فى محاولة لتحديد ملامح ذلك الشاب الذى لفظته الأرض فجأة.. فتدارك حيرتـــها بـــأن

التفت تجاه الدكان وأردف..

- نصر.. اسمى نصر رحمى.. وأعمل طرف عـــم ربيـــع.. حمدا لله على السلامة..

و.. استدارت بوجهها تجاه عم ربيع الذى تعلـــل بانشـــغاله.. متجاهلا وقفتها ودار حائرا وسط المحـــل لا يـــدرى كيـــف يخفـــى ارتباكه..

ولكنها تعلم مدى طيبة قلبه.. وبـــأن تصرفـــه هـــذا لا يمثـــل مشاعره تجاهها فأعادت نظرها فى رضوخ تجاه الشاب.. ثم تقدمتـــه على درجات السلم.. وفاجأته قائلة:

- ألا تخشى غضبه عليك..

توقف برهة قبل أن يواصل متابعتها وأجاب..

- عم ربيع رجل طيب القلب.. ولكن.. ولكنه لا يزال متـــأثرا منذ يوم الحادثة.

دخلت الشقة ودلف وراءها الأشقاء الثلاثة.. بينما تردد نصـــر قليلا وهو يختلس نظره إلى داخل الردهة، ووضع الحقيبة برفق.. ثـــم استدار استعدادا للعودة.. ولكنها استوقفته قائلة:

- يبدو أنه ذكر لك شىء..

ابتسم ابتسامة تنم عن الإيجاب.. وبنظرة غير مركزة..

- سأكون فى خدمتك إذا ما كنت فى حاجة إلى خدمتى..

وهنا استطاعت أن تحدد ملامحه جيدا بعد أن أضيئت مصابيح

الردهة، كان ذا بنية قوية.. وقامة متوسطة الطول له عينان كعينى الصقر.. وشعر فى لون الفجر وقد استسلمت له بعض الخصلات السوداء مستعطفة لذلك الزحف الأشهب.

ابتسمت فى رضا.. وأغلقت الباب دونه..

لم يغضب ربيع كما توقعت هى.. ولم ينهره على ذلك التصرف المفاجئ بل وجده على حالته مرتبكا.. قلقا.. يتنقل داخل المحل على غير هدى..

- ماذا قالت لك.. و.. كيف حال الأطفال.. وهى.. ماذا قالت عنى.. أخبرنى..

قاطعه بتأدب..

- هذا الوجه الملائكى.. وتلك العينان الهادئتان المطمئنتان.. من الظلم أن تجابه بتلك المعاملة من أهل حارتها..

أسقط عم ربيع نظره.. ثم قال..

- معك حق يا ولدى.. ولكن أريد أن أعرف ماذا قالت..

- صدقنى لم تقل شيئا.. أكثر من نظرة ملؤها الحب والتقدير أرسلتها تجاهك فى صمت..

- كنت أعلم أنها لم تقل شيئا.. فأنا أعرف عبير جيدا إن كان هناك من يستعذب عذابه.. فلا أحد غيرها..

وبالرغم من أن الشاب لم يدرك ما يعنيه الرجل.. ولا يعرف عن عبير أكثر من أنها كانت ابنة الحارة المدللة.. وأنها تنتظر الآن

كلمة العدالة فى قضيتها.. ألا أنه آثر ألا يقتحم العديد من تساؤلاته مكتفيا بما سمعه من عم ربيع وغيره.. وبالابتسامة الهادئة التى بادلته إياها منذ دقائق مضت.

وكأن عم ربيع أدرك ما يدور فى خلد الآخر.. وفطن لرغبته فى عدم الاسترسال.. ووجد فى ذلك تأييدا لرغبة نفسه فاستطرد قائلا:

– الوقت قد تأخر ساعدنى على غلق الباب الخارجى.

وفى صباح اليوم التالى وقفت عبير مترددة أمام محل "تجمة الحلمية" تقاوم رغبتها فى الدخول.. كانت الفكرة قبل الرغبة مسيطرة عليها طوال ليلتها الماضية.. واستغرقت فيها وهى ترافق شقيقها الأصغر إلى المدرسة، وعند العودة أحست بخطواتها تقود قدميها إلى المحل كأسرع وسيلة تتفادى بها نظرة الإشفاق.. أو الاتهام.. الحاجة كثيرا ما تخضع الإنسان لرغبات قد يتخيلها حقيقة.. وهى أبعد ما تكون عن نفسه.. ولكن الواقع يقول أن لا حياة لضعيف..

وإذا كانت الحاجة تقوض المبادئ قبل الإنسان وتطوى الحب فى ظل الحرمان.. فلما لا تدخل.. ودخلت.

لتواجه عناد القدر، حيث لم تجد الذى كان يلاحقها دائما بنظراته السمجة.. واستعداده الملح لكى تعمل طرفه.. بل استقبلتها شقراء بشوشة.. وحسناء تجيد التعامل. وأمطرتها بأعذب كلمات الترحيب.. وأدركت عبير أن الفتاة تصورت أنها فى حاجة لتبتاع شيئا، فتلفتت حولها داخل المحل.. كأنها تبحث عن نفسها.. ثم اعتذرت بابتسامة مضطربة وأسرعت بالانصراف..

وما كادت تقطع طريق العودة.. حتى تصلبت فى مكانها عندما ترامى إلى مسامعها صوت، كأنه ينبع من أعماقها..

- عبير..

مرة أخرى وجها لوجه أمام مدحت حمدى..

استدارت ببطء كبير..

- مدحت..

- عبير.. أنا لا أصدق نفسى..

وتسللت لحظة صمت بينهما، كانت كفيلة بأن يلحظ مدحت حمدى بريق عينيها فى دمعة كبرياء تترقرق بين جفنيها..

- تعالى يا عبير.. دعينا نبتعد قليلا عن هنا..

خطوات إلى المجهول.. لا كلمة.. لا تعليق.. ولكنه عناق الروح قبل الأيدى، دفع بهما على الطريق وكأنهما على موعد.. حتى ولو بدا وكأنه موعد الغرباء..

وفى نفس الحديقة العامة التى شهدت أسرار حبهما بادرها مدحت قائلا:

- كيف حالك يا عبير؟

رغبة عنيفة فى للبكاء جعلتها تتنبه.. وتتمالك ثم أجابت..

- لم أتوقع رؤيتك بعد الذى حدث..

ضغط على يدها برفق..

- عبير.. هل يخالجك شك تجاهى بالنسبة للحادثة..

طأطأت رأسها فى استسلام.. وهمست..

- وأنت..

- أنا .. أنا لا أعتقد أنك يهمك رأيى بعد الذى بـــدر منـــى.. أشعر بضآلة نفسى أمامك.. ولكن.. ولكن ما أرجوه أن تحاولى ولـــو لآخر مرة..

رفعت عبير عينيها تجاهه..

- ماذا تقصد..

لاحقها قائلا..

- أنا برىء مثلك يا عبير.. أنا لم ..

قاطعته بلهفة:

- مدحت.. لا تقل هذا.. فأنت أعظم من أن ترتكب مثل هـــذه الحماقة.. أنا أفديك بكل..

والتحمت شفتاها بشفتيه فى قبلة طويلة بادرها بها.. كأنها فـــى تحدى مع الواقع.. أو فى محاولة لذلك.. ولكنها سرعان ما تراجعـــت عندما انتبهنا على صوت بائع متجول..

.. الفل .. معى الفل.. يا صباح الفل..

وتقدم نحوهما فى إصرار قائلا:

- حرام عليك يا فل إذا لم تكن للكل..

فهمس مدحت فى أذنها ضاحكا..

- هيا بنا من هنا قبل أن أرتكب جريمة حقيقية..

ولكنه فوجئ بها تنتفض متوترة..

– ما هذا الذى فعلته يا مدحت..

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة.. تركته مسرعة دون أن تلتفت إليه بينما وقف هو حائرا ما بين متابعتها للحاق بها وبين إحساسه بالانتقام من ذلك البائع الذى كان يردد على مقربة منه منصرفا هو الآخر..

– يا فل يا غريب مالك أمان ولا حبيب..

لم يتردد كثيرا.. وأطلق لساقيه العنان إلى أن لحق بها قبل دخولها الحارة..

– انتظرى يا عبير.. انتظرى..

شىء من الخوف يرقرق فى عينيها..

– مدحت تصرفاتك هذه قد تسبب لنا مشاكل كثيرة..

– أنا .. لا يمكن أن.. ولا..

ولكنه أدار وجهه فجأة.. كأنه يحاول إخفاء نفسه عندما مرقت الحاجة سليمة من جانبه.. لم تأبه لوجودهما.. أو لم تراهما.

هكذا تمنيا فى تلك اللحظة..

وقبل أن تمنحه عبير فرصة استجماع فكره هرولت منصرفة بعد أن رمقته بنظرة عتاب خاطفة كانت تعلم أنه لن يلحق بها هذه المرة.. بل لن يفكر فى اللحاق بها بعد أن تجاوزت منطقة حدوده.. أجل .. كان موقف أهل الحارة منه كفيلا بأن يجعله يفكر أكثر من مرة قبل أن يتخذ قراره بالمرور..

كان الإحساس العام بأنه المسئول عمـا حـدث للحـارة مـن مصائب، وبأنه تمرد على من كان يسـانده.. وكفـر بمبـادئ أهـل النبقة.. واقتحم حياة ابنة حارتهم دون حق مشروع وبدل حياته مـن ليالى نعيم واستقرار إلى جحيم واتهام..

لكل تلك الأسباب أو بعضها كان مـن الطبيعـى أن يسـتدير مدحت حمدى متخذا طريقا آخر غير طريقها.. يلازمه إحساس القـهر فى خطواته والعجز أمام أمانيه ورغباته..

هل يمكن بالحب وحده تحقيق أمانى القلوب..

هل يمكن بالحب وحده التصدى لواقع غير مرغوب فيه..

وبه وحده هل من الممكن بناء صرح الاقتناع..



جلس نصر رحمى يستمع إلى حديث الأسطى فـهيم الـترزى متململا بعد أن استغل الأسطى فهيم فرصة مجيئه طالبا حياكة سـترة شتوية يقوم بتقسيط ثمنها له.. ولكن مقابل عـودة الثـانى للتفصيـل الرجالى ولمبدأ التقسيط الذى تخلى عنه منذ فترة أن يسـتحوذ علـى وقته فى معاتبة مخدومه من خلاله..

ولم يجد بدا من أن يواسيه تارة ويفند عظمة أخلاق عم ربيـع تارة أخرى وبين الآونة والأخرى.. يتوقف عـن حديـث المجاملـة ويقحم رغبته قائلا:

– أعدك يا أسطى فهيم بأن أنتظم فى دفع الأقساط.

ويبتسم الآخر دون أن يبدى موافقة أو ممانعة.. ويسترسل

– تصور أنه ظن بى السوء فى أقوالى مع وكيل النيابة.. كمـا فعل الأسطى قاسم.. لقد رفض عقد اجتماع صلح بيننا بسـبب ذلـك التصور الذى يسيطر على فكره..

– إنه انفعال وقتى... وسيعود كل شىء إلـى طبيعتـه.. ولكـن.. ولكنك لم تخبرنى حتى الآن.. هل وافقتنى على طلبى فى تفصيل البدلة..

وأمام ذلك الإصرار، وقف الأسطى قاسم وهو يحتضن بيـن شفتيه ابتسامة كالحة..

– فى الحقيقة يا أستاذ نصر لم يعد لى صبر لحياكة ملابـس الرجال.. ولكن أعدك أننى..

ولم يجد ما يدعوه لمواصلة كلماته بعدما سارع الآخر بالانصراف من أمامه دون أن يودعه.. يائسا من تحقيق رغبته..

وما أن دخل الحارة مسرعا ليلحق بموعده فى الدكان قبل أن يثير غضب عم ربيع، حتى توقف أمام تجمهر العديد من المارة أمام منزل الأسطى محمد الجزمجى الذى ارتفع صوته صارخا..

– أنقذونى.. أنقذونى أنه يضغط على أنفاسى..

وبدأ نصر يشق طريقه بصعوبة وسط الزحام.. حتى اقترب من سيارة نقل الأثاث القابعة أمام المنزل، واحتمى بها إلى أن وصل لمصدر الصوت ليجد الأسطى محمد ملقيا على الأرض وقد جثم عبودة المشاكس فوق صدره يكيل له السباب قبل اللكمات..

– لن أتركك قبل أن تعطينى حقوقى.. تريد الهرب منى..

ومن خلال لكمه عاصفة.. وصفعة.. باطشة اختتمها عبودة بضربة رأس قاضية أفقدت الثانى قدرته تماما على الحراك والصراخ.. وبحرص شديد مقترن بالتأدب اقترب نصر رحمى من عبودة فى محاولة يائسة ليبعده عن الرجل المسكين الذى كاد يفقد أنفاسه تحته.

– حمدا لله على السلامة يا عبودة.. لا داعى لذلك فالأسطى محمد من رجال الحارة وهو ليس بالغريب.. و..

ولكنه توقف عندما رفع عينيه تجاه محدثه.. ورمقه بنظرة يسبقها الشرر.. ثم أعادها للرجل المنبطح فى استسلام.. قائلا:

– وما دخلك أنت.. ثم أين هم الرجال.. لم يعد فى الحارة رجال.. ابتعد من أمامى.. وإلا..

كانت المرة الأولى فى تاريخ حارة النبقة الذى يتجرأ أحد قاطنيها أو العاملين بها على مناطحة عبودة المشاكس الذى لاحقه نصر بضربة فى فكه اهتز لها برهة.. ووثب وثبة أسد جائع وفى عينيه رغبة جامحة، لالتهام فريسته.

.. لحظة تجمعت فيها كل المعانى المضطربة فى ذهول وعيون المتجمهرين مشفقة على ذلك المسكين الذى ألقى بنفسه بين أنياب الوحش.. وبين إحساس بالإعجاب والتعجب لجرأته.. وبين لهفة لمعرفة النتيجة..

.. ظهر فجأة أحد رجال الشرطة السريين.. وحال دون تشابكهما بالأيدى مرددا:

– ألن تهدأ يا عبودة.. لم يمض على خروجك أكثر من سويعات.. هيا تعالى معى.. هيا..

وراح يجذبه بقوة.. ويدفعه أمامه..

وحدث ما لم يكن فى الحسبان.. حين فوجئ الجميع بتدخل الشاب محدثا الشرطى:

– اتركه أرجوك.. فأنا لا أريد أن أشكوه.. ثم أنه أخ عزيز لى وما حدث مجرد سوء تفاهم..

ثم التفت إلى عبودة..

– أليس كذلك يا عبودة..

تمتم الآخر بكلمات غير مفهومة.. فجذب يده بقوة من الشرطى كأنه يؤكد على كلام خصمه.. وبدأ الحشد يتشتت تدريجيا،

بينما تحامل الأسطى محمد على نفسه وتسلل إلى داخل المنزل بعـــد أن صرف سيارة الشحن فارغة كما جاءت..

ووقف عبودة يتابع انصراف الشاب من أمامه وهو متجه إلـــى الدكان بنظرة تحد قاسية.. وهرع بعضهم مســـرعا بعدمـــا اكتشـــفوا تواجدهم بمفردهم وجها لوجه مع عبودة.. كأنهم يخشـــون أن ينفــس عن غضبه بضربهم أو يتهددهم كالعادة..

فانصرفوا وهم متشككون فى كل شىء.. فهم لا يدرون إن كـــان الشاب اتخذ هذا الموقف خوفا من انتقام عبودة فيما بعــد.. أم أنـــه أقــدم عليه، ليعلن أنه قد تسلم راية الجبروت من خصمه منذ تلك اللحظة..

فأهل الحارة لا يزالون يعانون من توترهم بعد حادثة مصطفى الكيلانى وملاحقة رجال المباحث لهم بالأسئلة وتضييق الخناق بكـــل الطرق بعد أن قارنوا بلاغ أحد صيادلة المنطقـــة باختفـــاء زجاجـــة زرنيخ من الصيدلية.. وثبت بأن البلاغ مقدم قبيل الحادثة بأيام قليلة.. ولكن الصيدلى لم يتهم أحدا وربط رجال الشرطة بلاغ الصيدلى بقتـل مصطفى الكيلانى الذى ثبت من التحليل أنه قد قتل بنفس المادة.

وكانت مفاجأة لنصر عندما لاحظ أن المحل لا يـــزال مغلقـــا على غير عادته وتسلل الشك إلى قلبه أن يكون عم ربيع قد عبر عــن غضبه بإغلاق المحل فى وجهه... فتردد برهة وهو يتلفت حوله..

ثم انتبه على صوت الحاجة سليمة من فوق السطح قائلة:

– كنت أظنك ذهبت معه يا ولدى..

رفع رأسه إلى أعلى متسائلا بصوت جهورى:

– مع من يا حاجة..

- مع المعلم ربيع .. ذهب فى مهمة مع ابنه صفوت ولكن أخبرنى يا ولدى ما سبب الضوضاء التى كانت منذ لحظة.. و..

ولكنه تركها تواصل استفساراتها وتحرك منصرفا.. والمرأة العجوز تلاحقه من مكانها وبصوتها المبحوح حتى اختفى وسط الضجيج وتوارى هو عن عينيها وسط الزحام..

كان الأفق ملتهبا.. بدا وكأن عيناه قد أعياهما السهر.. والسماء تفصلها عن الأرض شرنقة ضبابية تسبح تحت قبضة الغيوم..

وقفت عبير بردائها الأسود، تضم شعرها تحت وشاح قاتم فى لحظة صمت لا يشاركها فيها سوى زمهرة ريح خفيفة.. ومقبرة أمها..

.. اليوم موعد زيارتها..

رحلت يا أمى إلى الأبد.. هل أنت راضية الآن.. لو تعلمين بعد رحيلك ماذا كانت تخبئ الأيام.. لو تعلمين أن ابنتك الوحيدة باتت تتمنى أن تجاورك فى مثواك.. وتشاركك صمتك.. وغربتك.

رحلت يا أمى انتصرت على مرضك بموتك وأنا أعيش الآن تحت سلطان العذاب.. ولا حيلة لى..

أجيبى يا أمى.. لو كان الأمر فى يدك.. هل كنت ترضين؟

- عبير..

التفتت مذعورة لبرهة.. ثم سرعان ما تمالكت نفسها عندما وجدت أمامها مدحت حمدى الذى استقبلها بابتسامة هادئة..

- مدحت .. كيف عرفت..

- كنت أعلم أنك ستحضرين إلى هنا اليوم.

و.. تسلل الصمت مرة ثانية.. أفسح لها الطريق بضع خطوات متجاورة إلى أن وصلا لمصطبة رخامية غير مرتفعة..

وجلس فى اضطراب مستتر ثم همس مدحت:

– لست أدرى ما الذى فعلناه حتى يعاندنا القدر..

رفعت رأسها كأنها تستطلع الأفق.. وتمتمت..

– نحن لم نفعل شيئا فهى نتيجة عادلة.

التفت متلهفا..

– ألن تصفحى أبدا يا عبير..

– لا أملك الصفح.. ولا أنت يا مدحت فكلانا ضحية العجز.

و.. قاطعها برفق..

– وحبنا.. حبنا يا عبير ألم يعد له صدى.

ومن خلال نظرة مرهقة أجابت عبير..

– مشاعرى هى الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أقول بأنها ملكى..

– أرجوك يا عبير.. لا تجعلى الأحداث تسيطر عليك.. فأنا أحبك وأنت تعلمين وبحبنا سنفعل الكثير.. الكثير جدا..

وهنا انتفضت عبير فجأة.. وأشاحت بوجهها بعيدا عنه وهى تجيبه بنبرة أقرب إلى البكاء:

– وأين كان هذا الحب يا مدحت.. وماذا فعل..

ثم أعادت نظرتها إليه.. وأردفت..

– وماذا فعلت أنت.. أفضل لى أن أقول أن الحب وحده لا يكفى.. على أن أتصور لحظة أنك كنت مخادع أو بلا إرادة..

- لا.. لا.. عبير أرجوك..

نهض منتصبا أمامها.. واستطرد..

- أنت وحدك تعلمين الحقيقة.. أنت وحدك تعلمين كيف أذلنى الواقع.. كيف سخر العذاب من حرمانى كيف قهرتنى ليالى الفقر.. والضياع..

- وأنت.. ألا تعلم عنى شيئا..

ولكنهما التفتا فى لحظة واحدة تجاه مصدر محرك سيارة وقفت فجأة على مقربة منهما خارج مبنى المقبرة سيارة أجرة.. هبط منها شخص اتخذت خطواته طريقها داخل ساحة المقبرة متقدما نحوهما.. وما إن اقترب بعض الشيء حتى تراجعت عبير بخطوة أبدت فيها دهشتها.. ثم تمتمت لنفسها..

- أمن الممكن أن يكون هو..

وكان هو..

نصر رحمى الذى تقدم نحوهما بخطى ثابتة وعلى شفتيه ابتسامة لقاء سبقه موعد..

ثم توقف أمامها متجاوزا مدحت حمدى..

- مساء الخير يا عبير هانم..

- مساء الخير..

أجابت وأسارير الدهشة تعلو وجهها.. ثم التفتت إلى مدحت حمدى قائلة:

- الأستاذ مدحت حمدى.. أحد جيراننا السابقين.

ثم أضافت:

- الأستاذ نصر..

وصمتت.. بينما تدخل نصر موجها حديثه إلى مدحت..

- نصر رحمى.. أعمل طرف عـــم ربيـــع.. وإنـــى ســـعيد لرؤيتك.. فلقد سمعت عنك كثيرا..

ابتسم مدحت.. ابتسامة باهتة دون أن يتفوه بحرف واحد كمـــا أن الآخر لم يهتم بما يمكن أن يقوله مدحت.. وتوجه لعبير مرة أخرى..

- أعتذر لتطفلى.. ولكن عندما ذهب عم ربيع بصحبة ولـــده الأستاذ صفوت لزيارتك لم يجدك.. وكان القلـــق واضحـــا علـــي.. أشقائك.. يبدو أنه قد طال غيابك عنهم اليـــوم.. فتطوعـــت للبحـــث عنك.. وتوقعت وجودك هنا..

- بل أعتذر لك أنا.. لأننى سببت لكم كل هذا القلق..

- على كل حال.. سيارة الأجرة لا زالت تنتظر بالخارج.. فهل تسمحين لى..

نظرت إلى مدحت فجأة، كأنها تذكرت لتوهـــا وجـــوده.. ثـــم عادت ورمقت الآخر بنظرة سريعة.. حائرة.. وأدرك نصر ما يجول بخاطرها.. فلاحقها..

- السيارة تتسع للجميع.. فإذا كان الأستاذ..

ولكنه توقف عن الحديث عندما اقتحم مدحت كلماته قائلا..

- لا داعى لمرافقتكما.. أرجو أن تبلغ تحياتى لعم ربيع..

ثم تحرك منصرفا خارج المقبرة.

بينما وقفت عبير تتابعه منفعلة.. ما بين رغبتها فى إيقافه.. أو

اللهث وراءه وبين ذلك الزائر غير المتوقع..

واستقلت السيارة بجانبه لتقلها إلى حارة النبقة من جديد.. إلى واقعها الحقيقى..

وكانت المرة الأولى التى تجتمع فيها عبير مع عم ربيع بعد حادثة زوجها.. فهو أيضا كان يدور فى دوامة الشك تجاهها.. وكأنه يبحث عن أى مبرر يستطيع من خلاله أن يقضى به على مواقفه السابقة.. ولحظة شك سحبته وراء دوامة ليال طويلة.. وكان أنسب مبرر هو وصول صفوت الذى أكمل تعليمه فى الخارج وعاد على غير ما توقع الآخرون. الشباب تجسد فى نبراته.. وعيناه لا تطويان غير الاستقرار والطمأنينة.. ونبرة صوته تعبر بوضوح عن أحاسيس الثقة والرضى..

لم يتغير صفوت ربيع كثيرا.. ولم تزد عليه سنوات الغربة سوى شيء من النضج وأشياء كثيرة فى عينيه تجاه عبير..

واستقبلتهما بترحيب كبير.. وكان أكبر الأثر فى أعماق ربيع عندما بكت عبير على صدره.. كأنها تطلب نجدته.. أو شيئا من حنان..

بينما كان هو يربت على ظهرها برفق مرددا..

– لا تخشى شيئا يا ابنتى.. فلا شيء ضدك مطلقا.. ولا دليل واحد يمكنهم أن يستندوا إليه.. لا تخشى شيئا فأنا أبوك وسأظل ما حييت أبا لك ولصفوت ابنى.. ثم إننى أصدقك. وتدخل صفوت متأدبا فى محاولة لتقليل حدة التوتر..

– لأول مرة فى حياتى أشعر بالرضى وأنا أرى أبى يضم إنسانا آخر غيرى إلى صدره..

فتسللت ابتسامة رقيقة على شفتيها وهى تتراجع قليـــلا عــن صدر أبيه.. فلاحقها صفوت مرة أخرى وهو يرمقها بنظرة حانية..

– ولو كنت أعلم بأنى أستطيع أن أعيد الابتسامة إلى شـــفتيك كما أراها الآن.. لكنت قطعت غربتى وعدت فورا..

وضحك الأب ضحكة من القلب وهو يربت على كتفيه بحنـــان قائلا من خلال ضحكته ..

– أنا الذى كنت أجهل أن العلم سيجعل لسانك بهذا الطول..

فأجابه صفوت وهو يركز عينيه تجاه عين عبير..

– لا أعتقد أنه العلم يا أبى..

وما إن انتهى من كلماته حتى أدارت عبير وجهها فجأة بعيـــدا عن نظرته.. كأنها أدركت بأنها المقصودة بتلك الكلمات ولم تلحـظ لا هى ولا صفوت نظرة عم ربيع.. وكأنه سعيد هو الآخر بـــأن كـــلا منهما لم يتصور أنه لم يفهم شيئا مثلهما.

الليل انتصف على حارة النبقة.. السكون استقر بداخلها يشارك الظلام فى سيطرته على المكان.. لا حركة.. ولا صوت..

وفجأة ظهر خيال كالشبح يكشفه ضوء القمر تـــارة، ويختفـــى تحت بناء الشرفات تارة أخرى.. وبخطوات مسرعة كالوثبات.. دلف إلى داخل منزل الأسطى محمد وبمجرد أن توارى بداخلـــه.. حتـــى ظهر من يتبعه بنفس الطريقة..

وبدأ عبودة المشاكس يصعد درجات السلم بحذر شديد.. وهـــو يتلفت حوله فى الظلام كأنه شعر بأن هناك من يتبعه.. أو كأنه يتـــأكد

بأن أحدا يتبعه.

وبرفق شديد طرق باب الأسطى محمد عدة طرقات متوالية.. ومضت لحظات قليلة وجاء صوت الأسطى محمد من وراء الباب متسائلا..

– من..

وبلا تردد أجاب بصوت منخفض..

– عبودة.. أنا عبودة..

وبحذر شديد انفتح الباب ليظهر الأسطى محمد والتوتر يهز كيانه..

– ما الذى جاء بك يا عبودة الآن ألا تعرف أن..

فقاطعه وعيناه تلمعان فى ظلمة المكان..

– أنصت إلى جيداً.. أنا أريد باقى حسابى..

– يا عبودة.. لا تتهور. فأنا ارتضيت بما حدث.. بالرغم من أنك لم تنفذ ما اتفقنا عليه.. وكان المفروض أن أطالبك بما أعطيته لك..

ارتفع صوته قليلا وهو يجيبه..

– الأمر عندى سيان.. المهم أننى نفذت العملية كما أردت.. عليك أن تعطينى المبلغ الباقى..

– ولكنك نفذته فى مصطفى الكيلانى وليس فى المعلم عباس كما اتفقنا..

وارتفع الصوت أكثر.. مقتربا منه فى تحفز..

– قلت أن كلاهما لا يمثل بالنسبة لى سوى عملية.. وليس من شأنى أن ذاك شرب السم بدلا من الآخر.. والآن أريد المبلغ الباقى وإلا..

فقاطعه الآخر مستعطفا..

– سأمنحك إياه إذا خلصتنى من المعلم عباس.

– لن أفعل قبل أن آخذ حقى كله.

تلفت الأسطى محمد مرة أخرى حوله.. وقد بدت حبات العرق تطفو على وجهه.. وتسللت رجفة إلى جسده وهو يقول..

– دعنى أفكر.. وانصرف الآن.. انصرف يا عبودة فـــالوقت متأخر.. و.. وبعناد كبير.. وإصرار أكبر أجابه..

– لن أنصرف.. قلت لك أريد المبلغ.. وإلا قتلتك أنت الآخر..

وهم يجذبه من عنقه.. ولكنه تراجع مذعورا عندما وجد نفســه يتوسط حلقة ضوئية برفقة الأسطى محمد الذى كاد أن يفقــد توازنــه من الخوف عندما ترامى إلى مسامعهما صوت قائلا:

– لا داعى يا عبودة وإياك أن يتحرك أحدكما من مكانه.

وظهرت ملامح نصر رحمى وهو يصعد الدرجـــات مســـرعا شاهرا مسدسه فى وجههما وبيده كشاف ضوئى كبير يسلطه عليهما.. وعند اقترابه منهما قال بصوت حازم.

– أنا المقدم نصر رحمى.. ضابط مباحث.. هيا تقدم أمامى.

وقبل أن ينتبه أحدهما من شدة المفاجـــأة.. كـــانت محركـــات السيارات تتلاحق الواحدة تلو الأخرى.. وتتوقـــف أمـــام المـــنزل.. والسارينة الخاصة بسيارات الشرطة تقطع الصمت بقوة.. وأحـــاطت الكشافات بكل المنطقة حتى بدت وكأنها تباشير الفجر.. وبدأت النوافذ تنفلج الواحدة وراء الأخرى.. ويســـتطلع أصحابـــها الأمـــر.. مـــع صرخات زوجة الأسطى محمد كأنها تشيع جثمانه.

ولم يجد الأسطى محمد بدا من أن يستسلم لموظف عم ربيع أو ضابط المباحث نصر رحمى وفى ثوانى قليلة كانا تحت قبضة رجال الشرطة الذين استقبلوهما فى منتصف الطريق. وما إن رأى الأسطى محمد سيارات الشرطة تنتظره أمام منزله والعديد من أهل الحارة الذين دفعهم حب الاستطلاع.. حتى أن بعضهم هرع بملابس النوم.. والبعض الآخر لم ينتبه أن ملابسه غير كاملة.. وما كاد الأسطى محمد يجد نفسه فى ذلك الموقف حتى انتابته حالة هستيرية. فراح فى صرخات متتالية:

– أنا برىء.. أنا برىء.. عبودة هو القاتل عبودة هو المجرم.. أنا لم أفعل شيئا.. أنا لم أفعل شيئا.. أنا.. ثم فضل الصمت داخل السيارة.

وأمام وكيل النيابة المحقق جلس عبودة المشاكس بمفرده يسرد ما حدث بلا مراوغة بعد أن تم استدعاء الصيدلى الذى أبلغ عن اختفاء زجاجة الزرنيخ من الصيدلية.. وقرر بأن عبودة كان آخر من خرج من عنده يوم اختفائها حيث جاءه يومها سائلا عن شريط لاصق. وفى التحقيق اعترف عبودة المشاكس بأن الأسطى محمد انفرد به ذات مساء وأفصح عن عجزه أمام المعلم عباس الذى استهان به إلى أقصى حد.. كما أنه أدرك حقيقة العلاقة التى تربطه بزوجته.. ولخوفه من تلك الفضيحة أمام أهالى الحارة.. وقف عاجزا فقرر قتله بعد فشله مع زوجته.. وإحساسه بالقهر أمام جبروت المعلم عباس.

واهتدى أخيرا إليه طالبا منه التخلص من غريمه مقابل كل ما يملك وهو ألف جنيه.. وتم الاتفاق بينهما على أن يستلم عبودة نصف

المبلغ والنصف الثانى بعد تنفيذ المهمة. وذكر عبودة أمام المحقق أن الحفلة التى أقامها مصطفى الكيلانى لم تكن فى حسبانه مطلقا فقد كان مقررا أن يضع الزرنيخ للمعلم عباس بطريقة أخرى.. ولكنه.. عندما سمع بدعوة مصطفى الكيلانى لأهل الحارة عن طريق الحاجة سليمة.. وجد الفرصة متاحة لتنفيذ جريمته. وفى الحفلة تسلل عبودة إلى المطبخ بحجة معاونة العاملين فى توزيع المشروبات واستغل تواجده بمفرده.. وأسرع بوضع الزرنيخ فى أحد الأكواب تمهيدا لتقديمه للمعلم عباس بطريقة أو بأخرى.

وما إن انتهى من وضع الزرنيخ حتى فوجئ بصوت خطوات من خلفه ليجد أحد العاملين يتقدم نحوه ويتناول العديد من الأكواب الممتلئة ومن بينها كوب الزرنيخ.. ويسخر القدر من كل محاولات الحذر.. ليصبح الكوب من نصيب مصطفى الكيلانى.. ويسأله المحقق عن سبب مشاجرته مع الأسطى محمد بالرغم من أنهما يشتركان فى عمل واحد..

ويجيب فى تحد.. أنه أدرك أن الأسطى محمد يريد أن يرحل عن المنطقة هروبا من المسئولية.. وتخلصا من باقى الدين..

وعند انصراف عبودة برفقة رجال الشرطة من مكتب النيابة يفاجأ بالمقدم نصر رحمى يدخل إلى المكتب.. فيتوقف أمامه برهة ثم يقول:

– تصورتك معتوها عندما تجرأت على ضربى.. ولكننى أدركت الآن بأننى كنت المعتوه الوحيد فى الحارة.

قبل أن ينتصف نهار اليوم الثانى، كانت حارة النبقة تموج بساكنيها.. وزائريها من معارفهم وانكسر حاجز الصمت على شفاه

الجميع.. وبدأ كل منهم يستعيد ثقته بنفسه مرة أخرى. بعضهم بالغ فيها، فأبدى تأكيده بأنه كان يحصر شكوكه فى عبودة المشاكس.. وآخر يعترف بأنه كان على يقين بأن الأسطى محمد طرف فى الجريمة.. وبعض آخر تجاوز حدود المبالغة وأكد أنه كان يضع الاثنين منذ الجريمة تحت إطار شكوكه.. وتضطر عبير لفتح بابها لزائريها وهى لا تعلم إن كانوا يهنئونها على براءتها أم أنهم يقدمون لها العزاء فى زوجها.. خاصة وأن أحدا منهم لم يفعل ذلك منذ الحادثة.. ولكنها استقبلتهم فى النهاية.

كانت زوبعة عنيفة.. ولكنها أشبه ما تكون بثورة أمواج البحر، سرعان ما تهدأ أو تستكين عند شاطئ الأمان.

هكذا بدا أهل حارة النبقة الذين أنستهم لحظة اللقاء دوافع الفرقة والعناد أو تناسوا أمام أحاسيس الانتماء كل ما حدث فى سبيل تلك اللحظة.

ما أروع لحظات الصدق فى حياتنا..

وقف الأسطى قاسم وسط الحاضرين يرتب ديباجته معلنا اعتذاره عما بدر منه تجاه عم ربيع.. بينما سارع الآخر إليه فى عناق طيب متسامحا ومجاملا..

فى الوقت الذى فاجأهم فيه الأسطى فهيم برغبته فى العودة للحارة مرة أخرى على أن يستغل المحل الآخر كمخزن لبضاعته، فتقدمت منه الحاجة سليمة تؤيده على قراره وهى تزج برغبتها المازحة بأن يحيك لها جلبابا خاصا بلا مقابل.. وسرعان ما لمعت عينا الأسطى قاسم مرة أخرى كعادته فى مثل تلك المواقف وانتبه

متحفزا لإجابة فهيم متمنيا استغلال الموقف لصالحه، ولكن خاب أمله بمفاجأة الأسطى فهيم وهو يقسم لها بأن جلبابها سوف يكون أول عمل يبدأ به فى الحارة.

وقبل أن تتوالى ضحكاتهم.. وقفشاتهم.. انتبه الجميع فى لحظة صمت جمعت بينهم عندما ترامى إلى مسامعهم صوت محركات سيارة كبيرة تقتحم الحارة.. وكان عم ربيع أسرعهم إلى النافذة ليستطلع الأمر.

وأرسل بصره مدققا برهة ثم عاد بهدوء شديد دون أن يتفوه بكلمة واحدة جالسا مكانه مرة أخرى.. واستلفت ذلك التصرف نظر الأسطى قاسم فنهض بنفسه ليتأكد من سبب الضوضاء.. واستطاع أن يدرك ما تجنب عم ربيع التحدث عنه، حيث كانت السيارة تنقل محتويات المعلم عباس الجزار الذى قرر ترك الحارة، بعد موقفه المشين.. وعاد قاسم مرة أخرى يتبع نفس تصرف الأول.. وتلاه الثالث.. وغيره.. وكل منهم يحاول ألا يبدى للأمر أهمية.. فكانت موافقتهم الضمنية على ذلك التصرف.. كانت عبير تتابع تصرفاتهم وهى فى مكانها كأنها تسترجع أحداثا مضت لا تعرف كيف أبعدت بينهم ولا كيف جمعت بينهم.. وتسلل بعض الوقت.. بدأ على أثره انصرافهم الواحد تلو الآخر، بينما وقفت عبير تودعهم وعلى شفتيها ابتسامة طالت غربتها..

ولاحظت تلكأ الحاجة سليمة لحين التأكد من انصرافهم جميعا.. وصدق توقعها.. فما أن ترك أخرهم المنزل حتى اقتربت المرأة منها بخطوات متعثرة.. تفرك يديها فى ارتباك مصطنع..

وتقدمت بخطوة وخلفت أخرى على الباب الخارجى ثم التفــت إليــها بعينين زائغتين:

- أبلغتنى الحاجة فاطمة زوجــة عــم ربيــع برغبتــها فــى زيارتك.. ثم مرقت من جانبها مسرعة كأن ما تقوله لعبير لا يعنيها.. وصعدت درجات السلم مرددة:

- أراك بخير يا عروس الحلمية.

اضطربت عبير للحظة.. تمالكت نفسها بعدهــا وهــى تغلــق الباب، واتجهت إلى غرفتها.. أو إلى عالمها الخاص.. لقد أدركت مــا تعنيه الحاجة سليمة.. فهى تعلم بأن زيارة زوجة عم ربيـــع ليســت بالزيارة العادية.. تصرفات عم ربيع التى باتت تأخذ شــكلا جديــا.. واهتمام صفوت الواضح بها بعد عودته.. وأخيرا الزيارة.

القرار أكبر من مشاعرها.. منافسة غير عادلة بيــن مشــاعر أنهكتها الأحداث وبين واقع لا يعترف إلا بالقوى فالانتصار للواقــع. وإن كانت هناك هزيمة فهى لتلك المشاعر. صفوت ربيع ابن الحــارة الذى ساندته الغربة فى التصدى لمشاعره.. مدركا حقيقـــة القرابيــن التى لا يقبل واقعه سواها، فمنحه الواقع حــق البحــث عمــا يجــب تحقيقه.. كما منحه حق الاختيار..

توالت طرقات خفيفة على باب غرفة مدحت حمــدى.. بينمــا كان مستسلما لوعكة ألزمته الفراش عدة أيام.

فتح عينيه المثقلتين لتكشفا عن نظـــرة هزيلــة.. وبصعوبــة استطاع أن يرفع صوته متسائلا.. فجاء صوت صاحبــــة البنســيون تطلب الإذن لها بالدخول..

– هناك من يريد مقابلتك يا أستاذ مدحت..

– مقابلتى.

فى همس كأنه يحدث نفسه.. ثم أردف..

– يمكنه أن يأتى إلى غرفتى.. فأنا لازلت منهكا..

ومضت لحظات قليلة على انصراف المرأة.. ليجد مدحت حمدى نفسه أمام آخر من كان يتوقع مجيئه.. فأجفل عدة مرات كأنه يتأكد من يقظته قائلا:

– أبى..

اقترب والده منه، وفى عينيه لهفة يصعب إخفاؤها..

– مدحت لا بأس يا ولدى.. لماذا لم تبلغنى بمرضك.. كيف تترك نفسك هكذا دون رعاية..

قاطعه برفق..

– لا تنزعج يا أبى.. إنها وعكة خفيفة.. ولكن.. ولكن ماذا حدث.. هل فى الأمر مكروه لأمى.

ربت على يده النحيلة.. وابتسامة رضى يملأ شفتيه..

– لا تخف يا ولدى..

تخلص من زفرة طويلة، كأنه يلقى من فوق صدره هموما طال حملها..

– أتعرف أنها المرة الأولى منذ سنين طويلة.. أرى فى عينيك أشياء طالما تمنيت أن أراها.. ولو للحظة واحدة..

ثم تحول عنه فجأة كأنه يخشى أن تموت تلك اللحظة قبل أن

تولد.. وأردف:

- جئتك بنبأ سيسعدك كثيرا.. استلمت رسالة تفيد بتعيينك.. و..

وقبل أن يسترسل، كان مدحت حمدى قد انتفض من فراشـــه.. ووقف أمامه مذهولا.. بإحساس التائه الذى اهتدى إلى دربه فجأة

- ماذا قلت.. ؟

- إن قرار تعيينك وصل يا مدحت. وســـعادتى بذلـــك تفـــوق الخيال وأنت يا مدحت أليس كذلك..

لحظة غامضة اختطفت مدحت من ذلك الموقف.. وغاب معها إلى رحلة تمنى ألا يعود منها..

ثم انتبه لوالده الذى كان لا يزال يردد..

مدحت .. مدحت.. أين ذهبت..

- لا شىء يا أبى.. لا شىء.. وأشكرك..

همهم الأب معلنا عن انصرافه.. وتلكأ قليلا بينما كان مدحـــت يرافقه إلى الباب ولكنه توقف عند التفاتة أبيه إليه..

- مدحت.. أما آن للغريب أن يعود يا ولدى..

وفى لحظة صمت اختفت معها كل ذكريـــات الليـــالى.. مـــن طفولة بريئة.. وشباب غريب عـــن نفســـه وكفـــاح مـــع الصـــراع والغموض وقف مدحت يملأ عينيه من وجه والـــده الـــذى ارتجفـــت نظرته فى كبرياء.. ثم دنا منه بخطوة أخرى هامسا:

- أجل يا أبى.. سيعود..

وبحنان فجرته سنون الحرمان جذبه الأب إلى صـــدره وهـــو

يربت على ظهره كأنه ينفض عنه غبار الحزن.. والضياع.

وما كاد مدحت يشعر بذلك الدفء والاطمئنان.. حتى استسلم لبكاء عنيف فى نهنهة عميقة وهو يلقى برأسه على كتفه مرددا..

– سيعود يا أبى.. سيعود.

كأنه صبح غير كل صباح.. استمتع بالشمس تذيب دفئها فى كيانه وبنسمة الحياة تدب فى شريانه.. كل شيء يراه كأن أعماقه مصدرها..

الكون مملكته.. والناس عشيرته.. والحب حبه.. والربيع عمره..

هكذا كانت مشاعر مدحت حمدى وهو فى طريقه إلى عبير.. كانت خطواته أسرع من أن تلاحق قدميه وهو يقطع حارة النبقة مرة أخرى بعد غيبة طويلة.. صعد درجات السلم فى قفزات سريعة.. ولكنه توقف فجأة عندما التقى بالأسطى فهيم عند مدخل الباب واستقبله الآخر باشا:

– الأستاذ مدحت أقلقتنا عليك يا رجل..

– استلمت قرار تعيينى.. استلمت قرار..

ولكنه صمت مرة أخرى عندما فوجئ بظهور الأسطى قاسم وعم ربيع لاستقباله من داخل الشقة.. أحاطوا به يهنئونه.. كلمات كثيرة.. وأناس أكثر يحيطون به من كل جانب.. وهم يدفعون به إلى الداخل.. حيث فقد قدرته على استيعاب ما يحدث حوله.. أو رغبة منه فى ألا يفهم ما توقعه فى تلك اللحظة.. كانت عبير تجلس وبجوارها صفوت ربيع ومن حولها وجوه يعرفها جيدا..

كان عم ربيع مبتهجا.. والحاجة سليمة تقطع الردهة مرارا فى

حيوية غير معتادة..

وهو يقف بينهم كما الغائب عن رشده..

ثم انتبه على صوت عم ربيع قائلا فى طيبة وابتهاج.

- إنه ليوم عظيم حقا.. يوم من أسعد أيـــام حيـــاتى، فرحتـــى بخطوبة ابنتى عبير لصفوت ولدى..

والتفت إلى مدحت مستطردا..

- وبتحقيق أمانيك يا مدحت يا ولدى.. فأنتم فخر حارة النبقـة. وتقدم مدحت تجاه عبير بخطوات مسلوبة.. وكلمة هامسة:

- مبروك يا عبير..

ومرة أخرى تجاه صفوت ربيع الذى استقرت الابتسامة على شفتيه..

- مبروك يا أستاذ صفوت.. تمنياتى لكما بالسعادة..

وبنفس الخطوات المضطربة انسحب مدحت من وسط الجموع وفى يده رسالة البشرى يضمها بين أنامله برفق كأنه يتيح لها فرصـة السقوط إلى الأرض.. إلى العدم. واتخذ طريق العـــودة.. والبعـض يلاحقه بعبارات التهنئة له.. وفى عينيه دمعة تغلبـت علـى إرادتـه لتنتحر على خديه.. والآخرون من حوله لا يعلمون.. أكـــانت تلـك دمعة حزن أو أنها تعبير عن سعادته بقرار التعيين..

واتخذ طريقه داخل الحارة عائدا بمفرده ولا شىء فى أعماقـه غير صدى صوت عبير وهى تردد عبارتها فى أذنيه" الحب وحـده لا يكفى" وأمل كبير يخالجه بأن تكون هى قد اقتنعت بمضمـــون هـذه العبارة..